



سلسلة الثقافة القومية (٢٣)

عن
القومية والوحدة العربية

سألني سائل فأجبت

الدكتور سعدون حمادي

عن
القومية والوحدة العربية
سألني سائل فأجبت



مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة الثقافة القومية (٢٣)

عن
القومية والوحدة العربية
سألني سائل فأجبت

الدكتور سعدون حمادي

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

حمادي، سعدون

عن القومية والوحدة العربية: سألني سائل فأجبت/ سعدون حمادي.

٣٦٨ ص. ـ (سلسلة الثقافة القومية؛ ٢٣)

١. القومية العربية. ٢. الوحدة العربية. أ. العنوان. ب. السلسلة.

320.54

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣

الحمراء ـ بيروت ٢٠٩٠ ١١٠٣ ـ لبنان

تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت

فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

e-mail: info@caus.org.lb

Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، حزيران/يونيو ١٩٩٤

الطبعة الثانية: بيروت، تشرين الأول/اكتوبر ٢٠٠٠

المحتويات

— ١ —

في ما يأتي حوار تصورت أنه جرى بيني وبين مواطن عربي فيه بذور الخير وبداية الشعور القومي، وهو مواطن ولد في (وجدة) تلك المدينة المغربية الواقعة على الحدود مع الجزائر، وقد زرتها مع رفيق، رحمه الله، على هامش زيارتنا المغرب، بدعوة من «الاتحاد المغربي للشغل» سنة ١٩٥٩ بمناسبة احتفالات الأول من أيار/ مايو الذي يطلق عليه في المغرب «فاتح مي». وقد نظّم لنا الزيارة إلى وجدة الصديق الحميم عبد الحميد المهري الذي كان يقيم في الرباط آنذاك ممثلاً لجبهة التحرير الوطني الجزائري. وقد استضافنا في بيته ورتّب لنا زيارة وجدة حيث قابلنا المرحوم الرئيس الراحل هواري بومدين الذي كان قائداً لجيش التحرير الجزائري آنذاك. والمواطن

العربي المولود في وجدة كان يعمل صحفياً في الجريدة الناطقة بلسان الاتحاد الوطني للقوات الشعبية الصادرة في الدار البيضاء آنذاك. هكذا كان تصوّري.

وقد أطلقت على هذا المواطن نعت «السائل المستوضح الكريم»، فهو سائل لأنه كان يوجّه لي الأسئلة، وأنا أجيب عنها، وهو في ذلك يقصد الاستيضاح وليس الإحراج، ويريد أن يعرف الجواب والتزوّد بالمعرفة من موقف ايجابي مستعد لاتباع ما يتبين له أنه حق وصدق. كما حرصت على أن أسميه بـ «الكريم» احتراماً له وتقديراً مني لموقفه، فالذي بيننا حوار نزيه، وليس جدالاً في جو سلبي. تلك هي أسبابي لهذا الوصف ليس غير.

كما انني اخترت مواطناً من المغرب الواقعة في أقصى الوطن العربي غرباً، لأنني بالفعل عندما ألتقي بإنسان من ذلك القطر مؤمن بالقومية العربية أجد فيه دليلاً ملموساً على وحدة الأمة وتجانس تركيبها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وقد تعرّفت على الكثيرين من أمثال هؤلاء وهم في ازدياد يوماً بعد يوم.

— ٢ —

وقد دار بيني وبين هذا المواطن كما وصفته الحوار الآتي:

وجّه لي السائل المستوضح الكريم سؤالاً فأجبت، والسؤال واحد، إلا أنه الكثير من الأسئلة في الوقت نفسه، وأجبته بجواب

واحد، إلا أنه العديد من الأجوبة في الوقت نفسه. والسؤال منه والجواب مني غرضهما الإيضاح والشرح، وفي ذلك قوة للفكرة موضوع السؤال والجواب.

والسؤال الذي هو موضوع هذه السطور هو: **ما الوحدة العربية؟** سؤال بسيط بكلمات قليلة، وكان جوابي بسيط وبكلمات قليلة أيضاً. **الوحدة العربية هي أن تتحد الدول العربية لتكوين دولة عربية واحدة ذات كيان دولي واحد.** اذن فالهدف هو تكوين دولة عربية واحدة وليس شيئاً آخر، أقل أو أكثر من ذلك. وكلمتا الأقل والأكثر ليستا استطراداً لفظياً، كما قد يظن السائل المستوضح الكريم، بل لهما معنى محدد ومقصود سيتضح من خلال ما هو قادم من الحديث. وربما كان من المفيد ايراد تعريف للدولة. وهنا أيضاً لا بد من اللجوء للبسيط الواضح من التعاريف. فالدولة كما تعرّفها الكتب المدرسية هي الكيان الذي تتوفر فيه عناصر الأرض والشعب والحكومة والسيادة، والسيادة تعني الحرية المطلقة للتصرف بالشؤون الداخلية والخارجية للدولة.

إذن، أيّها السائل المستوضح الكريم: الوحدة العربية هي تكوين دولة عربية واحدة بالتعريف الذي أوردناه للدولة. وأنت ربّما تسأل مجرداً: **وما الهدف من قيام هذه الدولة الموحّدة؟** وهو سؤال بسيط أيضاً إلا أنه ليس قليل الأهمية، لذلك فلا بد من الجواب عنه وببساطة أيضاً. وكلما فكرت في الجواب الأمثل عن هذا السؤال لم أجد أفضل من القصة التي وردت في كتب المطالعة في دراستنا

الأولى، التي كنا نقرأها ونفهمها في قشرتها الأولى، ولكننا لا نفهمها في ما هو أعمق من تلك القشرة. والقصة تدور على الرجل الحكيم الذي حضرته الوفاة فاستدعى أبناءه وأحضر لهم حزمة من العصي فجمعها سوية، وطلب من أيّ منهم أن يكسرها وهي محزومة فعجز الجميع عن ذلك، ثم فرقها وطلب من أحدهم أن يكسرها واحدة واحدة ففعل بسهولة، فقال لهم ان العصي لا يمكن كسرها عندما تكون مجتمعة، ويسهل كسرها إذا كانت متفرقة. وهكذا أنتم يا أبنائي سيكون من المستحيل التغلب عليكم إذا كنتم متّحدين، وتسهل هزيمتكم إذا كنتم متفرقين. إذن في الاتحاد قوة.

وهنا استطرد السائل المستوضح الكريم ناقلاً الحديث من البسيط إلى شيء من التعقيد، فسأل: **لماذا يحدث ذلك؟** فقلت له وماذا تعني بهذا السؤال؟ فقال: بعبارة أخرى **لماذا تختلف الأقطار العربية عندما تتّحد عمّا كانت عليه قبل أن تتّحد؟** فقلت له ان الفرق هو: أولاً، في حالة التفرّق يسهل على الكيان الصهيوني أن يضرب قطراً عربياً واحداً اليوم، ويضرب الثاني في السنة القادمة والثالث في السنة التي تليها، ولكن الأمر يكون أكثر صعوبة عليه أن يضرب الأقطار العربية مجتمعه في دولة موحّدة، مرة واحدة. وتلك بديهية تقع في باب ما يمكن أن يدعى بالمعلومات العامة. ولكن الأمر لا يقتصر على ذلك أيها السائل المستوضح الكريم. فمن معلوماتي من درس الكيمياء القديم هناك فرق بين الخليط والمركب، فالخليط ينتج من جمع عناصر متعددة من دون أن تتفاعل، إذ

يحتفظ كل عنصر بخواصه التي كان عليها قبل الجمع. أما المركّب فهو جمع عناصر كثيرة يحصل بينها تفاعل، تتغير فيه خواص كل عنصر التي كان عليها قبل الجمع، وينتج من المجموع شيء جديد يختلف عن خواص جميع العناصر التي تكوّن منها. اذن، فالوحدة العربية سوف تجمع عناصر القوة في الأقطار العربية، ولكن هذه الأقطار ستتفاعل مع بعضها البعض، ومن التفاعل تنتج قوة جديدة ومزايا جديدة لم تكن موجودة في أيّ من الأقطار قبل أن تتحد. إذن فالاتحاد قوة من دون شك.

وهنا أريدك أيها السائل المستوضح الكريم أن تنتبه لخطأ الكلام الذي نسمعه أحياناً عن أن جمع الأصفار على بعضها لا ينتج منه غير الصفر، وهو استعمال مغالطة لهذا القانون (إن صح التعبير) في الحساب. فالأقطار العربية ليست أصفاراً، بل هي أرقام، وإن لم تكن قياساً بالدول العظمى أرقاماً كبيرة، وحاصل مجموع هذه الأرقام هو من دون شك أكبر من أي من الأرقام الداخلة في الجمع. ربما كان ذلك كلاماً مكرّراً ومألوفاً إلا أنه من دون شك كلام هام يتعلق بمصير أمة كبيرة وعظيمة.

ـ ٣ ـ

وهكذا أخذ السائل المستوضح الكريم يتوغل في الأسئلة، فقد تحرك تفكيره وتداعت لديه الأفكار فقال: ولكن **لماذا تدعو إلى الوحدة العربية أي لوحدة الدول العربية؟ هل السبب يتعلق بمبدأ**

أو يتعلق بمصلحة؟ وسؤاله بالطبع مشروع ومهم كما هو واضح. لماذا أدعو إلى الوحدة العربية؟ وقد أجبته مستطرداً ان السبب هو مبدأ ومصلحة في الوقت ذاته. المبدأ هو أن العرب تربطهم من دون أدنى شك روابط كثيرة، تجعل منهم أمة واحدة، والأمة الواحدة لا بد من أن تتحد إذا ما وجدت في حالة غير حالة الاتحاد. أما الروابط فهي معروفة عند الجميع وقد شرحها كتّابنا وأجادوا فيها، فهي اللغة والتاريخ المشترك والثقافة المشتركة والدين لحد بعيد، والمصالح المشتركة والعدو المشترك... إلخ. إنها فعلاً عوامل مشتركة تجمع الأمة وتجعلها مجتمعاً واحداً. وهنا نعود إلى ما كنا نسمعه في مجال الحديث عن العوامل المشتركة. فالعوامل المشتركة التي تجمع أمة من الأمم ربما لا تكون هي نفسها التي تجمع أمة أخرى. كما أن العوامل المشتركة التي تتوفر في أمة من الأمم ربما لا تتوفر كلها في أمة أخرى، وهكذا فلكل أمة وضعها الخاص بها. والقومية في نهاية المطاف وبمعنى من المعاني هي الخصوصية. في حالة الأمة العربية هذه هي العوامل المشتركة التي تجمعها وتخلق عندها شعوراً بالتوحيد.

أما في ما يتعلق بالمصلحة أيها السائل المستوضح الكريم فالأمر واضح أيضاً، إذ هل هناك ما هو أوضح من أن البلدان العربية في وضعها الحاضر لها مصلحة في ان تتّحد في وطن يمتد من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي، إذ تبلغ مساحته ١٣,٧ مليون كيلومتر مربع، ويبلغ عدد نفوسه حوالى ٢٢٣ مليون نسمة، ويقع في قلب

العالم وعلى الممرات الرئيسية فيه، إذ فيه مضيق جبل طارق وقناة السويس وباب المندب ومضيق هرمز، وفيه من عناصر التكامل الاقتصادي الشيء الكثير، فهناك الأرض الزراعية البالغة حوالى نصف مليار هكتار، كما في ١٩٨٩، وهناك المياه الضرورية للزراعة. ثم هناك الثروة النفطية والغازية، إذ فيه احتياطي نفطي بلغ حوالى ٦٣٢ مليار برميل في نهاية سنة ١٩٩٠، وفيه من المواد الخام اللازمة لصناعة الأسمدة الضرورية للزراعة كالفوسفات والكبريت والمياه والطاقة.

إن عناصر الإنتاج، بتعريفها التقليدي المكوّنة من الأرض ورأس المال واليد العاملة والتنظيم وكل ما هو لازم لقيام تنمية اقتصادية، متوفرة. ان توزيع عناصر الإنتاج هذه يدلل على أن الأقطار العربية متكاملة في ما بينها وتكوّن وحدة اقتصادية كبيرة عندما تتّحد، وتشكّل من دون شك قوة اقتصادية تنافس الكتل الاقتصادية الكبرى في العالم. لقد كتب الكثير عن المصالح المشتركة بين البلدان العربية من جميع الوجوه الصناعية والزراعية والتجارية والثقافية والسياحية والمواصلات والنقل والتعليمية والتقنية والبحثية. تلك هي المصلحة من قيام الوحدة.

قال السائل المستوضح الكريم: ولكن كل ذلك كلام معروف ومعاد وليس فيه من جديد. قلت: نعم هو كذلك، إلا أن كونه معروفاً ومكرراً لا يعني أنه غير صحيح ولا يعني أننا يجب ألا نهتم به، فالمهم ليس أن يكون الكلام جديداً بقدر ما يجب أن يكون

صحيحاً ومهماً. إن مزايا الوحدة العربية والأسس التي تقوم عليها قد شرحت وكتب عنها الكثير إلا أنها لم تتحقق، فلماذا؟ هذا سؤال مهم. لماذا لم تتحقق الوحدة العربية؟ هل هناك قصور فينا نحن الجمهور العربي فلا نعي ما هو في صالحنا أم أننا نعي ذلك، إلا أننا غير قادرين على التغلب على العوامل المضادة للوحدة في داخل نفوسنا؟ علينا أن نفتش عن السبب للمعالجة، إذ لا سبيل لنا، بل لا مناص لنا من تحقيق وحدتنا. وهكذا بدأ السؤال الواحد يتشعب إلى الكثير من الأسئلة وبدأ الموضوع ينتقل من السهل البسيط إلى الصعب المعقّد.

— ٤ —

قال السائل المستوضح الكريم: عندي سؤال أودّ الإجابة عنه: **هل يتطلب تحقيق الوحدة أن نقدم تضحيات معينة في سبيلها؟ إذا كان الأمر كذلك، فالوحدة اذن لها ثمن علينا ان ندفعه أليس كذلك؟** فأجبته بالايجاب. نعم هناك تضحيات يجب أن نتحملها وثمن علينا أن ندفعه. والسبب في ذلك يكمن في طبيعة الأشياء. أليست الوحدة تتضمن انتقالاً من حال إلى حال، من وضع معين إلى وضع أعلى منه في سلّم التطور الاجتماعي؟ إذن فالانتقال من حال إلى حال لا يتحقق وحده بل لا بد من بذل جهود معينة لتحقيقه، والجهود هي نوع من التضحية. ثم هل هناك شيء يمكن أن يتحقق في مجال التطور الاجتماعي من دون ثمن؟ إذا كنت

تعرف حالة من تلك الحالات فأرجو أن تدلني عليها. إنني أيها السائل المستوضح الكريم عرفت عن طريق العقل وعن طريق التجربة أنه لا يوجد شيء من دون ثمن. إن كل حالات التقدم التي حدثت في التاريخ كانت بثمن مهما تباينت أنواع ذلك الثمن. فالاستقلال كان بثمن، وانتشار الإسلام كان بثمن، والتنمية الاقتصادية لها ثمن، والتقدم العلمي له ثمن، واستتباب الأمن له ثمن، وتحقيق العدالة له ثمن، وهكذا، ولعل أكبر خطأ يقع فيه الإنسان هو عندما يتصور ان هناك شيئاً من هذا النوع من دون ثمن.

وأود أن أزيد على هذا القول فأوضح لصاحب السؤال ان دفع الثمن ليس أمراً من قبيل أن تدفع شيئاً مقابل شيء. إنه بحد ذاته ليس أمراً سلبياً دائماً، فحتى دفع الثمن بحد ذاته لا يخلو من منافع. ومنعاً للالتباس أقول إن التضحية من أجل الوحدة مهما بلغت فإنها أقل بكثير من منافع الوحدة ولا مجال للمقارنة بين الكفتين. ولكن الأمر لا يقتصر على ذلك، فدفع الثمن بحد ذاته بغض النظر عن المردود له منافع أخرى مضافة، وتلك هي المنافع في الجانب النفسي المتصل بالطبيعة البشرية. فالشيء الذي تعمل وتكدح من أجله يلتصق بنفسك ويزداد حرصك عليه بعكس الشيء الذي لا تكدح من أجله يكون ذهابه سهلاً على نفسك وحرصك عليه أقل. إن ما تحصل عليه مجّاناً لا يحتل منزلة في نفسك تقديراً وحرصاً واهتماماً مثل ما تحصل عليه بجهد وتضحية. إذن دفع الثمن بحد ذاته تجربة تتدرب فيها النفس البشرية على صفات حميدة هي الحرص والتعلق

والاهتمام والحماية، وهي صفات ضرورية للتقدم والازدهار.

ولكن هل يمكن الحديث عن التضحيات والثمن من دون أن نعرف ما تلك التضحيات وما ذلك الثمن؟ فحتى لو لم يوجه السؤال عن ذلك فإنني أتوقعه، وبالفعل انبرى ذهن السائل المستوضح الكريم ووجه لي ذلك السؤال. **ما تلك التضحيات التي نتحدث عنها؟** وقد أجبته بما يأتي:

هناك نوعان من التضحيات: **الأول**، يتعلق بالحكم، **والثاني**، يتعلق بحياة الناس. ولكن ما المقصود بذلك؟ ان الوحدة بحكم كونها انتقالاً من وضع في الحكم هو الوضع القطري إلى وضع آخر أوسع منه هو الوضع القومي تعني بالضرورة حصول تغير في الحكم. والتغير هذا يتضمن ان تتنازل الدولة القطرية عن جزء من سيادتها إلى الدولة القومية. فالوحدة بالمفهوم الاتحادي تعني وجود حكومة محلية قطرية تمارس بعض الصلاحيات ووجود حكومة قومية تمارس بعض الصلاحيات الأخرى. إذن فذلك لا يحصل إلا عندما تقبل الدولة القطرية أن تتنازل عن بعض صلاحياتها لحكومة جديدة هي الحكومة القومية: أي تتنازل عن جزء من سيادتها.

إن هذه القضية ليست نظرية كما قد يتصور بعضهم بل هي مسألة عملية. فالقول بأن تتنازل الدولة القطرية عن جزء من سيادتها يعني أموراً تتعلق بالحاكم العربي، أي بالفئة الحاكمة العربية. وهنا يختلط ما هو مبدئي بما هو عملي، وما هو عام بما هو خاص.

فالحكم في الوطن العربي مشكلة لم تتح لها الفرصة للدراسة والتمعن بسبب خصوصيتها وحساسيتها وتعلقها بالأشخاص. بعض المفكرين العرب يحاول أن يعزل هذا الموضوع عن المناقشة والدراسة مدعياً أن تحقيق الوحدة يتعلق بالعوامل الموضوعية، أي بالبنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وليس بالأشخاص. إن الأمر عندي ليس تماماً كذلك، فالعامل الشخصي مهم وموجود ومشكلة الحكم تشكل عقبة مهمة في طريق الوحدة.

أما الجانب الآخر فيتعلق بمصلحة الجمهور، والمقصود بذلك الآثار الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في الفرد والمواطن عندما تتحقق الوحدة. ان اندماج الأقطار العربية بدولة واحدة يعني بالضرورة حرية الانتقال والإقامة وممارسة المهنة وانتقال رأس المال وفتح الأسواق للتبادل التجاري وتوحيد بعض الضرائب وجزء مهم من القوانين. إن كل ذلك لا بد من أن تكون له آثار سلبية في بعض المواطنين في المرحلة الأولى من حيث المساس بمصالحهم المالية أو الاقتصادية أو الاجتماعية المباشرة. والأمثلة على ذلك موجودة. فما العمل إزاء ذلك؟ هذا سؤال لا بد من الاجابة عنه.

الجواب هو أن الوحدة في الأمد الطويل لا بد من أن تكون خيراً على الجميع، أي ان أحوال الجميع ستكون أفضل من جميع الوجوه في ظل الوحدة مقارنة بوضع ما قبل الوحدة. ذلك أمر صحيح. ولكن صاحب السؤال قد يسأل: إنني لا أسأل عن الأمد

الطويل الذي قد يكون طويلاً حقاً، بل عن الأمد القصير، أي الآن وما بعد الآن بقليل مما هو عملي منظور. وهنا لا بد من الإجابة، فأجبت بما يأتي:

نعم هذا حق، ولكن هل يعدم العقل البشري الوسيلة لتنظيم هذه الأوضاع بحيث نستطيع معالجة مثل هذه الأضرار الواقعة على المواطن؟ الجواب كلا، فالتنظيم والادارة وابتداع الاجراءات التعويضية لملاقاة ذلك أمور موجودة ومتاحة ومن الممكن اللجوء إليها. هناك أمران مهمان في هذا المجال: **الأول**، ان جزءاً من البلدان العربية ذو إمكانات مالية كبيرة، فالمال وسيلة مهمة لمعالجة هذه المشاكل. فالثروة عامل ايجابي نستطيع استخدامها كأداة لتسهيل الأمور ومعالجة المشاكل الجانبية. الأمر **الثاني**، هو أن العالم قد تكوّنت لديه خبرة واسعة في هذا المجال، فهناك تكتلات اقتصادية استطاعت عن طريق التنسيق العقلاني واستخدام العلم ومبتكرات الادارة أن تلائم بين المصالح المتناقضة في الأمد القصير لمصلحة الأمد الطويل، ولعل من أهمها السوق الأوروبية المشتركة. فإذا كان الموضوع يتعلق بالمعرفة الفنية فهي متوفرة في العالم، ولا يبقى غير الإرادة والتوجه الجاد.

وفي هذا الصدد أود الإشارة إلى ملاحظة ذات أهمية في هذا الصدد، تكوّنت لديّ من خلال التجربة العملية. ان الأقطار العربية كلها أو بعضها قد مارست محاولات التوفيق والتلاؤم وايجاد الحلول المشتركة للمشاكل، ولم تكن العقبة في هذه التجارب نقص

المعلومات الفنية حول كيف نعمل ذلك؟ بل كانت في شيء آخر يتعلق بالإرادة والتوجه.

إن صياغة آليات العمل العربي المشترك غالباً ما كانت تترك للموظفين. وكان الموظفون في الغالب يتصرفون على أساس استغلال الجهات المتفاوضة الأخرى وليس التعاون معها، فيطلبون ما هو تعجيزي ويحاولون الحصول على أكثر مما يستحقون كأطراف في التنسيق، الأمر الذي يؤدي إلى إثارة الأطراف الأخرى ويدفعها إلى اتخاذ الموقف نفسه فيصبح الاتفاق صعباً، وكثيراً ما كانت المفاوضات تخفق لهذا السبب. وواضح ان هذا الموضوع لا يتعلق بالمعرفة بقدر ما يتعلق بالموقف والإرادة. إن الإرادة إذا ما توفرت، والموقف الصحيح إذا ما تحقق فإن المعرفة الفنية بطرق التوفيق وتحقيق التلاؤم وتقليص الأضرار وتقليل الآثار السلبية القصيرة الأمد يصبح أمراً ممكناً. وبذلك تقل الكلفة أو ربما تتلاشى. إن معالجة موضوع التضحيات التي تقع على عاتق الجمهور أمر ممكن، فقد مارسه غيرنا بنجاح ولا يوجد ما يمنع أن نمارسه نحن بنجاح أيضاً.

إن هذا الجواب وإن كان سليماً وملائماً إلا أنه يبقى للموضوع جوانب أخرى لا بد من التعرض لها. فمن هم أداة هذا التنسيق الذي نتحدث عنه؟ إنهم في الغالب موظفو الدولة وجهازها الإداري، وفي بعض الأحيان يصعب التفريق بين الموظفين والسياسيين.

إن الموظفين الذين يتولون العملية الفنية لإيجاد الحلول للمشاكل الناتجة من التوحيد في مختلف نواحي الحياة العامة يكونون في وضع خاص في أثناء عملية إيجاد الحلول والتفاوض، فهم يمكن أن يفكروا في مصالحهم الخاصة المتعلقة بأشخاصهم، أي انهم معرضون لدفع ثمن وتقديم تضحية من أجل الوضع التوحيدي الجديد، الأمر الذي قد يجعلهم في وضع غير موضوعي.

— ٥ —

وقال السائل المستوضح الكريم مرة أخرى: **وماذا تلاحظ في مجال نظرة الإنسان إلى الأمر وقدرته على التفريق بين الأمد القصير والأمد الطويل، وبين المباشر الملموس وغير المباشر؟** قلت له: إن تساؤلاتك في محلها، فقد لاحظت من التجربة ان الإنسان كثيراً ما يوضع في موضع يطلب منه التفريق بين الأمد القصير والأمد الطويل، وبين ما هو مباشر وما هو غير مباشر. وأمر كهذا يتعلق بالقدرة على بعد النظر، أي امتداد النظر لما هو أبعد من المرئي الآن. في الموروث الشعبي مثل يعيب على المرء إذا كان لا يستطيع أن يرى الأمد البعيد، فيقال فلان لا يرى أبعد من أنفه، أي أنه لا يرى بعيداً. ان التغيير من وضع إلى وضع يحتاج إلى زمن من أجل أن يستقر الجديد ويأخذ شكل نظام يحل محل النظام الموجود حالياً. فوضع التجزئة هو وضع الأمد القصير، ووضع التوحيد هو وضع

الأمد البعيد، وتضحيات اليوم هي الشيء المباشر الملموس، ومنافع الوحدة هي الشيء غير المباشر. الإنسان كائن يتميز بالعقل، والعقل لا يعني القدرة على فحص الحاضر بل هو القدرة على فهم المستقبل، أي الامتداد في البصيرة إلى ما هو أبعد من الحاضر. لذلك كان الإنسان الواعي هو الذي يرى المستقبل وليس الحاضر فقط.

إن الإنسان العاقل الواعي المتطور هو الذي يعرف عن طريق العقل والبصيرة أن المجتمع مستمر في الحياة، وأن حياة المستقبل هي امتداد لحياة الحاضر، وأن الحاضر وريث الماضي. لذلك، فهو يعير المستقبل الاهتمام اللازم فيعمل من الآن من أجله، فيقدم على التضحيات ويدفع الثمن من أجل ضمان ذلك المستقبل، بعكس الإنسان الجاهل الضعيف الناقص الوعي الذي يعيش في الحاضر ولا يستطيع أن يرى المستقبل ولا يقدم بالتالي على تقديم التضحية اللازمة من أجل ضمان جعله أفضل من الحاضر.

وهناك أمر متصل بذلك هو التفريق بين المباشر وغير المباشر. ان العقل البشري المتطور يوفر للإنسان قدرة على الفهم الصحيح لحجم الأشياء وأهميتها، فما هو مهم ليس ما يستطيع الإنسان لمسه مادياً بالحواس المجردة الآن فقط، لأن الأهمية لا تكمن في ذلك بل في طبيعة الشيء نفسه.

إن المواطن المتطور الواعي يستطيع أن يرى منذ الآن المنافع الاقتصادية التي تنتج من الوحدة، وإن لم تكن ملموسة لديه بالمعنى

المادي لأنها لم تتحقق بعد، كما أنه لا يقيم الأشياء على أساس أن تتعلق به شخصياً دون غيره. ان المنافع غير المباشرة قد تكون أكبر من المنافع المباشرة.

لعل من الأمور التي تفرّق الإنسان الواعي عن الإنسان القليل الوعي، أو بعبارة أخرى الإنسان المتطور عن الإنسان المبتدىء في سلم التطور، هو أن الإنسان الواعي يستطيع أن يرى المستقبل بوضوح أكثر ويحسب له حساباً ويدخله في خططه، في حين أن الإنسان القليل الوعي ينصب اهتمامه على الحاضر، وفي الغالب لا يعير المستقبل اهتماماً كافياً، ولا يدخله في حساب خططه. والإنسان المتطور يستطيع أن يرى الأشياء غير الملموسة أو غير المادية، فما هو مهم ليس فقط ما هو ملموس كالحصاة التي يستطيع أن يراها ويضعها في يده. لذلك كان الإنسان المتطور أكثر فهماً لطبيعة الحياة وتركيب المجتمع العصري الحديث حيث تتشابك الأمور ويؤثر بعضها في بعضها الآخر وتتعقد العلاقات فيها. ان الفرد القليل التطور في الغالب يقيس الأمور بأثرها المباشر الملموس فيه شخصياً الآن، في حين أن الفرد المتطور الواعي يدرك ان الحياة العصرية أكثر تعقيداً من ذلك، فالمجتمع كل مترابط والمستقبل وليد الحاضر ومصلحته لا تكمن في الأمور المادية الملموسة المتعلقة به شخصياً الآن. فهل كان جوابي كافياً أيها السائل المستوضح الكريم؟ آمل أن يكون ذلك.

— ٦ —

ويبدو أن السائل المستوضح الكريم كان يريد ايضاحاً أكثر، بالرغم مما يدل على أنه وجد جوابي معقولاً فقال متسائلاً: **وهل لديك أمثلة على ذلك أستطيع أن أستدل بها ان الشيء النظري تدلل عليه أمثلة عملية؟** قلت نعم. انظر إلى العالم الجديد المكون من أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية. لقد هاجر الأوروبيون إلى هاتين القارتين واستوطنوا فيهما وكانت غالبية المهاجرين إلى أمريكا الشمالية من دول أوروبا الغربية التي بدأت فيها النهضة الأوروبية كالانكليز والألمان والاسكندنافيين، في حين كانت الأغلبية التي هاجرت إلى أمريكا الجنوبية من الاسبان والبرتغاليين. وقد نحتت كل من الفئتين لها كياناً في القارة التي هاجرت إليها، وبذلك خلقت الولايات في أمريكا الشمالية والجنوبية، وكانت هذه الولايات بمثابة دول مستقلة. إلا أنه يلاحظ أن الولايات في أمريكا الشمالية استطاعت ببعد نظرها ونظرتها إلى المستقبل أن تستقل عن بريطانيا وأن تتحد بنظام فدرالي مكونة الولايات المتحدة الأمريكية، واستطاعت مقاطعات كندا أن تستقل وأن تكوّن الكيان الكندي. وفي الولايات المتحدة الأمريكية، عندما اختلفت بعض الولايات الجنوبية مع الولايات الشمالية حول موضوع الرقيق الأسود وأرادت أن تنفصل، شنّ الشمال عليها حرباً ضروساً استطاع من خلالها ارجاع الوحدة وبناء الولايات المتحدة الأمريكية دولة موحّدة. ومما لا شك فيه ان وحدة تلك الولايات التي كانت قبل الاتحاد مستقلة

الواحدة عن الأخرى، حتى ان بعضها كولاية تكساس كان لها تمثيل دبلوماسي خارجي، هي العامل الحاسم في تكوين قوتها الاقتصادية والعسكرية، وبالتالي قوتها السياسية. لقد كان لبعد النظر والوعي والنظر إلى المستقبل الدور الحاسم في تفضيلها الاتحاد على التفرقة، التي لو أنها سادت لما كانت تلك البلاد على ما هي عليه الآن. وبالمقابل فإن الاسبان والبرتغاليين الذين فتحوا أمريكا الجنوبية ونقلوا نظم الاقطاع إليها، والذين كانوا أقل نضجاً ووعياً وتقدماً من شعوب أوروبا الشمالية، لم يكن لديهم ذلك النظر البعيد، فكوّنوا دولاً مستقلة وتغلبت الرغبة بالهيمنة والحكم والاستئثار بالسلطة على حكامها، ففضلوا الحكم على القوة الجماعية في المستقبل، فبقيت تلك الدول على ما هي عليه وتحولت بالتدريج إلى دول غير مستقرة تسودها الانقلابات والأنظمة العسكرية كتعبير عن الرغبات البدائية عند الحكام في مجرد الحكم والسيطرة والاهتمام بالحاضر على حساب المستقبل، فبقيت مجزّأة ولم تستطع أن تكوّن كتلة اقتصادية واحدة تتفاعل فيها عناصر الإنتاج وتتكامل لتحقيق النتيجة والتقدم الاقتصادي والاجتماعي، حتى وصلت إلى الوقت الحاضر حيث بدأت تشعر بأهمية التكتل والتكامل فأنشأت منظمة دول أمريكا اللاتينية وقامت محاولات لإنشاء الكتل الاقتصادية والأسواق المشتركة ولكن بعد التجربة المرة. إن أمريكا الشمالية نفسها، وبالرغم ممّا حققته من تقدم بسبب الوحدة التي حققتها منذ الاستقلال، أصبحت اليوم تشعر بضرورة المزيد من خطوات

التوحيد، فنجدها الآن تسعى إلى تكوين سوق مشتركة بين الولايات المتحدة نفسها وكندا والمكسيك. وهو ما تم تحقيقه مؤخراً من خلال منطقة التجارة الحرة بينها. ثم هناك المثل الأوروبي الواضح، فأوروبا التي تتكون من دول وقوميات متعددة، عانت من ويلات الحروب والتناحر حيث حاولت فرنسا بقيادة نابليون الاستيلاء على الدول الأخرى، ثم قامت الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية بسبب محاولات ألمانيا الهيمنة على الدول الأخرى. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وبسبب المعاناة والتجربة القاسية من وضع الصراع، دخل زعماء هذه القارة في التفكير بالمستقبل، فاستطاعوا بوعيهم ونضجهم وبعد نظرهم أن يتخيلوا ما يمكن أن تكون عليه أوروبا إذا ما اتحدت، ففضّلوا التقارب والتفاهم والسير في طريق التوحيد بدلاً من المجد القطري، إذا صحّ التعبير. وهكذا استطاعت تلك الدول، بفضل نزعتها العقلانية وبعد نظرها وخيالها الواسع وقدرتها على ضبط النفس والتغلب على سلبيات الماضي، أن تختط منهجاً جديداً هو منهج التوحيد والتعاون والسير في طريق الوحدة بدلاً من المنافسة والصراع والحروب. كما أنها استطاعت بفضل المنهج الجديد أن ترى المستقبل حيث نمت قوة الولايات المتحدة وقوة الاتحاد السوفياتي (السابق). وهكذا ما ان برزت هذه القوى والكتل الاقتصادية العملاقة حتى ظهرت أوروبا الغربية ككتلة اقتصادية جديدة (الجماعة الأوروبية) تستطيع أن تتنافس بجدارة مع الكتل الأخرى. ونراها أيضاً تتبع إنشاء الكتلة الاقتصادية بتقارب سياسي

فتسير في طريق التوحيد السياسي الذي تجلّى مؤخراً في اجتماع القمة في هولندا حيث اتخذ القرار في السير في طريق الوحدة السياسية وتكوين «الاتحاد الأوروبي» من خلال ما سمي «اتفاق ماستريخت». فأوروبا الغربية المكوّنة من قوميات مختلفة تماماً والتي قامت بينها أكبر الحروب العالمية وأشدها لأكثر من مرة استطاعت أن تسيطر على مخلفات الماضي وأن تتجه إلى المستقبل بفضل النضج وبعد النظر ونفاذ البصيرة وتفضيل الأمد الطويل على الأمد القصير فتختار ما هو صحيح ونافع بالرغم من كل شيء. أليست هذه أمثلة جيدة على صحة ما نقول؟ أظنني أيها السائل المستوضح الكريم قد أجبت الآن عن أسئلتك.

قال: نعم. ولكن!. قلت: ولكن ماذا؟ قال: لدي سؤال آخر. قلت: هات ما عندك. قال: **هل انك تبني حجتك بالوحدة على أساس القومية أو على أساس المصلحة؟** ومن أجل توضيح السؤال أكثر أضعه هكذا: **هل يجب تحقيق الوحدة العربية بسبب كوننا عرباً ننتمي لقومية واحدة أو أنها يجب أن تحقق لأنها مفيدة لنا نحن العرب؟** قلت له: من أجل أن أجيب عن سؤالك، اسمح لي أن أقول بعض الكلمات عن القومية. هناك تعاريف كثيرة للقومية موجودة في الكتب، ولكنني أريد أن أقول باختصار إن القومية هي الشعور المشترك، والشعور المشترك هذا لا بد من أن تكون له أسباب هي العوامل المشتركة. إلا أن هذه العوامل ليست واحدة بالنسبة إلى جميع الأمم، فهي قد تتباين من أمة إلى أخرى، إذ المهم هو وجود

الشعور المشترك. وفي حالتنا نحن العرب، الشعور المشترك تسببه عوامل كثيرة منها اللغة والتاريخ المشترك والدين المشترك (إلى حد بعيد)... إلخ، مما سبق أن ذكرناه. المهم هو وجود شعور مشترك بالانتماء الموحّد. أليس ذلك موجوداً بالفعل؟ هل يستطيع أحد أن ينكر وجود هذا الشعور المشترك؟ وهل أحتاج إلى ايراد الأمثلة الدالة عليه؟ إنه موجود والأدلة عليه كثيرة وفي جميع حقبات التاريخ. كما يلاحظ ان هذا الشعور المشترك يزداد قوة ويتسع نطاقه كلما ازداد التقدم الاجتماعي والثقافي وازداد الوعي السياسي، فهو في توسّع مستمر. إنه موجود في جميع نواحي الحياة وفي جميع الأقطار العربية، وإن تفاوت من قطر إلى آخر، إلا أنه موجود. لذلك فيكفي أنه موجود ليكفينا عناء النقاش. ان بعضنا يحب أن يبحث كل شيء وذلك أمر جيد، فالرغبة في البحث في النهاية لا يمكن إلا أن تكون عاملاً ايجابياً، إلا أن ذلك لا يمنع أن نفرق بين حالة وحالة. ان الشعور بالانتماء المشترك وبالقومية موجود، وأقوى برهان فلسفي عليه هو أنه موجود واقعياً، ويجب أن يكون ذلك كافياً لإثباته فكرياً، بالرغم من أنني لست ضد أن نبحث في ماهية القومية وعوامل تكوينها ونخوض في التفكير فيها كما اعتدنا عليه في الأدبيات القومية المعروفة.

إنني مستعد للنقاش إذا قال أحد إن هذا الشعور غير موجود، أي إذا شكك بوجوده. أما إذا أقرّ بوجوده فلا أظن أننا يجب أن نذهب بعيداً في تحليل ماهيته. إنني أعتقد جازماً أنه موجود مستنداً

إلى الملاحظة الواقعية وإلى ما يسمى بمعلومات الحصافة الاعتيادية. إذا كان الأمر كذلك، فالوحدة العربية يجب أن تقوم لأنها تعبير عن الشعور المشترك. فإذا كان هذا الشعور موجوداً، وإذا كان ذلك الشعور مقروناً بالنضج والوعي والتطور، فجدير بنا أن نعبّر عن ذلك الشعور بتحقيق الوحدة.

هذا من ناحية، أما من ناحية المصلحة فمن هو الذي يستطيع أن يقول إن تحقيق الوحدة لا يحقق المصلحة العامة لمجموع الوطن العربي في الأمد الطويل؟ وهنا أقصد بالطبع المصلحة العامة، أي مصلحة العدد الأكبر في التقدم الاقتصادي والتنمية والتطور الاجتماعي ورفاهية الأكثرية المادي والمعنوي، وعلى الأمد الطويل. وهنا أيضاً أكون مستعداً للمناقشة إذا ما قدّم لي أحد الأدلة على عكس ذلك. هل يستطيع أحد أن يقول إن الوحدة لا تحقق المصلحة العربية العامة في الأمد الطويل؟ إنني لم أسمع ولم أقرأ عن أي قول من هذا النوع، بالرغم من وجود أعداء الوحدة العربية. اذن، فالمصلحة موجودة، لذلك ولهذا السبب أيضاً علينا أن نستجيب لهذه المصلحة المشروعة للأغلبية من شعبنا في الأمد الطويل. إذن فالدعوة إلى الوحدة العربية تستند إلى الشعور القومي وإلى المصلحة في الوقت نفسه. هذا إذا جاز الفصل بين الأمرين بهذا الشكل.

وهنا أيها السائل المستوضح الكريم أودّ لفت الانتباه: إننا كثيراً ما نفصل أموراً بعضها عن البعض من أجل المناقشة، وهي ليست منفصلة، الأمر الذي قد يوحي للقارىء بأنها فعلاً منفصلة

وهي في الواقع ليست كذلك. ان الشعور بوجود مصلحة مشتركة، مادية كانت أم معنوية، يقوّي الشعور القومي، والشعور القومي نفسه يدفع إلى تلاؤم المصالح وتهذيبها. والشعور بالانتماء المشترك تمتزج به العوامل الذاتية والعوامل الموضوعية، والعوامل المادية بالعوامل المعنوية. ان معرفة المصالح المشتركة بحد ذاته يقرب الناس روحياً من بعضهم البعض، والتقارب يزيد انصهارهم واندماجهم وبذلك يقوى الشعور القومي، وهكذا. على كل حال ومن أجل المناقشة والبحث قمنا بتناول الأمرين، كلّ على انفراد: القومية والمصلحة. إن دعوة الوحدة العربية الحالية تقوم على الاثنين في الوقت نفسه.

— ٧ —

وقال السائل المستوضح الكريم مستطرداً: ولكنّ هناك أشخاصاً وقادة لا نشك في اخلاصهم ومقاصدهم النبيلة لخدمة شعوبهم لم يكونوا في هذا الاتجاه. فماذا عساك أن تقول عنهم؟ قلت: نعم هذا ممكن، ولكن دعني أتوغل في هذا الموضوع بعض الشيء. انني أتحدث عن بعد النظر والوعي والنضج السياسي، بحيث يستطيع المرء أن يرى المستقبل بوضوح فيأخذ الموقف الذي يؤدي إلى الطريق الصحيح الذي يوصل إلى مستقبل أفضل. لديّ مثال جيد طالما فكرت فيه منذ أن حدث ولا أزال أعدّه حالة تصلح لشرح هذا الموضوع. كانت الباكستان دولة واحدة بشطرين، باكستان الشرقية وباكستان الغربية، وحصل ان قامت في باكستان

الشرقية حركة انفصالية بقيادة المرحوم مجيب الرحمن وحزب عوامي، من دون أن أخوض في البدايات والتاريخ.

إن تلك الزعامة لا بد من أن كان لديها حجج ومناقشات حول لماذا تدعو إلى الانفصال. ربما ان تلك القيادة لم تكن سيئة النية عن عمد، ولم تكن تقصد إلحاق الضرر بالشعب. ربما كل ذلك كان صحيحاً، كما أنها قد بذلت الجهود وكافحت وتحملت الأذى وقدمت تضحيات. وبعبارة أخرى، كانت تلك الحركة بالقياس الاعتيادي حركة لا ينقصها الحماس والإخلاص في العمل وجميع شروط الحركة الوطنية. إلا أنها لم تستطع أن ترى بعيداً، ولم تستطع أن ترى المستقبل. ان قيادة تلك الحركة لم تكن بعيدة النظر في مشاعرها وهواجسها الداخلية وما يدور فعلاً في نفوسها وما يحركها في ذلك الاتجاه من الرغبة في الحكم بكل ما ينطوي عليه ذلك من اعتبارات ذاتية واهتمام بالحاضر على حساب المستقبل واستجابة للذات على حساب الصالح العام. فكان لها ما أرادت وانفصل ذلك الجزء من باكستان وقامت دولة بنغلاديش وحصل ما حصل لها حتى وصلت إلى ما هي عليه اليوم. والآن يحق للباحث أن يسأل: هل حقاً كان ذلك في مصلحة شعب بنغلاديش؟ هل بنغلاديش الآن في وضع أفضل مما كانت عليه قبل الانفصال؟ إنه سؤال هام لا بد من أن يسأل. ان بنغلاديش اليوم هي بجميع المقاييس من أفقر دول العالم إن لم تكن أفقرها اطلاقاً. هذا من الناحية المادية، أما من الناحية المعنوية، فهل ان بنغلاديش الآن أفضل

مما كانت عليه سابقاً؟ من يستطيع أن يجيب بنعم عن هذا السؤال؟ إنها بلد غير مستقر في الداخل إذ لم يستطع الحكم العسكري فيها أن يستقر، ولا استطاع الحكم المدني أن يستقر، ونظامها واقع بسبب الفقر تحت تأثير الغرب المستعمر، ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية. هل الفرد في هذه البلاد يتمتع الآن بحرية أوسع مما كان عليه في السابق؟ لا أظن ذلك أبداً. هل حصل تطور ايجابي في أيّ ناحية من نواحي حياته الروحية والمعنوية، سواء على الصعيد الخارجي أم الداخلي؟ لا أظن ذلك. إذن لماذا قامت تلك الحركة التي قسمت بلاداً كانت موحّدة بسكانها ومواردها وقواها المادية والمعنوية؟ إن الذي يقوم بحركة كتلك الحركة، ويخوض الحرب ويقدم التضحيات، ويسبّب كل الذي حدث لتلك البلاد، ألا يجب أن يكون من أجل تحقيق تقدم ما في ناحية من النواحي في الأقل؟ ألا يجب أن يكون لكل تلك التضحيات مردود؟ إنني لا أجد ان بنغلاديش الآن أفضل مما كانت عليه في السابق في الأقل، إن لم تكن في وضع أسوأ بسبب الانفصال نفسه.

إذن فمن هذا المثال يمكننا أن نرى أنه من الممكن أن يحصل في التاريخ عمل دوافعه الظاهرة وطنية، إلا أنه في حقيقته وأعماقه ليس كذلك. ان الغرائز والدعاية والعوامل الذاتية ونقص الوعي والتخلف الاجتماعي عوامل يمكن أن تخلق تحرّكاً يوحي بأنه في اتجاه التقدم وبأن دوافعه نبيلة مخلصة، إلا أنه يؤدي في النهاية إلى عكس ذلك لأنه كان في الأساس قائماً على قصر النظر والوقوع

تحت تأثير الغرائز والرغبة في الحكم والعوامل الذاتية. ومثل ذلك كالإنسان المسجون في زنزانة يتحرك فيها من جدار إلى آخر ذهاباً وإياباً متصوراً انه يتحرك ويتقدم إلا أنه في الحقيقة لا يستطيع أن يذهب إلى أبعد من الجدران، فهو يدور في حدود لا يلبث أن ترده إلى ما كان عليه منهك القوى مكسور المعنويات. إنه حبيس تلك الجدران وهو لا يدرك في البداية ذلك إلا بعد أن يرتطم بها ذهاباً وإياباً. إنه يتحرك ولكنه لا يدرك في البداية أنه باق في مكانه إلا بعد أن يجرب تلك الحركة فيجدها إنهاكاً واستنزافاً، وليست تقدماً إلى أمام. فهل أعجبك هذا المثال؟ فإن كان الأمر كذلك فهل تستطيع أن تستعمله للقياس على أمثلة أخرى لا تزال في بداياتها؟ في عالم اليوم وفي الوطن العربي بالذات حركات انفصالية يتصور قادتها والكثير من أتباعها أنهم في طريق الحق وفي صميم الوطنية، وان مقاصدهم نبيلة خالصة لوجه الحق. إن ما أقوله لهؤلاء هو أن يتفحصوا مشاعرهم جيداً ويختبروا دوافعهم الحقيقية، وأن يفكروا بالمستقبل قبل أن يذهبوا بعيداً في عملية استنزاف القوى وهدر الطاقات منهم ومن غيرهم، فالعاقل هو الذي يستطيع أن يرى المستقبل، والمخلص هو الذي يستطيع أن يحسب حساب مصلحة الأكثرية المادية والمعنوية الآن وفي المستقبل، ويقاوم المشاعر الذاتية ومغريات الحكم والمصالح الذاتية المزينة بغلاف المصلحة العامة عن وعي أو من دون وعي.

تحدثت أيها السائل المستوضح الكريم عن العالم الخارجي،

ولدينا مثال من الوطن العربي نفسه ألا وهو انفصال سوريا عن مصر في أثناء عهد الوحدة. كان الحديث يدور في سوريا على مساوىء النظام الجديد. فكان يقال انه فردي وغير ديمقراطي، ويحاول تعميم تجربة مصر وأوضاعها على سوريا، وان الروح السائدة في النظام روح قطرية مصرية وليست قومية عربية، وان المخابرات هي التي تتحكم في شؤون الدولة، إلى آخر مما عرفناه عن تلك المرحلة. إن الذي كان يقال لا يخلو من بعض الصحة، كما أن الجمع الذي كان يناهض النظام القائم آنذاك لم يكن يخلو من عناصر وطنية وعناصر قومية مخلصة فعلاً. ثم حدث الانفصال، فماذا كانت النتيجة وماذا حصل في ما بعد؟ ويحق لنا اليوم أن نسأل هل سوريا اليوم في وضع أفضل مما كانت عليه في أثناء عهد الوحدة؟ هل هي أقوى مما كانت عليه، وهل النظام الذي ساد بعد الانفصال أفضل من النظام الذي كان موجوداً؟ إنني لا أعتقد ذلك، فلا سوريا أقوى مما كانت عليه، ولا النظام أفضل، ولم تحقق سوريا شيئاً جديداً ما كانت لتحققه من دون الانفصال، هذا إن لم يكن العكس تماماً من ذلك.

ومصر نفسها لم يكن يستطيع حاكمها أن يجرها إلى كامب ديفيد، وأن يضعها في الفلك الأمريكي الذي أدى إلى ما أدى إليه في ما بعد لو كانت الجمهورية العربية المتحدة قد بقيت موحّدة. ربما يقول من يقول: إن ذلك ليس أكيداً، فهو مجرد فرضية، وقد يكون ذلك صحيحاً، ولكننا في الوقت نفسه عندما نعتمد على المنطق

البسيط والحصافة الاعتيادية يمكننا أن نقول: إن الذي حصل في مصر كان أصعب من أن يحصل في ظل الوحدة مما حصل في ظل الانفصال لأسباب واضحة تتعلق بوضع سوريا واتجاهات الرأي العام فيها.

إنني أيها السائل المستوضح الكريم، بالرغم من هذا التحفظ، أستطيع أن أقول إن وضع سوريا ومصر اليوم ليس أفضل اطلاقاً مما كانا عليه أيام الوحدة. لا بل هما في وضع أسوأ. إن وضع الوحدة هو وضع القوة، ووضع الانفصال هو وضع الضعف، والضعف يجر إلى كل المساوىء القومية. إذن هل كان من الحكمة وبعد النظر والوعي والنضج أن يحصل الانفصال؟ الجواب بنظري: كلا.

— ٨ —

قال السائل المستوضح الكريم: كل ذلك حق لا أستطيع أن أقول عنه شيئاً. ولكن قل لي: **هل تضع الوحدة هدفاً قومياً قبل جميع الأهداف الأخرى؟ هل الوحدة قبل كل شيء آخر؟ ألا تؤمن أن الوحدة يجب أن تكون لها شروط؟** قلت: هذا حوار قديم سبق أن دخلت فيه، وكان لي فيه رأي، وكنت مستعداً لأن أغيره بمرور الزمن لو أنني وجدت الأدلة المقنعة على ضرورة تغييره، إلا أنني لم أجد تلك الأدلة حتى الآن، لذلك فإنني لا أزال أرى أنه بالرغم من وجود أهداف قومية أخرى إلا أنّ لهدف الوحدة خصوصيته ووضعاً خاصاً، فهي تأتي أولاً وبعدها تأتي جميع الأمور الأخرى.

وواضح ان هذا السؤال لا يأتي من فراغ بل وراءه وقائع. فقد سبق أن سنحت فرص لتحقيق وحدة بين قطرين أو أكثر، واعترض ذلك موضوع شكل النظام، هل يكون ديمقراطياً؟ هل يكون ملكياً أو يكون جمهورياً؟ سبق أن كنا نقول بصدد مشروع وحدة بين قطرين أحدهما ملكي والآخر جمهوري: إننا مع الوحدة بشرط أن يكون النظام جمهورياً، وهكذا مما هو معروف. إنني أيها السائل المستوضح الكريم أرى أن الوحدة كهدف هي أكبر وأهم من موضوع نظام الحكم، ملكياً كان أم جمهورياً، وأن الوحدة يجب ألاّ توضع عليها أية شروط إطلاقاً، إن كانت فعلاً الفرصة متاحة لتحقيقها أو تحقيق خطوة على طريقها. والسبب بسيط، فالوحدة باقية والنظام متغير نستطيع أن نبدله أو نعدله متى أردنا. إن هذا الجواب يبدو بسيطاً لا يروق للذين يحبون التعقيد اللغوي والمناقشات النظرية. إننا عندما نتّحد نزيل وضعاً كله مساوىء، ونخلق وضعاً جديداً يفتح الطريق لكل الحسنات المقرونة بالتقدم والقوة وحفظ الكرامة والدفاع عن الاستقلال وسلامة الوطن. أما قضية شكل نظام الحكم فهي مسألة ثانوية وفرعية إذا ما قورنت بقضية توحيد الوطن والأمة، فشكل الحكم رهن إرادتنا، وبإمكاننا تغييره متى أردنا، وإن لم نغيره اليوم نغيره غداً، ولا سبيل إلى المقارنة بين الأمرين، الوحدة هي الأصل ونظام الحكم هو الفرع، والفرع لا يمكن أن يوضع قبل الأصل.

إنني لا أرى حكمة في وضع شروط على قيام الوحدة مهما

كانت تلك الشروط. ووضع الشروط بحد ذاته يدل على أننا لم ندرك بعد أهمية الوحدة وخطورة الدور الذي تؤديه في رسم مستقبلنا والحفاظ على وجودنا كأمة حية. إنه من قبيل الاهتمام بالفرع على حساب الأصل.

وهنا تململ السائل المستوضح الكريم قليلاً في مكانه، وبدأ يتساءل مستوضحاً: **ولكن كيف نستطيع أن نكون دولة واحدة من كيانات بعضها جمهوري وبعضها ملكي مثلاً؟** الجواب عن ذلك يبدأ بالسؤال الآتي من قِبَلي، فأقول قبل أن أجيب عن سؤالك هذا أريد أن أسألك أنت: **هل ان الإرادة الحقيقية للتوحيد متوفرة، عند الأطراف المعنية؟** إذا كانت الإرادة الحقيقية متوفرة فإن العقل البشري لن يعدم أبداً ايجاد الصيغة التي تلائم بين الملكية والجمهورية. وهنا عليك أيها السائل المستوضح الكريم أن تعلم أن المقصود هو إبداع صيغ جديدة غير معروفة في العالم اليوم، إذ ليس من المحتم أن تقلد نظاماً موجوداً الآن، فالأنظمة الموجودة قد لا تسعفنا، لذلك علينا أن نجد صيغاً جديدة. أَلَم ينحت الأمريكان نظاماً جديداً عندما ابتدعوا النظام الرئاسي الموجود عندهم الآن لأنهم لم يريدوا أن يقلدوا النظام الوزاري الشائع في العالم آنذاك؟ إن صيغ أنظمة الحكم لا حصر لها في مجال الإبداع، وهي ليست مقصورة على ما هو معروف الآن. المهم هو توفر الإرادة الحقيقية للتوحيد، فإذا كان ذلك متوفراً يهون كل شيء آخر، بما في ذلك ابتداع نظام حكم جديد ملائم.

إنني أيها السائل المستوضح الكريم أقول ذلك، ولا أعني أنني أقول بالاكتفاء بالوحدة، وان الوحدة بحد ذاتها هي الهدف الوحيد الذي يجب أن نسعى إليه، فأنا أؤمن بأمور أخرى تتعلق بشكل نظام الحكم؛ فأنا أؤمن مثلاً بالحرية والديمقراطية وأؤمن بالتنمية والعدالة الاجتماعية، إلا أن جميع هذه الأهداف أمور تتعلق بنظام الحكم، وهي لا ترقى إلى مستوى الوحدة كهدف قومي. فالوحدة تتعلق بوجودنا. وما يتعلق بالوجود لا يمكن أن يتساوى بالأمور الأخرى التي لا تتعلق بالوجود، بل بتحسين شروط الحياة وظروف المعيشة، وذلك أمر واضح، كما أظن.

سؤال استيضاحي آخر قفز إلى ذهن السائل المستوضح الكريم فطرحه عليَّ قائلاً: **ماذا يعني ذلك عملياً؟ هل يعني أن للوحدة أسبقية في مجال الزمن، أي وقت تحقيقها؟** الجواب نعم، بمعنى من المعاني، وهو أننا في الأحوال الاعتيادية يجب أن يتجه نضالنا وجهدنا إلى توحيد الوطن العربي. إلا أنني استدركت منعاً للالتباس، فقلت: إلاّ أن ذلك لا يعني أننا في هذا القطر أو ذاك عندما تسنح فرصة لتحقيق خطوات في مجال الأهداف الأخرى لا نقوم بذلك بل ننتظر حتى قيام الوحدة. إننا في هذا القطر أو ذاك عندما تسنح الفرصة لتحقيق أية خطوة أو أي قدر في مجال التقدم، سواء أكان في مجال نظام الحكم السياسي أم الاقتصادي أم الاجتماعي، نقوم بذلك وبكل حماس، أي أننا لا نؤجل العمل من أجل التقدم لما بعد قيام الوحدة، إلا أننا في الوقت نفسه يبقى هدفنا الأساسي هو

الوحدة. وحتى خطوات التقدم في مجال القطر يجب أن تكون مصممة (عندما يكون ذلك ممكناً عملياً) على أساس اعتبار الوحدة. وبعبارة أخرى، أستطيع أن أقول إنني كقومي أؤمن بالوحدة العربية أولاً، وإنني في الوقت نفسه ديمقراطي أؤمن بالحرية وأؤمن بالتنمية وبالعدالة الاجتماعية. إن دولة الوحدة التي أسعى إلى بنائها هي دولة ديمقراطية متقدمة يسودها الرفاه والعدالة والنماء الاقتصادي. هذا ببساطة حدود الموضوع. ولندع جانباً المناقشات اللفظية التي تدور في علاقات الألفاظ وتتعمد أحياناً التعقيد والغموض مما هو ضار في النهاية، فنحن بحاجة إلى الوضوح والبساطة في شرح المفاهيم.

إن الأقطار العربية، أيها السائل المستوضح الكريم، من الأفضل أن تكون أقرب ما تكون إلى تحقيق الأهداف الأخرى؛ أي أنها وإلى أن تتحقق الوحدة يجب أن تحقق تقدماً اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، فذلك أفضل من أن تبقى في وضع الركود. لذلك يناضل الوحدويون وغيرهم في سبيل تحقيق تقدم في النظام الاقتصادي والاجتماعي بقدر المستطاع. ذلك أمر مفهوم لا جدال فيه، إلا أن هذا الأمر فيه نقطة مهمة هي **العلاقة بين موضوع النضال الوحدوي والديمقراطية.** قال السائل المستوضح الكريم: نعم، **ما هذه العلاقة؟**

وقبل أن أجيب عن هذا السؤال أود أن أورد الملاحظة الآتية: إنني أرى أن الوحدة العربية هي في مصلحة الجماهير العربية، وهي مطلبها، والجماهير العربية بتفكيرها البسيط وميولها الطبيعية مع

الوحدة، ويعني ذلك ان الوحدة مطلب شعبي وهدف الجماهير. ومن هذا المبدأ أتوسع في صياغة الجواب عن السؤال. إذا كان الأمر كذلك، فذلك يعني أن الديمقراطية بمقدار ما تفسح المجال أمام الجماهير للتعبير الحر عن آرائها تقوي مطلب الوحدة وتدفع في اتجاهه. لقد ثبت ذلك عملياً بعد أن كان مجرد تحليل نظري. لقد اتضحت بمرور الوقت مساوىء التجزئة، وبان إخفاقها في تحقيق أي شيء مهم على طريق الأهداف العامة، وبدأت الجماهير تحس بذلك وتلمسه. فعندما تكون الجماهير مقيدة من قبل النظام القطري لا تستطيع التعبير عن نفسها يصبح النظام القطري هو المعبّر عن موقف القطر زوراً، وعندها يستطيع أن يأخذ المواقف التي تمليها عليه مصالحه كنظام. أما عندما يكون المجال مفتوحاً أمام الجماهير للتعبير عن إرادتها والجماهير ليست لها مصلحة شخصية في وضع التجزئة، بل على العكس تماماً، نجد أن الجماهير تأخذ الموقف القومي. وقد اتضح ذلك مؤخراً وبشكل واضح. إذن هناك علاقة خاصة بين هدف الوحدة ومقدار ما تتمتع به الجماهير من حرية التعبير عن نفسها من خلال النظام السياسي القائم في هذا القطر أو ذاك. الديمقراطية عامل مساعد لنضال الوحدة.

— ٩ —

قال السائل المستوضح الكريم: والآن لدي سؤال آخر لا بد من أن أسأله. قلت له: اسأل ما تريد. قال: **مَنْ هم الذين مع**

الوحدة، ومَنْ هم ضدها؟ قلت له: إن هذا السؤال كثيراً ما أجيب عنه في الأدبيات القومية. قال: ومع ذلك أريد أن أسمع الجواب ثانية لمزيد من الوضوح والتأكد. قلت له: الوحدة العربية تتيح لجميع أبناء الأمة أن يتفاعلوا من خلال حرية السفر والإقامة والعمل والدراسة والاستثمار وممارسة المهنة. ومن الطبيعي أن تكون الفرص أكبر عندما يكون المجال أوسع؛ أي عندما يكون الوطن كبيراً واسعاً مترامي الأطراف، فيه التنوع في المناخ والتعدد في الموارد، والتكامل في فروع الاقتصاد، مما لو كان صغيراً، ضيّق الفرص في كل شيء. والوحدة العربية هي العامل المهم في التنمية من خلال اتساع السوق وتكامل عوامل الإنتاج، والمصدر للقوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية الضرورية للاستقرار والأمن الداخلي والقومي، فيتحقق الهدوء والسلام والاستمرارية حيث تزدهر الحياة الاقتصادية والفنية والثقافية والعلمية، فيعم الرخاء وينعم الشعب بثمار التقدم والسلام. إن كل هذه المنافع وما يتفرع عنها ويتبعها من المنافع هي ثمار الوحدة التي تعم الجميع ويتمتع بها أفراد الشعب بمختلف طبقاته وفئاته، لذلك وعلى وجه الأكيد تكون الوحدة في مصلحة جماهير الشعب، الأمر الذي يحرّك مشاعرها ويستدر تأييدها. وهذا ما لمسناه قد حدث في الماضي ويحدث الآن. الجماهير الواسعة من الشعب مع الوحدة وفي اتجاهها، لأنها في مصلحتهم وتؤدي إلى خدمة أهدافهم المشروعة في الحياة. لا توجد فئة لا تستفيد من الوحدة في نهاية المطاف، وعلى الأمد الطويل، بل على العكس تماماً.

إنني أقول ذلك، وأعرف أن تحليلات كثيرة قد وردت في ما كتب في هذا الموضوع تخوض في الطبقات وتفكيرها وما يحرك مواقفها، وكل ذلك معروف لا يغير من الأمر شيئاً. فالأمر لا يحتاج إلى تعقيد بل يمكن أخذه على أساس المنطق البسيط.

إن وحدة البلدان العربية هي في مصلحة جميع فئات الشعب وطبقاته، بغض النظر عن الدرجة، والتوقيت، إذ إن الاختلاف في درجة الاستفادة وتوقيتها أمر قابل، لأن يحصل في كل شيء تقريباً. المهم هو أن الجميع، بدرجة أو بأخرى، وعلى الأمد الطويل يحصل على منافع مادية ومعنوية من الوحدة.

بقي أن أجيب عن الشق الثاني من السؤال. **من هم أعداء الوحدة، أو من هم العقبة في طريقها؟** الحكم هو العقدة المهمة في الحياة السياسية العربية اليوم، كما كان في الماضي. الفئات الحاكمة في الدولة القطرية هي العقبة في طريق الوحدة، لأن الحكم في الوطن العربي غالباً ما يتحول إلى ملك شخصي للحاكم. ولذلك نجد هذه الفئة تقيم الأحلاف في ما بينها، وتقاوم ظهور أية قيادة في الأقطار العربية الأخرى تدعو إلى الوحدة وتعمل على تحقيقها.

لذلك نجدها قاومت ظهور قيادة الرئيس الراحل عبد الناصر وتقاوم ظهور أية زعامة قومية جديدة في الوطن العربي الآن.

أما الحديث عن الفئة الرأسمالية المحلية كعدو للوحدة فهو أمر قابل للمناقشة. ان بعض الأفراد الرأسماليين يمكن أن يقفوا ضد

الوحدة في وقت من الأوقات عندما تكون مصالحهم في الأمد القصير مع وضع التجزئة. إلا أنني أرى أنه في الأمد الطويل، وعلى أساس نظرة أوسع، فإن الفئة الرأسمالية نفسها يمكن أن تكون الوحدة في مصلحتها، لأنها توسع أمامها الأسواق، وتسهل لها الحصول على عوامل الإنتاج واليد العاملة المدرّبة والمواد الخام، أكثر مما يمكن أن يوجد في ظل التجزئة.

الحكم هو العقدة وهو مصدر العداء للوحدة. والفئة الحاكمة هي عدو الوحدة، لأنها الفئة التي تتضرر من زوال وضع التجزئة.

— ١٠ —

ان الذي يوجّه بالسؤال الآن ليس هو السائل المستوضح الكريم الذي أجبت عن أسئلته في ما مضى من السطور، بل سائل آخر كان موجوداً في تلك اللحظة. إنه زميل الأمس وصديق شخصي كان دوماً في الصف القومي وداعية من دعاة التوحيد العربي، وكان له ولا يزال في نفسي الود والتقدير. إنني لا أشك في صدق مشاعره ومواقفه السابقة.

إذن لماذا يتساءل هذا الصديق القديم مشكّكاً في موضوع الوحدة؟ ولماذا يبرز سؤاله الآن بعد ما يسمى بحرب الخليج الثانية؟ الجواب هو أن الايمان بالمبادىء قبل أن تتحقق شيء، ولكنه شيء آخر عندما تدخل تلك المبادىء حيز التنفيذ، وما يتطلبه التنفيذ من

ثمن وما يتخلله من أزمة. إننا عادة عندما نعتنق المبادىء نتصور أن تحقيقها أمر بسيط سهل لا يتطلب دفع الثمن وتقديم التضحية، ونتخيل ان ذلك التحقيق يأتي سلسلاً خالياً من الأزمات، وذلك هو التبسيط في فهم المبادىء عند من لم تعركه التجارب.

ثم قلت له: اذن، أظن أنك تشكك بجواز استخدام القوة كوسيلة لتحقيق الوحدة. أليس كذلك؟ فسكت الصديق القومي القديم لأنه لم يستطع أن يقول نعم ولم يستطع أن يقول لا. لكنني فهمت أنه يقول نعم، إن استخدام القوة لا يجوز. لذلك بقي عليّ أن أجيب عن السؤال ولو كان خفياً لم يعلن عنه، فقلت: أيها الصديق القومي القديم، الوحدة العربية هدف قومي كبير وهي القضية المهمة للأمة العربية، وتحقيقها حدث جلل من شأنه أن يغيّر خارطة المنطقة ويدخل في الساحة الدولية دولة قوية جديدة يمكن أن تؤدي دوراً مهماً في وضع المنطقة وفي العلاقات الدولية عموماً، وهي تسيطر على مورد مهم هو النفط. ففيها الجزء الأكبر من الاحتياطي النفطي في العالم. ان عملاً كهذا يقف في وجهه أعداء وتجابهه عقبات، هي الفئات الحاكمة في الوطن العربي والدول الاستعمارية الكبرى. ان هدفاً كهذا لا يمكن أن يتحقق بسهولة وبأسلوب بسيط، بل لا بد من النضال المستمر وبذل الجهود وقبول التضحيات. لذلك لا مناص من التكيف مع الظروف واختيار الأساليب بما يناسب تلك الظروف. فما يصلح لهذا الظرف لا يصلح لظرف آخر، وما يتلاءم من أساليب في هذه الحالة لا يتلاءم

في حالة أخرى، وهكذا. ان التعقيد وصعوبة الظروف توجب تنوع الأساليب وتعدد الوسائل.

لذلك علينا ألاّ نستبعد وسيلة أو نخرج من الحساب أسلوباً، فكل شيء وما يناسبه. والقوة هي احدى هذه الوسائل، لذلك لا يمكن استبعادها.

ولكن أشعر ان هذا الجواب ليس كافياً، فلا بد من تطويره بالمزيد من المناقشة. أيها الصديق القومي القديم، إذا كانت القوة وسيلة لتحقيق المبادىء مستبعدة بنظرك، فذلك يعني أن الثورة مستبعدة كوسيلة من وسائل النضال القومي والوطني. وإذا كان الأمر كذلك، ألا يعني أننا حكمنا على ثوراتنا الوطنية بالبطلان؟ إذا كان استخدام القوة غير جائز في النضال، إذن كان علينا أن نقف ضد الثورات الوطنية التي تحققت في تاريخ الوطن العربي القديم والحديث، من ثورة الجزائر، إلى ثورات العراق، إلى ثورة ٢٣ تموز/ يوليو في مصر، إلى الثورات الفلسطينية والثورات الأخرى التي حققت الاستقلال للأقطار العربية.

وهنا يأتي موضوع الشرعية في المناقشة، ذلك الموضوع الذي تحدث عنه الإعلام الغربي كثيراً، وقلّده مع الأسف بعضهم في البلدان العربية. فما المقصود بالشرعية؟

وهنا اسمح لي أيها الصديق القومي القديم أن أستعرض معك قليلاً من تاريخ الفكر السياسي. ماذا يقول الفكر السياسي في

موضوع الشرعية؟ مهما تعددت النظريات وتباينت، من أفلاطون إلى العصر الحديث، هناك ثلاثة مصادر للشرعية: **الأول**، هو الحق الإلهي، أي التفويض من الله وتمثيل الإرادة الإلهية، وهي نظرية استند إليها ملوك القرون الوسطى، كما أنها أساس الخلافة الإسلامية. فالحاكم هو ظل الله على الأرض، ويستمد شرعيته من التفويض الإلهي. المصدر **الثاني** للشرعية، هو الإرادة العامة المتمثلة بالثورة. وأهم من قال بذلك هم أصحاب نظرية العقد الاجتماعي بأشكاله المتعددة.

وخلاصة هذا الرأي هو أن الإنسان ولد ومعه حقوق طبيعية، هي حق الحياة وحق الحرية وحق الملكية، وهي حقوق يملكها الإنسان قبل نشوء المجتمع وقيام الدولة. وعندما وجد الإنسان تلك الحقوق قد أصبحت مهددة بالاعتداء من قبل الآخرين، أنشأ الدولة للمحافظة على تلك الحقوق. وإذا ما أصبحت تلك الحقوق مهددة من قبل الحاكم يحق للأفراد الثورة وتغيير ذلك الحاكم والمجيء بحاكم جديد أصلح منه. كان ذلك هو الأساس الذي قامت عليه الثورة المجيدة في بريطانيا في سنة ١٦٨٨، والثورة الفرنسية، والثورة الأمريكية التي حققت الاستقلال وأوجدت دولة الولايات المتحدة. إذن فالثورة كأسلوب هي مصدر للشرعية، ويجوز استخدامها وسيلة للمحافظة على الحقوق الطبيعية للأفراد الذين أنشأوا الدولة في الأصل من أجل حمايتها. وبتطور المجتمع نشأ المصدر **الثالث** للشرعية وهو الانتخاب الحر المباشر.

إذن الثورة هي أحد مصادر الشرعية وأسلوب يمكن اللجوء إليه عندما تصبح المصلحة العامة مهددة بالخطر. لذلك لم يشكك أحد في الثورات التي قامت في الوطن العربي التي ذكرنا بعضها في ما فات. من كل ذلك نستطيع أن نستنتج ان استخدام القوة ليس أمراً خارجاً عن الشرعية لتحقيق هدف قومي كهدف الوحدة، واستخدام القوة يبقى أحد الأساليب الممكنة الاستخدام في عملية النضال في الوطن والقومي.

— ١١ —

وهنا أيها الصديق القومي القديم لا بد من ايراد بعض التوضيح منعاً لسوء الفهم والالتباس الذي كثيراً ما يحدث. إنني عندما أقول إن القوة يمكن استخدامها، لا أعني استخدامها في كل الحالات وفي كل مجال، بل أقصد أن الثورة وما يتبعها من استخدام القوة يمكن أن تستخدم في بعض الحالات، وليس في جميعها، والانتخاب الحر المباشر هو أحد الأساليب وليس الأسلوب الوحيد. إنني ديمقراطي مؤمن بحرية الرأي وبالانتخاب الحر المباشر وكل ما يتبع ذلك مما يقع في عداد الديمقراطية السياسية الحديثة، إلا أنني أرى أيضاً ان الثورة كعملية تغيير جذري للمجتمع يمكن أن تستخدم أساليب متعددة ومنها القوة في بعض الحالات لتحقيق الأهداف القومية.

أما موضوع متى، وفي أية حالة تستخدم القوة، ومتى وفي أية

حالة يستخدم الانتخاب والاختيار الحر، فذلك ما لا يمكن التعبير عنه بمعادلة بل هو حكم يقع في عداد المهارة القيادية. انه أمر انتقالي تقرره ظروف كل حالة.

إنني أيها الصديق القومي القديم أعتقد أن الذي يريد أن يعرف مساوىء الوضع العربي الراهن فليذهب إلى منطقة الخليج، وأن الذي يريد أن يدرس موضوع التناقض بين الصالح العام والصالح الخاص يجد في هذه المنطقة الحقل الملائم للدراسة. فالوضع في هذه الأقطار هو الفجيعة القومية بعينها، حيث يقف العقل عاجزاً عن فهم ما هو موجود، ويعجز الخيال عن أن يمتد في تصور بشاعة وفظاعة ما هو موجود. فللبدء في فهم هذه الفاجعة يكفي أن نعرف ان الفارق في توزيع الثروة بين السعودية والكويت وقطر والبحرين والإمارات من جهة، والأقطار العربية الفقيرة من جهة أخرى، كبير، وكبير جداً، إذ يبلغ نصيب الفرد من الناتج القومي المحلي بالدولار في السودان في سنة ١٩٩٠ ٢,٥ بالمئة من نصيب الفرد من الناتج القومي المحلي في قطر، ويبلغ نصيب الفرد في اليمن سنة ١٩٩٠ ٣,٤ بالمئة من نصيب الفرد في قطر، أما نصيب الفرد في مصر فيبلغ ٣,٨ بالمئة من نصيب الفرد في قطر في ١٩٩٠[١].

إن الملكية الشخصية للأفراد الحاكمين أمر يشبه الأساطير

---

(١) احتسبت من: برنامج الأمم المتحدة الانمائي، **تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٣** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٣)، جدول رقم ٢، ص ١٣٨.

حيث تتكدس هذه الثروة في المصارف الغربية التي تستخدمها لشتى الأغراض المالية والاقتصادية. ان الطريقة التي وصل فيها هؤلاء الحكّام إلى الحكم معروفة في التاريخ الحديث لهذه الأقطار.

إن هذه الصورة القاتمة يقابلها فقر وحاجة ماسّة في أقطار عربية أخرى، فالشعب الفلسطيني وحركة المقاومة الفلسطينية يعيشان في فاقة شديدة، وكذلك الأردن والسودان وموريتانيا واليمن. إن الذي يطّلع على تصرّف هؤلاء الحكام إزاء العمل العربي المشترك يعرف بجلاء أنهم قاوموا بنشاط المؤسسات العربية بحجب المساعدة المالية عنها وعدم دفع الأنصبة التي يجب أن يدفعوها إلى هذه المؤسسات، الأمر الذي أسهم إلى حد بعيد في شلّ عمل الجامعة العربية ومؤسساتها. في وضع أقطار هذه المنطقة تفاصيل فظيعة، والمطّلع على هذه التفاصيل لا بد من أن يشعر بالفاجعة عندما يقارنها بالمعقول من التصرف، وبالحد الأدنى من الوطنية والنزاهة والشعور القومي والإخلاص لمبادىء الشرف والعدالة. لذلك ليس من الغريب أن نجد هذه الفئة الحاكمة عدوة لدودة للوحدة العربية ومستعدة أن تعمل أي شيء لمنع تحقيقها.

ـ ١٢ ـ

لقد كانت أجوبتي السابقة مادة للتفكير عند السائل المستوضح الكريم، فتحرك تفكيره وتشعّب به الحديث، والحديث ذو شجون، كما يقال؛ فقال موجّهاً لي سؤالاً جديداً: قل لي: **هل**

الوحدة العربية عقيدة. فإن كانت كذلك، فما علاقتها بالعقائد الأخرى؟ وهنا أوضحت له انني إذا أراد الجواب عن سؤاله فيجب أن أقدم بعض الملاحظات مقدمة للموضوع، فرحّب بذلك.

قلت إنني لا أريد الخوض في التعريف الفني لكلمة عقيدة، ولكنني أريد أن أقول: إذا كان المقصود بالعقيدة، مذهباً فلسفياً كالمذاهب الفلسفية التي نعرفها، والتي ندرسها في كتب الفكر السياسي كالماركسية والوجودية والمذهب الديني، فالوحدة العربية ليست كذلك.

الوحدة العربية ببساطة هي إرجاع أمّة إلى وضعها الطبيعي، أي توحيد وطنها في ظل دولة واحدة، بدلاً من وضع التجزئة الحالي. وقد سبق لي أن أوضحت أن الوحدة العربية هي التنفيذ العملي القومي، أي الشعور بالانتماء إلى أمة واحدة، وأن هذا الأمر - أي الوحدة العربية - يستند إلى مبدأ، وإلى مصلحة مشروعة. إذن فالوحدة العربية والقومية العربية أمر في جوهره واحد. فالقومي لا يمكن إلا أن يكون وحدوياً، والذي يؤمن ويناضل من أجل الوحدة العربية لا يمكن إلا أن يكون قومياً، سواء قال ذلك أم لم يقل، لأن القومية العربية ليست إلا شعوراً بالانتماء وشعوراً بالمصير المشترك. لذلك فالوحدة العربية أو القومية العربية ليست مذهباً فلسفياً، وليست مدرسة فكرية. إلا أن ذلك لا يعني أن القوميين والوحدويين ليس لهم ان يصوغوا نظرية تحدد شكل المجتمع الجديد من حيث نظمه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية. وهذا هو معنى

القول: إن القومية العربية هي نقطة البداية، وهي روح النظرية وأساسها، ولكنها ليست هي النظرية.

قال السائل المستوضح الكريم: وهل لك أن تتحدث أكثر عن هذا الموضوع؟ قلت: لا بأس. القومية العربية كشعور بالانتماء وبالمصير المشترك قد كوّنت، بمرور الوقت، اتجاهاً فكرياً وتياراً سياسياً، وهذا الاتجاه الفكري والتيار السياسي قد تنافس مع التيارات الموجودة، كما أنه حفز ظهور تيارات فكرية منافسة جديدة. وهكذا تكوّنت صورة الوضع في الوطن العربي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

وبكلمات موجزة، وعبارات بسيطة، أستطيع أن أقول إن القومية العربية قد رسمت صورة للمجتمع الجديد الذي تناضل من أجل تحقيقه، وهو مجتمع موحّد تتحقق فيه وحدة الأقطار العربية في دولة مستقلة محبة للسلام، متعاونة في علاقاتها الدولية، إلا أنها ضد الاستعمار ومع حرية الشعوب وحركات التحرر، ونظامها الداخلي ديمقراطي، واقتصادها متطور، تسوده التنمية والعدالة الاجتماعية، وتؤدي الدولة فيه دوراً مهماً في تحقيق الرفاهية والعدالة ومنع الاستغلال. إن هذه الصورة للمجتمع القومي الجديد قد تبلورت واكتسبت أفكاراً جديدة من خلال التجربة العملية، حيث استطاع التيار القومي الوصول إلى الحكم في بعض الأقطار العربية.

والمهم في ذلك، ليس الخوض في تفاصيل هذا النظام

ومقارنته بنظام آخر. الملاحظ أيها السائل المستوضح الكريم ان هذا الاتجاه قد قاومه الاتجاه الشيوعي الماركسي، حيث قام صراع كان دموياً في بعض الأحيان. ولكن الملاحظ هو أن الاتجاه الماركسي الشيوعي قد أخفق في النهاية، حيث تطور جزء منه متحولاً إلى الاتجاه القومي وإن كان بتأكيد كبير على مسألة النظام الاقتصادي وقضية العدالة الاجتماعية، فنشأ ما يسمى بالماركسية العربية التي يمثلها الآن عدد غير قليل من المثقفين والكتّاب. وبعبارة أخرى، نلاحظ أن الاتجاه الماركسي قد تطور في الاتجاه القومي مخلّفاً البقايا من الشيوعيين المتعصبين المدافعين عن القديم، إلى أن حدث الانهيار الشيوعي الكبير في الاتحاد السوفياتي، الذي أضعفهم كثيراً، من دون شك.

وفي جانب آخر من الحوار الفكري والصراع المذهبي، هناك الاتجاه الديني الذي كان في بدايته على طرفي نقيض من القومية العربية، ومن أشد المناوئين لها مع الأسف. ان خلق التناقض بين القومية العربية والدين مسألة تستدعي الانتباه، فالتناقض مصطنع، وكان يجب ألاّ يحصل اطلاقاً، وتقع مسؤوليته إلى حد كبير على ضيق الأفق وبدائية النضج السياسي عند الحركة الدينية، وما قام به العنصر الأجنبي المعادي للعروبة من عمل تخريبي مقصود في هذا المجال.

وهنا أيضاً استطاعت القومية العربية أن تحقق نجاحاً آخر، فقد كان موقفها من الدين ايجابياً وصياغتها للعلاقة بين الدين والقومية

العربية صياغة متزنة وعقلانية. والمهم في كل ذلك انها لم تنفعل إزاء العداء والمقاومة التي لقيتها من الاتجاه الديني، والتي تمثلت بدعوى التكفير. ومما يبعث على الارتياح والتفاؤل هو أن الحركة الدينية نفسها قد بدأت عملية التكيّف والتلاؤم والنظرة الايجابية إلى القومية. وقد تمثل ذلك في اتجاهات مهمة في الحركة الإسلامية، فقد تخلصت بعض فروعها من ذلك التناقض المصطنع فأخذت تؤيد الوحدة العربية وتقترب من الاتجاه القومي. ان الاختلاف بين الاتجاه القومي والاتجاه الديني كان يجب ألاّ يحدث من الأساس، فانتصار القومية العربية وتحقيق الوحدة لا يمكن إلا أن يكون تعزيزاً للدين الإسلامي وللقيم الدينية عموماً، فالقومية العربية مع الإيمان وضد الكفر، ومع القيم الروحية. إن المجتمع القومي الذي تناضل القومية العربية لبنائه مجتمع مدني متطور ومنفتح على التطور العالمي ومتصل بروح العصر، يسوده القانون الحديث والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والحرية الشخصية، وتتحقق فيه المساواة والعدل بين جميع المواطنين، ولا تناقض اطلاقاً مع روح الدين بل على العكس، فهو التربة الملائمة لنمو القيم الروحية وازدهارها وتجديد الإسلام.

— ١٣ —

وقد ارتاح السائل المستوضح الكريم لتلك الملاحظات، وبدا عليه الرضا الذي هو مؤشر الاقتناع. ولكنه كمن يريد أن يطمئن قلبه، فقد تحركت في نفسه أمور أخرى، فوجّه لي السؤال

الاستطرادي الآتي: **ما معنى الأمن القومي العربي، وما علاقة ذلك بالوحدة العربية والقومية العربية؟** فقلت له: إنك تسهل عليَّ المهمة بهذه الأسئلة، فأراك تريد أن أتطرق إلى جميع جوانب الموضوع. قال: نعم ذلك صحيح. وابتدأت الجواب بالقول: الأمن القومي العربي هو ببساطة المحافظة على أرض الوطن العربي وثرواته، والمحافظة على الشعب العربي كأفراد. والمحافظة هذه التي أقصدها مادية ومعنوية. والمحافظة المادية هي المحافظة على الأرض والثروة والبشر من الفناء والسلب. والمحافظة المعنوية هي المحافظة على الكرامة والشرف من الانتهاك من قبل الآخرين. أما لماذا يكتسب هذا الموضوع أهميته، فالجواب بسيط وواضح. إن الأمة العربية محاطة بأعداء، بعضهم قريب يجاورها، وبعضهم بعيد يطمع فيها. فالوطن العربي يقع في قلب العالم، وعلى طرق المواصلات المهمة، وفيه ممرات دولية حيوية، كما أنه يملك ثروات معدنية وزراعية يطمع بها الطامعون. ان الأرض العربية نفسها هي موضوع طمع من قبل المستعمرين والطامعين. فإذا ما فحصنا خارطة التخوم العربية نجد ذلك واضحاً، فإيران لها مطامع في العراق وبلدان الخليج العربي والمياه الإقليمية في هذه المنطقة، وتركيا لها مطامع، وفي جنوب السودان تقوم حركة انفصالية يغذيها الأجنبي، كذلك الحال في شمال العراق. وفي موريتانيا نزاع حدودي مع السنغال، وأكبر المطامع الاستعمارية مطامع الصهيونية التي هي مطامع استيطانية في الأرض والثروة، ومطامع الصهيونية حالة من الجور وتفاقم الخطر

وسوء النية والتآمر الدولي، ليس لها مثيل في العالم. وهي أكبر خطر يواجه الأمة العربية اليوم، حيث لا حدود لما يريد أن يسلبه من الأرض العربية ولا حدود للحقد والتدمير الذي يريد إلحاقه بالأمة العربية أرضاً وشعباً.

وهل تريد مني أيها السائل المستوضح الكريم المزيد من الحديث عن مدى الخطر الصهيوني ونياته الشريرة إزاءنا نحن العرب؟ هل يعقل أنك لم تقرأ ولم تسمع ولم تشاهد كل ذلك؟ ألا تعرف شيئاً عن العقيدة المتعصبة التوسعية للحركة الصهيونية التي خلاصتها السعي إلى جمع كل يهود العالم في دولة واحدة تمتد من الفرات إلى النيل والسيطرة على كل المنطقة من قبل شعب الله المختار؟ ألا تعلم أن العقيدة الصهيونية تقوم على فكرة أن تتوسع في الأرض إلى أقصى ما تستطيع، باعتبار أن هذه البلاد يقطنها متخلّفون مارقون عن الدين اليهودي، يستحقون الإبادة؟ ألا تعلم أن الكيان الصهيوني هو الدولة الوحيدة في عالم اليوم التي لا حدود رسمية لها موجودة في أي وثيقة رسمية، بما في ذلك دستور الكيان، باعتبار أن الحدود الحالية ليست نهائية؟ ألا تعلم أن العقيدة الصهيونية قائمة على مبدأ القوة وتبرير كل الوسائل مهما كان نوعها لتحقيق أغراضها، لذلك قام الكيان الصهيوني ببناء قوة عسكرية نووية على أساس التفوق على كل العرب مجتمعين؟ ألا تعرف أن هذا الكيان يحتقر العرب ويزدريهم وينشر ثقافة عدائية ضدهم ويربي جيله القادم على أساس الحقد والاحتقار للعرب وضرورة إبادتهم وطردهم

إلى أبعد مكان في الأرض واحتلال كل ما يمكن احتلاله من الأرض في المنطقة، وإحلال اليهود مكانهم؟ ألا تعلم أن جميع مرافق الدولة والحياة العامة في هذا الكيان مبنية على أساس الحرب والاستعداد لها، وعلى أساس القوة في كل شيء من أجل تدمير الأمة العربية واحتلال بلادها؟ كل ذلك يجري وينفّذ بأساليب متنوعة، وفي جميع المجالات، ولا توجد وسيلة، مهما كانت بسيطة، إلا وتستعمل لتحقيق هذه الأهداف. إن الخطر الصهيوني لا يدانيه أي خطر تعرّضت له الأمة العربية في تاريخها. وإليك أيها السائل المستوضح الكريم أقول، وبكل تأكّد واطمئنان: لو أن العرب أدركوا تماماً حقيقة الخطر الذي تمثّله الصهيونية، وعرفوا حقيقة ما حلّ بهم، وما ينتظرهم من بلاء وسوء، ولو أنهم أدركوا ما سيحلّ بدينهم ومقدساتهم وكرامتهم وأعراضهم وأموالهم وبلادهم وأرض آبائهم وأجدادهم، وأرادوا فعلاً أن يحموا بلادهم وأعراضهم وشرفهم وأموالهم وثرواتهم من خطر الصهيونية، أقول لو أن العرب أدركوا وعرفوا كل ذلك، وأرادوا أن يقفوا الموقف الصحيح الذي تمليه هذه الأوضاع لمسحوا من أذهانهم كل شيء، ولتركوا وراءهم كل اعتبار وخرجوا من بيوتهم من الخليج إلى المحيط بصوت واحد ويد واحدة، نابذين كل ما هم عليه الآن من خلافات، ملغين كل هذه الدويلات والحدود وصغائر الدولة القطرية، معلنين بصوت واحد الوحدة التامة التي تذوب فيها جيوشهم بجيش واحد، ودولهم بدولة واحدة، واقتصاداتهم باقتصاد واحد، وقواهم المشتتة بقوة واحدة، ولمسحوا

من ذاكرتهم كل شيء، عدا القضاء على هذا الكيان، ولو أطبقت السماء على الأرض، فأزالوه من وجه الأرض، ولطردوا كل فرد مستعمر هاجر إلى الوطن العربي لغاية استعمارية. نعم لو أدرك العرب حقيقة الخطر الذي يواجههم من الصهيونية وكيانها والدول الاستعمارية المتحالفة معها، وأرادوا أن يقفوا الموقف الذي يستوجبه ذلك الخطر لتركوا كل شيء مما يعرفونه الآن، وخرجوا من بيوتهم وأماكن عملهم، واندمجوا فوراً في كيان واحد ودولة واحدة، ليس لها أي هدف قبل هدف القضاء على ذلك الخطر جذرياً ونهائياً، وإلى الأبد. وليس غير الوحدة ما يستطيع تحقيق كل ذلك. والعجب كل العجب حقاً اننا نعرف ذهنياً كل ذلك، ولا نتحد. إنني أعرف كلام التبرير وأعذار الواقعية والحديث عن الواقع والخيال والممكن والمستحيل والقريب والبعيد مما نعلمه ونعرفه واعتدنا عليه من المتداول مما نسمع ونقرأ ونرى، ولكن الحقيقة تبقى الحقيقة عن هذا الخطر الذي لا يواجه إلا بما يوازيه، ولا يقاومه إلا ما هو بمستواه، وليس غير الوحدة والتعبئة في كل شيء، والاتجاه نحو هدف واحد لا غيره وهو القضاء على العدو مهما غلت التضحيات وكبر الثمن ما يستطيع تحقيق ذلك. إذ ليس ما هو أغلى من الوجود. ربما يتبادر إلى ذهنك أيها السائل المستوضح الكريم ان في ذلك شيئاً من الزيادة والمبالغة، ولكن معاذ الله من مثل هذا الشعور، ووقانا الله من مثل هذا النوع من التفكير الخامل المستسلم المؤثر للراحة والمؤدي إلى التراخي والقبول بالوجود الصهيوني.

وهنا أيضاً، لا بد من أن أحيلك أيها السائل المستوضح الكريم إلى ما يكتبه ويقوله ويردده العدو نفسه صباحَ مساءَ، وما يثقف به جنده وأفراده وأطفاله صباحَ مساءَ، ومنذ بداية هذه الحركة الاستعمارية الشريرة حتى اليوم، لترى ان كلامي كان مختصراً في نقل الحقيقة ومخففاً في ايضاح أبعاد الخطر ومتهاوناً في نقل ما يجب أن يكون عليه الموقف.

ولكن ربما تريد أكثر من ذلك ليطمئن القلب، كما يقال. فإن كنت كذلك، فما عليك إلا أن تستعيد في ذاكرتك أنت وليس ذاكرة الجيل الذي سبقك، كيف تطورت رقعة الأرض التي يسيطر عليها هذا الكيان من قرار التقسيم إلى حدود ١٩٤٨ ثم إلى حدود ١٩٦٧ إلى الوقت الحاضر.

إننا الآن أمام عدو ذي صفة خاصة، إذ بالرغم من خطورة ما يقوم به، فهو لا يخفي نياته بل يقول بها علناً وجهاراً، وهو لا يقتصر على القول بل يقرن ذلك بالعمل، فهو يقول ويعمل ويعلن. كما أنه متجرد تماماً عن كل ما هو إنساني وأخلاقي. ان الإنسان السوي، ربما يحتاج إلى دليل واحد ليتأكد من الموقف، فكيف إذا كان ذلك العدو يوفر ألف دليل ودليل، وربما أدلة لا تحصى على ذلك الموقف؟ إننا العرب في وضعنا الحالي إذا لم ندرك حقيقة ذلك الخطر، وأقصد بعبارة ندرك ليس بالقول المجرد بل الإدراك المقرون بما يناسب من موقف، أقول إننا إذا لم ندرك حقيقة ذلك الخطر فعلينا

أن ننتظر الهلاك، لا سمح الله. فالعيب لا يكمن في تقصّي الأدلة أو قلّة وسائل الإقناع بل في نفوسنا نحن، فنكون كمن يرى الخطر القادم ويستسلم للركود. إن خطراً أقل بكثير من خطر الصهيونية يكفي بحد ذاته لاتحادنا، فكيف إذا كان الخطر هو خطر الصهيونية بعينه؟

إنني أيها السائل المستوضح الكريم أعلم أن هذا الكلام لا يرفضه أحد من حيث كونه كلاماً، ولا يجد أحد ما يقوله عنه بالضد فهو كلام صحيح، لأن الوحدة بحد ذاتها خير وبركة للجميع، وكلها فوائد ينتفع منها الجميع، فهي أمر جيد بحد ذاته بخطر ومن دون خطر، في السلم والحرب، في الحاضر وفي المستقبل. إذ من يستطيع أن يقول غير ذلك من دون أن يجافي الحق؟ لا أحد.

ولكن عقدة الأمر ليست في ذلك، وان الصعوبة ليست في الكلام الذهني المجرد سؤالاً والجواب عنه، بل هي في لماذا لم يحدث ذلك؟ ولماذا لم نستطع حتى الآن أن نحقق ذلك؟ لقد حثّت السماء على الوحدة وأيدت قوانين الأرض والعقل البشري الوحدة، فلماذا لا نحققها؟ إننا لم نحققها مع أنها حق بحد ذاته، ولم نحققها مع أنه بالإضافة لذلك، هناك خطر بالصيغة التي ذكرتها يواجهنا ويهدد كياننا ووجودنا. الذي يفكر في ذلك ملياً ويستطيع أن يخرج من دوامة أوضاعنا التي نتحرك في دائرتها من دون أن نصل إلى المكان الذي نريده يدرك تماماً أننا في وضع خاص، وفي حالة غريبة. كيف

نستطيع أن ننام في الليل ونتناول طعامنا ونلبس ثيابنا ونذهب إلى عملنا خلال اليوم ولا نعمل ما يجب عمله لتغيير ما نحن فيه جذرياً فنحقق وحدة أمتنا ووطننا؟ إنه أمر يثير الدهشة. وحتى من هو خارج فلكنا من الأجانب الذين ليسوا في وضع العداء لنا استطاعوا أن يروا ذلك فخرجوا على قوانين المجاملة وقالوا لنا ذلك بصراحة، فقد سمعته من قادة الاتحاد السوفياتي السابق. ففي زيارة لوفد لنا قال كوسيغن رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي سابقاً صباح يوم الجمعة ١١/٢/١٩٧٢ في أثناء اجتماعنا معه بالكرملين ما نصّه كما دوّنته عبر المترجم ما يأتي: «إننا يجب أن نعمل لتوحيد العالم العربي. ضعف العالم العربي في تفرقته، في انشقاقه. إذا كان العرب متحدين يكونون قوة تهتز لها أوروبا لأن العرب يملكون طاقات أوروبا وغير أوروبا، وليست اسرائيل إلا قزماً حتى بمساعدة الولايات المتحدة. الاستعمار يعمل كل شيء من أجل ألاّ يحصل اتحاد الدول العربية. وبصراحة لقد نجح المستعمرون بعض الشيء في ذلك. في كل مكان نرى تأثيرات الاستعمار بحيث لا يسمح بوحدة العرب. إن أداة التوحيد أداة صعبة ودقيقة. وهناك أمور دقيقة في العالم العربي. على السطح هناك أمور كثيرة تدل على سهولة الوحدة، ولكن الوحدة لم تتحقق. لربما العوامل الشخصية والعلاقات بين الأشخاص تلعب دورها في عدم الوصول إلى الوحدة. إننا لا نستطيع أن نفهم الأسباب لعدم قيام الوحدة. لا بد من الوصول إلى حل وسط من أجل الوحدة للوقوف بوجه اسرائيل».

انتهى النص.

ومهما كان المقصود بالوحدة؛ هل هي الوحدة بدولة واحدة أو وحدة الموقف، يبقى الذي قيل لنا دليلاً على حراجة ما نحن فيه من عدم استطاعتنا أن نرى الحقيقة الساطعة، ألا وهي ضرورة اتحادنا نحن العرب.

لاحظ أيها السائل المستوضح الكريم من يلاحق موضوع الوحدة العربية فكرياً ويجمع حولها المعلومات، ويؤلف الكتب في تفنيدها والتوجيه ضدها بطرق خبيثة لئيمة. إنه بالدرجة الأولى الحركة الصهيونية والدول الاستعمارية. والسبب واضح هو ان الصهيونية ومعها الدول الاستعمارية تخشى ظهور قوة جديدة في المنطقة تتبع سياسة مستقلة يمكن أن تقف ضد سياساتها ومصالحها في السيطرة على الثروة النفطية وطرق المواصلات والممرات المائية الدولية المهمة. فوضع التجزئة هو الوضع الذي يبقي المنطقة ضعيفة مستسلمة للإرادة الصهيونية والاستعمارية، أما وضع الوحدة فهو وضع القوة الذي يمنع الدول الاستعمارية من تحقيق مصالحها. واعلم أيها السائل المستوضح الكريم ان الصهيونية والدول الاستعمارية، وإنْ كانت مجبولة على الشر والرذيلة إلا أنها لا تعدم الذكاء والدهاء وبعد النظر والخبث والتجربة، بل لديها من ذلك الشيء الكثير. لذلك نجدها تعمل ضد الوحدة العربية بشتى الوسائل والطرق العملية دونما ضجيج ومن دون ظهور على السطح، لأنها تعرف أن الرأي العام العربي يزداد تعلقه بالوحدة إذا ما شاهد وسمع ولمس بشكل ظاهر عداء الصهيونية والدول الاستعمارية لها. فالرأي العام يقيس إلى حد بعيد صلاح أي موقف على أساس موقف الكيان الصهيوني والدول الاستعمارية منه، فما تعاديه فهو جيد، وما تؤيده فهو رديء، لذلك نجد الكيان الصهيوني لم يقم ضجة إعلامية عند قيام الجمهورية العربية المتحدة بل عمل ضدها في السرّ وحاك ضدها

المؤامرات. إنه الآن لا يصرح ضد الوحدة ولا يتكلم ضدها، إلا أنه يعمل كل شيء لمنع قيامها.

ـ ١٤ ـ

وبعد هذا الشرح أراد السائل المستوضح الكريم أن يستزيد، وأن يلم بالموضوع من جميع جوانبه، ففكر مليّاً ثم قال: ولكن قل لي: **الوحدة العربية هدف كبير للنضال القومي، وتحقيق ذلك الهدف قد يحتاج إلى بعض الوقت، فهل يعني ما تقول إننا يجب ألاّ نعمل شيئاً في أقطارنا في ميادين البناء والتقدم؟ ثم مِن أجل أن تتهيأ الأرضية للوحدة، أليست هناك أمور يجب أن تتم بضمن الأقطار العربية؟** قلت مجيباً: نعم، وقد سبق لي أن تحدثت عن ذلك. أولاً ان النضال من أجل الوحدة باعتبارها الهدف الأول والأساس لا يمنع أبداً أن تحقق الأقطار العربية ما تستطيع تحقيقه في مجال التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، فكل تقدم نحققه في هذا المجال مفيد. كما علينا أن نرسّخ الوحدة الوطنية في داخل كل قطر. كما أن الوحدة الوطنية وحل مشاكل الأقليات ضمن الوحدة الوطنية أمر ضروري ومهم من أجل تسهيل عملية الوحدة. ان علمية البناء وعملية توحيد الصفوف في داخل كل قطر عربي يجب أن تستمر حتى قبل أن تتحقق الوحدة العربية، وحسب ما تسمح به الظروف.

فالنضال يجب ألاّ يتوقف، نضال البناء والوحدة الوطنية، بل

يجب اعتباره جزءاً لا يتجزأ من عملية التوحيد القومي. ولكن الذي يجب أن يقال أيضاً هو أن هناك فرقاً جوهرياً بين البناء الاقتصادي والاجتماعي والثقافي المتجه نحو ترسيخ وضع التجزئة واعتباره الوضع النهائي وبين البناء المقصود للتهيئة للوحدة. ويكمن الفرق أولاً وأخيراً في الاتجاه الذي تقوده السلطة السياسية في هذا القطر أو ذاك. أما كيفية صياغة البناء من أجل الوحدة واختلافه عن البناء من أجل التجزئة فتتبع براعة قيادة الدولة القطرية في اختيار الأساليب والصيغ لذلك البناء وكيفية توجيهه والروح التي توضع فيه.

واعلم أيها السائل المستوضح الكريم أنني عندما أقول إن العدو الأول والأكبر للوحدة هو الصهيونية والدول الاستعمارية، أستذكر ما يردد أحياناً في خضم الخصومات السياسية والمجادلات العقائدية في الوطن العربي من أن القومية العربية والوحدة العربية هي من صنع الغرب وأنها كارثة على المجتمع العربي. ان مثل هذا الكلام تحرّكه الخصومات السياسية، وليس البحث عن الحقيقة. فالقومية العربية هي الشعور القومي العربي الذي بدأ يستيقظ في أواخر الدولة العثمانية عندما بدأت الدولة العثمانية تسير في اتجاه تتريك العرب، حيث خلق ذلك شعوراً بالخطر على الوجود العربي والهوية العربية. أما ما نشأ في أوروبا من حركات قومية، فذلك شأن التطور الداخلي في تلك البلدان وله ظروفه وأسبابه ومعطياته. أما قضية التأثير والتأثر المتقابل بين الأفكار والتيارات السياسية والفكرية في العالم فهو أمر طبيعي موجود في كل زمان وكل مكان، وهو شأن التطور البشري

والصلة التفاعلية بين الشعوب، كان موجوداً وسيبقى كذلك في هذه الناحية، وفي جميع النواحي الأخرى من التطور. إن الأمة العربية أمة عريقة في تاريخها وعرفت الوحدة السياسية قبل أن تنشأ الدولة القومية في أوروبا.

وبعد أن قطع الحوار هذه المراحل ومرّ الوقت تململ السائل المستوضح الكريم، وبدا عليه التعب، فقال بلهجة المعتذر: إنه يحب التبسيط والتلخيص وإجمال الأمور الواسعة بكلمات قليلة معبّرة، فقلت له: وماذا تريد بالضبط؟ قال: **هل لك أن تجمل ما تريد أن تقوله في مجال مزايا الوحدة بكلمات قليلة؟** قلت: نعم، ذلك ممكن، إلا أنه يحمل معه خطر التبسيط، وأحياناً سوء الفهم. فقال: إنني أعرف ذلك ومحتاط له، فقد استمعت للشرح، وأريد الآن التلخيص. وإذا ما ضاق بي التلخيص فأستطيع الرجوع إلى الشرح، خاصة وأنك قدمت الشرح على التلخيص. قلت له: إذن أستطيع أن أورد تلك الكلمات الرمزية الآتية. للوحدة مزايا يمكن أن أجملها بما يأتي: توسيع السوق، وتحرير فلسطين، راجياً أن تفهم من توسيع السوق كل موضوع التنمية الاقتصادية التي هي أساس التنمية الاجتماعية والثقافية والتقدم العصري عموماً، بكل ما يتبع ذلك من حل لمشاكل الفقر والجهل والمرض. وفي الناحية القومية، الوحدة هي مصدر القوة بكل أنواعها خاصة العسكرية التي نستطيع بواسطتها تحرير فلسطين والقضاء النهائي على الخطر الصهيوني، وهو العدو الأول والخطر الأكبر الذي يواجهنا. ذلك هو التلخيص. فهل تريد

أكبر وأهم من هذه المزايا؟ هل تريد المزيد؟ ألا تكفي هذه المزايا للتعلق بهدف الوحدة؟ الوحدة العربية تحقق لنا التنمية، والأمن، وقد أجمل الخالق فضله في الآية الكريمة ﴿**أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾[1].

ومن وضع الرضى والراحة استرسل السائل المستوضح الكريم طارحاً سؤالاً استنبطه من الحديث نفسه فقال: إننا نحن العرب نعيش الآن في ظل التجزئة، أي في ظل دول قطرية. وقد مضى وقت على نشوء هذه الدول، **فهل لك أن تقول شيئاً عن هذه الدولة القطرية؟ هل هي في طريق الرسوخ أو أنها في طريق الاضمحلال؟** قلت له: نعم، أستطيع، كما أنني أرى في سؤالك ما هو مفيد، إذ من الضروري ونحن نبحث هذا الموضوع القومي المهم أن نحيط بالموضوع من جميع جوانبه، وحَرِيٌّ بنا في هذا المجال أن نحلل الوضع الذي نحن فيه: وضع الدولة القطرية. إنني قد تحدثت عن ذلك كتابياً في مكان آخر، ومع ذلك قلت مجيباً: إن الدولة كأي مؤسسة أخرى لها عصبية، والعصبية هي نوع من شعور التعلق المشترك بتلك المؤسسة. والمؤسسات هي في الغالب تجمعات بشرية حول أمور مختلفة، ولا بد لها من عصبية من أجل البقاء والاستمرار. وتتكوّن العصبية بمرور الوقت بسبب العيش المشترك ضمن حدود وقواعد المؤسسة المعنية. والعصبية شعور عاطفي مشترك

---

(١) القرآن الكريم، «سورة قريش،» الآية ٤.

ينبع من الحاجة المشتركة والعيش المشترك في نطاق معين. فالدولة كمؤسسة أوجدها الإنسان قد تكوّنت لها بمرور الوقت عصبية، أي انشداد عاطفي وتعلق وجداني تعبّر عنه الروح الوطنية. ان الانتماء إلى المؤسسة لا بد من أن يعرض الفرد إلى ذلك التأثير العاطفي، أي إلى العصبية. لذلك نجد أن الفرد الذي ينتمي إلى جمعية يصبح بمرور الوقت، بفعل المصلحة والحياة المشتركة، مشدوداً اليها ومعرضاً لتكوين عصبية ما لتلك الجمعية، وكذلك الحال بالنسبة إلى الدولة. والعصبية تؤدي إلى الانحياز وتفضيل مصلحة تلك المؤسسة على المصالح الأخرى. والمؤسسة تعرّف على أنها مجموعة من الناس هدفها تكييف سلوك الفرد وتصرّفه في ناحية، أو أكثر، ليكون منسجماً مع تلك القواعد.

والدولة كمؤسسة تتضمن مجموعة من القوانين والأنظمة المكتوبة وغير المكتوبة، يتكيّف بموجبها سلوك الفرد لتحقيق الانسجام بين سلوكه الشخصي وهدف المجتمع، أي مصلحته واستمراره. وبهذا المعنى فالدولة القطرية لا بد من أن تؤثر في سلوك الفرد، فهو لا يستطيع تجاهل نظامها السياسي وقوانينها المعمول بها، وهي قوانين منسجمة مع مصلحة وجود الدولة واستمرار وجودها، ولا يمكن تصور العكس. إذ لو حدث ان قوانين دولة سارت في اتجاه مضاد لمصلحة بقائها واستمرارها لزالت الدولة.

إن المسؤول في الدولة القطرية قد يواجه حالات من الخيار

بين الملموس المباشر وهو الاعتبار القطري، وغير الملموس البعيد وهو الاعتبار القومي. فالأمور القطرية تكون عادة أموراً ملموسة يستطيع المسؤول أن يراها، وهي تواجهه بشكل مباشر عملي. أما الأمور القومية فهي في حالة التجزئة تبقى في عداد الأمور غير الملموسة لأنها لا تتعلق بدولة موجودة. كما أنها تتعلق بالمستقبل، وليس بالحاضر. وبذلك قد يؤدي الشعور بالمسؤولية إلى أن يتخذ المسؤول في الدولة القطرية قرارات لمصلحة القطر الذي يتولى فيه المسؤولية، وربما لا تكون تلك القرارات منسجمة تماماً مع المصلحة القومية. إن الشعور بالمسؤولية إزاء القطر ومقتضيات الدفاع عن الموجود وحمايته وتثبيت أقدامه عوامل تساعد بمرور الوقت على خلق نظرة واقعية بمعنى الاهتمام بالواقع الموجود، إذ إن سقوط النظام الموجود يعني زوال إمكانية الاهتمام بالقضية القومية، أي الوحدة، وعندها يوضع المسؤول في خيار صعب: أيهما أفضل: المحافظة على بقاء النظام الموجود في الحكم الآن والقيام بكل ما يقتضيه ذلك من اهتمام لتدعيم ذلك النظام وحل مشاكله والمحافظة بالتالي على إمكانية تحقيق الوحدة مستقبلاً أم الاتجاه نحو العمل الوحدوي الآن وإهمال المشاكل القطرية، وبالتالي التعرّض إلى سقوط وضياع كل إمكانية لتحقيق الوحدة؟ وفي مثل هذا الخيار لا يستطيع المسؤول إلا أن يختار البديل الأول. ولكن المسألة لا تكون عادة بمثل هذا الوضوح. فبدائل الاختيار لا تكون عادة على هذه الشاكلة من التناقض والانفصال لأنها عادة متداخلة بعض الشيء. والصعوبة تكمن في

معرفة أين تنتهي مهمة الدفاع عن النظام الموجود أو حل المشاكل القطرية، وأين تبدأ مهمة تحقيق الوحدة القومية ومعرفة كيفية تجنّب استمرار مرحلة على حساب مرحلة، أي تجنّب تحوّل الحالة الموقتة إلى حالة دائمة.

إن المشاكل الداخلية للقطر قد تكون على درجة من الخطورة والإلحاح ممّا يتطلب جهوداً كبيرة، الأمر الذي يستنفد الجزء الأعظم من طاقة النظام وقواه، الأمر الذي قد يصرفه عن الاهتمام بقضية الوحدة. إن الاهتمام بالشؤون القطرية يتناسب طرديّاً مع درجة تعقيد المشاكل التي يواجهها النظام القطري وظروف القطر الذي يوجد فيه.

ومن العوامل التي تدفع في الاتجاه القطري هو أن تسيير الحكم في الدولة القطرية يؤدي بمرور الوقت إلى الانغماس فيه، الأمر الذي يخلق جواً خاصاً هو الجو القطري. فكل ما تنقله الحواس عن الحياة اليومية يتعلق بشؤون قطرية. والنظام قوامه أشخاص، وللأشخاص حواس تنقل إليهم المعلومات والأفعال وردود الأفعال، وعن طريقها يتفاعل الأشخاص مع محيطهم. فإذا كان حل ما يحيط بهم يومياً يتعلق بالشؤون القطرية، فمن المنتظر أن يتأثروا بذلك المحيط والتفاعل معه والتعود عليه. إن الانغماس في شؤون القطر يؤدي بمرور الوقت إلى أن يضعف تصور ما هو خارج القطر. فالذاكرة تضعف والرؤيا تصبح محدودة والصورة باهتة لما هو خارج

ذلك، بعكس الشؤون القطرية التي يراها ويسمع عنها في كل يوم. والمعروف ان الحواس كانت دوماً وسيلة محدودة للمعرفة، فالنظر يعتاد على الأشياء التي تعرض أمامه باستمرار، والأذن تعتاد على ما تسمعه باستمرار، فتتكون العادات ويتأثر الذهن، فيبدأ الإنسان بالتصور أن الذي يراه ويسمعه كل يوم هو كل الموجود في العالم أو أهم ما هو موجود. إن حجم ما هو قريب وملموس بالحواس عادة أكبر من حجم ما هو بعيد لا تقع عليه الحواس، وتلك هي الميول الوهمية التي يكونها ذهن الإنسان بالتدريج، وهي ميول غير علمية للانحياز إلى الوضع الموجود، لمجرد أنه موجود. ويشكل ذلك قوة تدفع نحو القطرية.

ثم هناك الإعلام الموجّه في الدولة القطرية ذاتها الذي يساعد على تكوين صورة مكبّرة للقطر، ويساعد ذلك بالتالي على زيادة الاهتمام بشؤون القطر على حساب الشؤون القومية. فالإعلام الموجّه وهو يقوم بتأدية مهمته في دعم النظام القائم لا يستطيع إلا أن يبالغ في تكبيره صورة ذلك القطر، ومن خلال ذلك يوحي بصورة غير مباشرة بالاكتفاء الذاتي وبعدم الحاجة لما هو أبعد من القطر. إن أجهزة الأمن هي القنوات التي تمد النظام القائم بالمعلومات عن الحوادث التي تقع خارج القطر، وهي غالباً ما تقوم بدور مساعد للاتجاه القطري. فهي أجهزة عادة تخشى المسؤولية، ولا تستطيع المجازفة بأمن الدولة القطرية، وتميل إلى نقل ما تعتقد انه مرغوب ومريح من قبل النظام القائم. من كل ذلك نستنتج أيها السائل

المستوضح الكريم أن الدولة القطرية بمرور الوقت يساعد وجودها على تنمية الميول القطرية وتقويتها بصورة لا واعية، وبذلك يكون الوقت عاملاً مساعداً على تقوية وجودها.

وبعد أن سمع السائل المستوضح الكريم كل ذلك قال معلقاً: إنه حديث مشوق وقد دخلنا الآن في مجال البحث النظري أو البحث العقائدي، كما درجت التسمية. قلت له: هذا صحيح، فهو ضروري في بعض الأحيان إذا ما استعمل في مكانه المناسب وبالحدود الضرورية، وباللغة المفهومة. قلت له: وماذا تريد الآن؟ قال: أريد أن نتوسع في هذا البحث النظري. فقلت له: إنني قلت إنه مهم في الحدود الضرورية فقط، أي عندما نحتاج إليه لإيضاح أمر من الأمور لا يتم إيضاحه إلا بايراد شيء من ذلك البحث النظري. فقال السائل المستوضح الكريم: **ما فائدة النظرية بنظرك؟ هل هناك نظرية قابلة للتطبيق تماماً؟ وكيف ترى النظريات الموجودة في الكتب التي يتناقش حولها المثقفون الجامعيون وغير الجامعيين؟** قلت له: إذا كنت تقصد التطبيق الحرفي للنظرية فجوابي ان النظرية المعدّة سلفاً تفيد كاتجاه عام. أما التطبيق فيجب أن يتكيّف حسب متطلبات الواقع، وبما يلائمه. وبعبارة أخرى: التطبيق يجب أن يكون انتقائياً.

قال السائل المستوضح الكريم، محاولاً ايضاح ما يرمي إليه: إنني لا أقصد الخروج عن الموضوع. فموضوعنا هو الوحدة العربية، **بل أقصد السؤال عن صحة ما تدعو إليه بعض النظريات حيث**

تقول إننا سائرون نحو مجتمع عالمي تذوب فيه القوميات. فالماركسية تقول بذلك والاتجاه الديني المسيّس يدعو إلى مجتمع عالمي إسلامي أو وحدة إسلامية، والدول الأوروبية وغيرها من الدول تسير نحو التكتل. قلت له: إن سؤالك وارد، وسأجيب عنه في إطار نظري أيضاً.

الشيء الأول الذي أود إيضاحه هو أننا يجب أن نفهم حدود النظرية، والمقصود الحقيقي منها. فالنظريات التي نتداولها كانت دائماً تعبيراً عن الروح السائدة في المجتمع الذي نشأت فيه، فهي تعبير عن روح العصر، كما يراه مؤلف النظرية. وقد تكون حدود العصر لذلك المفكر هي حدود المجتمع الذي يعيش فيه وليس حدود العالم. لذلك علينا ألا نأخذ النظريات مجردة عن ذلك، إذ من الخطأ الفادح أن ندرس تلك النظريات ولا ندرس الظروف التي كانت سائدة في المجتمع الذي نشأت فيه في ذلك الوقت بالذات. إننا إذا ما درسنا ذلك نجد علاقة وثيقة بين النظرية والظروف المحيطة بها، وهي في الغالب تعبير عن تلك الظروف ومتأثرة بها تبريراً أو معارضة لتلك الظروف. لذلك فالنظريات دائماً محدودة بحدود تلك الظروف، والانتباه لذلك أمر في غاية الأهمية لأنه الوسيلة التي تحصننا ضد ميول النسخ والتقليد. فعندما نتجنب الميل الخاطىء للنسخ والتقليد تصبح النظرية مجرد عملية تنوير واطلاع واغناء لتفكيرنا الذي يجب أن ينحت ما يناسب أوضاعنا، وننتقي ما يلائم ظروفنا، أي ان ما يلائم ظروفنا ويناسب أوضاعنا هو الأصل، وما

عداه من النظريات لا يعدو أن يكون مرشداً عاماً وتنويراً يساعد على تفتّح الذهن واتساع الأفق.

قلت للسائل المستوضح الكريم: إنني أعتقد أننا سائرون نحو عالم القوميات المتعاونة والتكتلات الهادفة لتحقيق المصالح المشتركة، وليس إلى مجتمع عالمي له حكومة عالمية واحدة، كما يقول بعضهم. فتجربة الأمم المتحدة لا تدل على أننا سائرون في هذا الاتجاه أبداً. وما اثبتته تجربة هذه المنظمة هو فائدة العمل المشترك، وليس ذوبان العالم في دولة واحدة. ومهما يكن من أمر العالم، فالمهم هو ما يتعلق بنا نحن العرب. ما المفيد بالنسبة إلينا؟ هل البقاء في وضع التجزئة أو الوحدة؟ هذا هو الموضوع الحيوي الذي له معنى. أما مسألة المجتمع العالمي بدولة واحدة فهي مسألة نظرية تماماً بالنسبة إلينا. وما يهمنا بحثه والتفكير فيه هو ما يتعلق بوضعنا نحن العرب، وليس أي شيء آخر. فذلك هو التفكير الايجابي، أليس كذلك؟ إذ ما معنى انشغالنا بموضوع اتجاه العالم نحو الدولة الواحدة أو عدم اتجاهه، ونحن لا نزال في وضع التجزئة لم نحقق وحدتنا القومية بعد؟ وماذا نستطيع أن نفيد العالم عندما لا نكون في وضع نستطيع أن نفيد به أنفسنا أولاً المحتاجة إلى الاهتمام قبل كل شيء؟ ألا يوضح ذلك الفرق بين التفكير الجاد والكلام النظري البعيد عن الواقع؟ لقد لقيت الماركسية مصيرها في ما يتعلق بموضوع المجتمع العالمي في الأقل، وهي كحركة أضعف اليوم مما كانت عليه بالأمس. أما فكرة المجتمع العالمي الإسلامي، أي الوحدة الإسلامية

فهي إن كان المقصود بها التعاون والتكتل وايجاد رابطة بين دول العالم الإسلامي فهو أمر مقبول وقابل للتحقيق. أما إذا كان المقصود تكوين دولة إسلامية تضم جميع مسلمي العالم فهي أبعد ما تكون عن الواقع وإمكانية التحقيق. أما فكرة المجتمع العالمي الذي يتحقق عن طريق الهيمنة العسكرية والاقتصادية والسياسية لدولة من الدول، فعمل حاول القيام به الكثيرون في التاريخ، وانتهى في عداد المغامرات الخائبة، ولن يكون مصير أية محاولة جديدة تقوم بها هذه الدولة العظمى أو تلك بأحسن من حال ما سبقها من مغامرات مدمّرة.

ـ ١٥ ـ

قال السائل المستوضح الكريم لافتاً نظري بصيغة سؤال: ألا ترى أنك قد تحدثت عن الأمور السياسية بما فيه الكفاية، ولكنك لم تتحدث بما يكفي عن أمور أخرى اجتماعية واقتصادية وثقافية؟ قلت له: ربما كان ذلك صحيحاً، فنحن العرب نعير السياسة أهمية كبيرة، وأحياناً يدفعنا ذلك إلى شيء من عدم التوازن في بحث الأمور. صحيح أن المسألة السياسية ذات أهمية إلا أن ذلك يجب ألاّ يؤدي إلى ضمور القضايا الأخرى في البحث وعدم اعطائها النصيب الذي تستحقه من الاهتمام. إن الاهتمام الزائد بالسياسة يجب ألاّ ينسينا ان ما هو مهم في نهاية المطاف هو ما يهم الإنسان الفرد، أي حياته اليومية، وكيف يعيش. لذلك لا بد من الحديث عن بعض الأمور الاقتصادية والاجتماعية ذات العلاقة الوثيقة بالوحدة العربية.

الشيء الأول الذي أود أن أتطرّق إليه، هو أننا العرب عموماً لا نعير القضية الاقتصادية الأهمية الكافية، مع أن هذا القول يتباين من قطر إلى آخر. فهناك أقطار الاهتمام فيها أكثر من أقطار أخرى. إن القضية الاقتصادية تتعلق بمعيشة الإنسان وحياته المستمرة من يوم إلى يوم. فهي تتعلق بسكنه وأثاث بيته وطعامه وملبسه ووسيلة مواصلاته ومدى تمتعه بوسائل الراحة العصرية في البيت والاتصالات، وتتعلق بتعليم أبنائه والمحافظة على صحة عائلته وتمتعه بالراحة والاستجمام والسياحة والقراءة والتسلية وبالعناية به في الشيخوخة والعجز والمرض. إنها الأمر الذي يتوقف عليه دخل الفرد أو العائلة، أي دخله المالي الذي هو أساس توفر أو عدم توفر تلك التسهيلات والأمور المعاشية، وذلك ليس بالأمر الثانوي، بل هو أمر أساسي، لأنه يقرر مستوى المعيشة لذلك الفرد أو العائلة.

إن توفر الحاجيات الأساسية والكمالية للفرد أو العائلة، وتمتعه بمستوى مريح ولائق من المعيشة هو الذي يحرره من قيود الحاجة بكل ما تنطوي عليه من منغصات وعوامل مؤثرة سلباً في حياته المعنوية والحفاظ على كرامته وراحته النفسية.

إن قضية مستوى المعيشة هي بالدرجة الأساس قضية التنمية، والتنمية تحتاج إلى سعة السوق والتكامل في الموارد وتوفر عوامل الإنتاج. إن أثر السوق الواسعة مسألة اقتصادية فنية، كتب عنها الكثير، وأهميتها معروفة عند دارسي الاقتصاد. إن سعة رقعة الدولة

وما يتبع ذلك من ازدياد عدد السكان، وبالتالي اتساع السوق بكل ما يعنيه ذلك من عوامل مهمة لتوسيع الطلب على السلع والخدمات وتكامل الموارد وتوفير عوامل الإنتاج، أمور غاية في الأهمية لقيام التنمية الحقيقية التي يتحول فيها المجتمع من مجتمع فقير راكد تسوده الزراعة المتخلفة والاكتفاء الذاتي المحلي إلى مجتمع صناعي متطور يقوم على أساس التخصص في الإنتاج وتقسيم العمل والتبادل التجاري والسوق الواسعة التي يتم من خلالها انتقال عوامل الإنتاج وتبادل السلع والخدمات والتنمية الذاتية والتطور وارتفاع الإنتاجية المستمر. إن هذه القضية المركزية والموضوع الأساسي في علم الاقتصاد تتعلق بشكل مباشر بقضية الوحدة السياسية للبلدان العربية، تلك الوحدة التي تزول فيها جميع القيود على انتقال السلع والخدمات وعلى اليد العاملة ورأس المال والخبرة الفنية والإدارية. ولا أود الإفاضة في هذا الموضوع بسبب كثرة ما كتب عنه في الأدبيات المتداولة، كما أنه أمر قليلاً ما يختلف عليه في الكتابات الاقتصادية التي تدرس في الجامعات.

أما الجانب الاجتماعي فلي فيه اهتمام خاص وهو في نظري اجتماعي - سياسي في الوقت نفسه. إنه اجتماعي ذو جوانب سياسية. إن النقطة المركزية في هذا الموضوع هو حرية الانتقال للسكان الذي توفره الوحدة العربية. إن حرية السفر والإقامة والعمل ومزاولة المهنة أمر غاية في الأهمية. فالفرد العربي الذي يعيش في قطر عربي يستطيع في ظل الوحدة العربية أن يهاجر إلى قطر عربي

آخر، ويختار مكاناً للعيش والإقامة الدائمة، وهو أمر مهم بالنسبة إلى مدى تمتعه بالحرية الشخصية. إن اختيار مكان الإقامة الملائم للفرد أمر يتعلق بالحرية من دون شك، فهو يستطيع أن يغيّر الطقس الذي يعيش فيه، ويغيّر المهنة التي يزاولها، ويغيّر المحيط الذي يعيش فيه ويغير أصدقاءه ومن يتعامل معهم من المعارف وغيرهم.

إن حريته في ذلك أوسع من دون شك في ظل الوحدة منها في ظل التجزئة. في ظل الوحدة يستطيع المواطن أن يرحل عندما يواجهه أذى وإزعاج من أي نوع كان في هذا القطر إلى قطر آخر تخلصاً من ذلك الأذى والإزعاج، تماماً كما قال الشاعر: «وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى». ومعنى هذا القول واضح من حيث سعي الإنسان وراء الحرية والأمان والاستقرار. إن الوحدة توفر ذلك أكثر من وضع التجزئة من دون شك، فالوطن العربي رقعة واسعة شاسعة المسافات، متعددة المناخات والظروف الاجتماعية.

إن نوعاً من هذه الحرية كان موجوداً في أثناء الحكم العثماني، الأمر الذي أدّى إلى انتقال الكثير من الأفراد من قطر إلى آخر سعياً وراء الوضع الأنسب والحياة الأفضل والمكان الأكثر أمناً أو الأنسب مناخاً أو الأفضل ظروفاً معاشية أو ثقافية أو اجتماعية... إلخ.

إن هذه الحرية قد ضاقت وتقلّصت في ظل الدولة القطرية المتشددة في موضوع السفر والإقامة والعمل ومزاولة المهنة بالنسبة

إلى من يأتي من خارج القطر بما في ذلك الأقطار العربية الأخرى، ومع بعض الفوارق بين قطر وآخر.

وللموضوع جانب آخر، هو إضعاف العصبيات الضيّقة وإحلال الرابطة القومية والانتماء القومي محل الانتماءات المحلية التي غالباً ما تتناقض مع الانتماء القومي. الوحدة تفتح المجال أمام المواطن للتنقل سعياً وراء العمل والدراسة أو ممارسة المهنة أو الظروف الاجتماعية الملائمة أو المناخ المرغوب فيه، أو أي اعتبار آخر يرغب فيه. إن فتح المجال هذا من شأنه أن يضعف العصبيات الضيّقة كعصبية المدينة أو المذهب أو العشيرة أو المنطقة أو القطر. المجتمع العربي عموماً يتصف بالركود، وهناك أنماط من المعيشة والعادات والتقاليد المتوارثة، وبعض هذه الأنماط والعادات والتقاليد مقيد للحركة ولا يساعد على التنمية، لاسيما ما يتعلق منها بعدم احترام العمل اليدوي عموماً، وتحبيذ بعض المهن دون أخرى، وزراعة بعض المحاصيل دون أخرى. إن التنمية الاقتصادية تتطلب تحرراً من كل هذه الأنماط والعادات والتقاليد ليحلّ محلها استعداد عند الفرد لأن يعمل في أي مهنة تدر عليه دخلاً دونما مواقف اجتماعية مسبقة من هذه المهنة أو تلك. لذلك نلاحظ مثلاً ان بعض المهن وبعض الأعمال اليدوية التي يحجم عن ممارستها الناس في هذه المنطقة أو في هذا القطر أو ذاك لا يقدم عليها السكان المحليون بل يعمل فيها الوافدون من مناطق أخرى أو من أقطار أخرى. يلاحظ مثلاً ان الفرد الذي لا يستطيع ممارسة مهنة ما أو عمل ما في منطقة بسبب

الضغط الاجتماعي عليه يكون مستعداً لممارسة تلك المهنة في مكان آخر خارج المنطقة أو القطر المعروف فيه. إن الوحدة بتوسيع الفرص أمام المواطنين للتنقل تساعد من دون شك على تحرر الفرد من قيود العادات والتقاليد وأنماط المعيشة السائدة في منطقته أو في قطره. إننا في الواقع بحاجة إلى تفكيك قوالب العادات والتقاليد القديمة التي ورثناها من عهد التخلّف والانحطاط وإلى إضعاف العصبيات الضيّقة التي تكبل الفرد وتضعف بالتالي ولاءه القومي. إننا بحاجة إلى إحلال الرابطة القومية محل جميع الروابط الأخرى الضيّقة التي تكوّنت خلال عهد الانحطاط، كالرابطة القبلية والمذهبية ورابطة المدينة أو منطقة السكن أو القطر، لتحل محلها الرابطة القومية التي يجب أن يتجه إليها كل ولاء الفرد وكل عواطفه وعصبيته.

ولتلافي سوء الفهم الذي كثيراً ما يحدث في وطننا العربي بين من يكتب ومن يقرأ، أود أن أوضح للسائل المستوضح الكريم ان القول بإحلال العصبية القومية محل جميع العصبيات الأخرى لا يعني انعدام الشعور بتلك الروابط، فذلك أمر غير ممكن، لأن الإنسان لا بد من أن تتكون عنده عاطفة ما نحو أي مجموع يشترك معه برابط مشترك، فمنطقة السكن والمدينة والمذهب والديانة والقطر والعشيرة هي دوائر مختلفة يتوفر فيها شيء مشترك بين مجموعة من الناس، لذلك لا بد من أن يتكوّن نحوها نوع من العاطفة والشعور الخاص. إن الشعور البشري لا يمكن إلغاؤه. فهذه المشاعر تبقى موجودة وقد تكون في بعض الحالات وضمن حدود معينة

ولأغراض معينة مفيدة لأنها مشاعر إنسانية طبيعية. المقصود هو أن تبقى هذه المشاعر ثانوية تقف عند حدود معيّنة، وتحفظ ضمن تلك الحدود. أما الرابطة أو العصبية القومية فهي العصبية التي لا يرقى إلى مستواها شيء، فهي التي تحسم الأمور في نهاية المطاف.

إن الوحدة العربية تتطلب أن تسعى دولة الوحدة إلى تسريع عملية الانصهار القومي عن طريق الاختلاط وانتقال المواطنين وزيادة حركتهم لأقصى ما هو ممكن بشتى وسائل التشجيع والترغيب، كتسهيل طرق المواصلات وجميع الوسائل المشجعة على الانتقال والحركة والاختلاط. في مرحلة الانحطاط والتخلّف زالت الدولة وحلّ محلّها حكم الأجنبي، لذلك انسحب ولاء المواطن إلى دوائر أضيق من الدولة، كدائرة العشيرة والمذهب والمدينة... إلخ. والآن يجب أن يرجع الولاء إلى الدولة القومية على حساب جميع الولاءات الأخرى لبناء شعب متماسك موحّد الرأي والعاطفة، تسوده عوامل التماثل، قوي الولاء للدولة. إن هذه العملية من أهم المهمات التي تقع على عاتق دولة الوحدة، فهو واجبها، وفي الوقت نفسه هو عامل تقويتها وحمايتها من الردّة والتفكك الداخلي بتأثير الولاءات الضيقة الأخرى التي تكوّنت في مرحلة الانحطاط، وعلى رأسها الولاء القطري والولاء المذهبي الطائفي.

— ١٦ —

قال السائل المستوضح الكريم: إن أسئلتي السابقة كانت تهتم

بمسألة الوحدة من حيث المزايا والفوائد، ولكنني أريد الآن أن أسأل في اتجاه آخر. قلت له: سل عمّا تريد أن تسأل. قال: **وكيف تتحقق الوحدة؟ هل تتحقق لمجرد اقتناع الأكثرية من المواطنين بها؟** قلت له: إن الجواب عن هذا السؤال جواب مركّب. إن قناعة الأكثرية من المواطنين بالوحدة أمر مهم، ففي نهاية المطاف الموضوع يعنيهم مباشرة، فهم أصحاب القضية، لذلك فقناعتهم ورضاهم واختيارهم هو المعوّل عليه في هذه القضية وفي كل قضية جوهرية أخرى، إذ ليس غير إرادة الناس ما يبرر أي شيء وكل شيء. ذلك هو المبدأ الذهبي البسيط: إرادة الناس. إن هذه الإرادة هي الأساس. بقي موضوع كيفية التعبير عن تلك الإرادة. إذا قلنا إن التعبير يجب أن يكون بالإجماع نكون قد نفّذنا المبدأ بحذافيره، إلا أننا نكون قد خلقنا مشكلة عملية، وهي ان الإجماع ربما لا يتوفر دائماً، فأقلية حتى لو كانت ضئيلة، إذا ما عارضت، فإنها تستطيع أن تمنع حصول أمر جوهري واتخاذ قرار حيوي بالنسبة إلى الأكثرية الساحقة. لذلك، ولسبب عملي، وليس لسبب مبدئي أصبح رأي الأكثرية يحل محل الإجماع في اتخاذ القرار. إن هذا الإجراء العملي هو الآن المعوّل عليه في العمل في الأنظمة السياسية الديمقراطية، ليس لأنه منسجم مع المبدأ، بل لأنه إجراء عملي يجعل النظام قابلاً للتطبيق. لذلك، وبناء على هذا الاعتبار نستطيع أن نقول إن اختيار الأكثرية للوحدة هو المعوّل عليه. إذن فتأييد أكثرية الأمة العربية للوحدة أمر مهم، وشرط يجب أن يتوفر. إنه على وجه

الأكيد متوفر وحاصل وموجود بغض النظر عن جميع الاعتبارات والظروف الموجودة الآن، فالوحدة مطلب منسجم مع المصالح الواضحة الحقيقية المشروعة للجميع. إن القول بذلك ليس من قبيل الادعاء، ولا من الفرضيات، بل هو حقيقة ساطعة في ظل الظروف الطبيعية للأمة العربية. ذلك تقديم للموضوع الذي يتضمنه الجواب. الوحدة تتطلب موافقة الرأي العام عليها، ولكن ذلك ليس كافياً، فمجرد وجود الرأي العام المؤيد للوحدة لا يجعل أمر تحقيقها مؤكداً؛ إنها تتطلب العمل الجاد المصمم لتحقيق الوحدة، أي النضال السياسي من أجل تحقيقها، والنضال السياسي يعني التنظيم مهما كان الشكل أو الصيغة التي يتخذها التنظيم. لذلك فالوحدة العربية لا تتحقق عفوياً بل بالتصميم، والرأي العام لا يصنع التغييرات الجذرية في المجتمع إذا لم يوجد التنظيم، أي الأداة لتحقيق ذلك.

أيها السائل المستوضح الكريم، لقد قيل وكتب عن هذا الموضوع ولعلك تعرف ذلك جيداً. تحقيق الوحدة يحتاج إلى الأداة، أي التنظيم، والحزب السياسي هو الصيغة العصرية المتقدمة للتنظيم والقطر القاعدة (كما هو شائع في الكتابات السياسية عن الموضوع) كشكل آخر من أشكال التنظيم. وقد تكون الأداة مركّبة يجتمع فيها الحزب والقطر القاعدة. ولا أظن أنني بحاجة إلى الإطالة في شرح هاتين الصيغتين، فهما معروفتان على ما أظن، عدا بعض الكلمات عن موضوع القطر القاعدة.

المعروف عن صيغة **القطر القاعدة** هو أنها صيغة اتبعت في

تحقيق الوحدة الألمانية والوحدة الايطالية. كما جرى الحديث عنها في ما يتعلق بمصر في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر. في أدبياتنا السياسية اضطراب فكري؛ فهناك من يقول إن ما صلح في بلدان أخرى لا يشترط أن يصلح لنا، وأن الظروف قد تغيرت، وهناك من يقول إن جعل مصر هي القطر القاعدة في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر أمر لم ينجح، أو أنه كان خطأً بسبب عدم استعداد مصر لهذا الدور. إن جميع هذه المناقشات لا تعدو أن تكون اجتهادات. المهم في نظري هو أن نأخذ بما يلائم أوضاعنا، بغض النظر عن أي شيء آخر، سواء أكان جديداً أو غير جديد، استعمل في الماضي أو لم يستعمل. وإذا ما أخذنا الموضوع على هذا الأساس المتجرد فإنني أرى أن صيغة القطر القاعدة صيغة من الصيغ الصحيحة. بقي أن أقول إن تعبير القطر القاعدة لا يشترط أن يكون متماثلاً مع الصيغة التي تمت بها الوحدة الألمانية أو الايطالية. ان حركة الوحدة لا بد من أن تكون لها نقطة بداية، ولا بد من أن تكون لها إمكانات مادية، والأقطار العربية متفاوتة في ذلك، لذلك فاضطلاع قطر أو أكثر بمهمة أخذ المسؤولية قد يكون حالة واقعية تفرض نفسها أكثر منها نظرية مسبقة، إذ ليس من المنتظر أن نتصور ان تهبّ كل الأقطار العربية مرة واحدة للعمل من أجل الوحدة في الوقت نفسه.

وعلى قاعدة الشيء بالشيء يذكر، قال السائل المستوضح

الكريم، وبعد هذا الحديث عن كيفية تحقيق الوحدة، لا بد من أن **أسأل عن كيفية المحافظة عن الوحدة؟** فأجبته: ان ذلك منتظر منطقياً.

إنني أيها السائل المستوضح الكريم لا أجد وسيلة للمحافظة على وضع الوحدة بعد تحقيقها أفضل من ابراز فضائلها. والمقصود بذلك هو أن نقوم بكل ما يقتضيه اظهار محاسنها عملياً في تحقيق القوة والاستقرار والتقدم للجمهور. وأرجو ألاّ تتصور ان ذلك أمر سهل، بل انه يتضمن كل عملية البناء الجديد في مختلف نواحي الحياة بحيث يظهر للجمهور، وبصورة ملموسة ان الوحدة قد حققت فعلاً القوة والاستقرار والتقدم للأمة عموماً ولكل مواطن. إن عملية البناء هذه نشاط واسع يحتاج أن نجنّد له كل الإمكانات المادية والبشرية، وأن نشحذ له كل ما بوسعنا من حماس قومي وقيم اجتماعية، بحيث تتصاعد عملية البناء بوتائر غير اعتيادية، وبأساليب مبتكرة غير تقليدية، بحيث يصبح ملموساً لكل مواطن أن الوضع الجديد هو أفضل من الوضع القديم. أظن أن ذلك أمر مفهوم ولا يحتاج إلى مزيد من التفاصيل. إلا أنني مع ذلك أود ايراد مسألة أعدها مهمة، ربما لا تكون مفهومة عند الجميع، ألا وهي أهمية الممارسة العملية.

اعلم أيها السائل المستوضح الكريم ان المعرفة تعبير ليس بالبساطة التي قد يتصورها بعض الناس، فبعضنا يتصور المعرفة على أنها العلم بشيء ما، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة، فهناك فرق

كبير بين هذا الفهم والمعرفة التي تغيّر الحياة. ان العلم بالشيء والاستيعاب الذهني هو نقطة البداية البسيطة والخطوة الأولى في عملية تكوين المعرفة. المعرفة الحقيقية هي التي يستوعبها الذهن وتحصل فيها القناعة وتتشربها شخصية الإنسان وتدب في أعماق النفس البشرية لتهيمن عليها لتكوين تلك القناعة العميقة والالتحام الصميمي مع الذات، وعلى درجة من القوة والنفاذ، بحيث تؤثر في السلوك، فيندفع الإنسان جراءها إلى العمل والحركة والنشاط، ويتكيف سلوكه بما ينسجم مع تلك المعرفة. وبذلك تكون المعرفة الحقيقية قد حصلت.

إن هذا النوع من المعرفة هو عملية تفاعل معقّدة مستمرة في النفس البشرية وليس الاطلاع الذهني العابر على معلومة ما. لذلك فإن الثقافة، كما ورد الحديث عنها في مكان آخر من هذا الحوار، هي التي يقترن فيها الاستيعاب الذهني بالتأثير في السلوك، فهي الثقافة التي يتأثر بها الذهن والعمل معاً.

فإذا كان تكوين المعرفة بالصورة التي ذكرناها، عندها تكون عملية حماية الوحدة بعد قيامها معتمدة على حصول القناعة بها، أي حصول المعرفة الحقيقية بها من قبل الجماهير. إن الجماهير تؤيد الوحدة الآن وترغب في أن تراها تتحقق، ولكن الجماهير لا تعرف الوحدة على حقيقتها، أي أنها لا تعرف كيف تكون الوحدة في التطبيق؟ ما نوع المجتمع، وماذا يحصل في كل ناحية من نواحي الحياة العامة والخاصة في ظل الوحدة؟

إننا الآن نقول إن الوحدة ستحقق القوة والاستقرار والتقدم، ولكن القول بذلك شيء ومشاهدة ذلك يتحقق عملياً في ظل دولة الوحدة شيء آخر تماماً. إن ذلك لا يصح على موضوع الوحدة فحسب بل يصح على كل شيء آخر تقريباً.

إن هذا النوع من المعرفة الصميمية التي تدبّ في نفس المواطن فتأخذ عليه شعوره وتمسّ أعماق نفسه مكونة قناعة راسخة وتأييداً قوياً في الضمير والوجدان لا تحصل إلا بالممارسة، والممارسة تعني أن يعيش في المجتمع في ظل دولة الوحدة.

إن البحث النظري ومخاطبة العقل، وإن كان جزءاً من هذه العملية، إلا أنه لا يكفي وحده بل لا بد من الممارسة. إن الممارسة العملية هي التي تكشف صفات الوضع الجديد ومعالمه بكل تفاصيله. وحذار أيها السائل المستوضح الكريم أن تقع في الخطأ فتعدّ أن تلك التفاصيل والمعالم والصفات والحالات كان من الممكن التنبؤ بها ومعرفتها سلفاً واستنباطها من المعرفة النظرية، فذلك مستحيل وضد طبيعة الأشياء. فالذهن البشري مهما كان ملمّاً، ومهما بلغ من الاهتمام والإحاطة يبقى أداة قاصرة عن فهم حقيقة الحياة قبل أن تحصل عملياً، فهو يبقى في حدود العموميات، يختصر التفاصيل ويستعيض عنها بالرموز والاتجاهات العامة. إن الحياة الواقعية نفسها لا تسير وفق قانون رياضي يستطيع ضبط تفاصيلها بل فيها من التنوع والتضارب والاختلاف ما يجعل التنبؤ بها أمراً بعيد المنال. لذلك تجدنا في حياتنا العملية، وفي كل شيء تقريباً وبعد أن

نستكمل المعرفة النظرية عن الشيء نتبع ذلك بتجربته عملياً من أجل استكشاف تلك التفاصيل وتلك الحالات التي لا تستطيع المعرفة النظرية الإحاطة بها. وعموماً ترانا نجد فرقاً بين المعرفة النظرية المسبقة وما يتمخض عنه وضع الأمر موضع التطبيق العملي. وبعبارة أخرى، إننا الآن مهما اجتهدنا في رسم صورة مجتمع الوحدة فإننا لن نستطيع ذلك بالضبط، بل إن تلك الصورة لن تتضح تماماً إلا من خلال الممارسة، أي بعد أن تتحقق.

إنني في مكان آخر من هذا الحوار ذكرت أن الإنسان في المجتمع يميل إلى تكوين القوالب، ألا وهي العادات، فهناك قوالب في السلوك هي العادات المتعارف عليها، وهناك قوالب في التفكير أيضاً. وتعمل تلك القوالب الفكرية والسلوكية على ملاءمة حياته مع قواعد المجتمع ومتطلباته وذلك ما يجعل حياته ممكنة ومنسجمة مع هدف الاستمرار والبقاء. إنها عملية التلاؤم المستمرة من قبل الفرد إزاء المحيط الذي يعيش فيه. ووضع التجزئة قد كوّن قوالبه عند الفرد؛ وفي وضع الوحدة يحتاج الفرد إلى تكوين قوالب جديدة تتلاءم مع الوضع الجديد.

إن حماية الوحدة واستمرارها يتطلب أن يكوّن المواطن قوالب جديدة متلائمة مع وضع الوحدة وليس متناقضاً معها، فبمقدار ما نستطيع مساعدة الفرد على تغيير القوالب القديمة المتكونة في ظل وضع التجزئة إلى قوالب جديدة متلائمة مع وضع الوحدة نكون قد دعمنا الوحدة وأنشأنا القاعدة القوية لبقائها واستمرارها.

يجب أن ينشأ تلاؤم صميمي قوي بين الفرد المواطن ووضع الوحدة عن طريق تكوين عادات في التفكير والسلوك متلائمة معها، أي ان يعتاد عليها بتعبير مختصر.

إن عملية التلاؤم هذه، وتكوين القوالب الجديدة في التفكير والسلوك تستطيع أن تؤدي الدولة دوراً في تكوينها بشتى الوسائل، إلا أنها مع كل ذلك تحتاج إلى الوقت. فالممارسة العملية هذا شأنها تحتاج إلى أن يأخذ المجتمع مداه فيها، فيرى ويلمس ويشهد عملياً معنى الوضع الجديد وما يتمخض عنه من نتائج وما يؤدي إليه من حالات في مختلف الشؤون العامة والخاصة. والفرد من أجل أن يتعلم وأن يتلاءم وأن يفهم فهماً صحيحاً عميقاً وضع الوحدة يحتاج إلى الوقت. ومن أجل أن أبسط الموضوع أيّها السائل المستوضح الكريم، سأورد لك مثالاً عملياً محدوداً. إنك عندما تُقبل على تعلّم قيادة السيارة يشرح لك المدرّب ذلك، فيضع أمامك قواعد سير السيارة فتجد أن تلك القواعد غاية في البساطة تتعلق بعجلة القيادة والوقود والكابح وجهاز التغيير من الأول إلى الثاني إلى الثالث، وهكذا. فقل لي هل تستطيع أن تقود السيارة بأمان وسلامة بمجرد معرفتك بتلك العمليات، كما يشرحها المدرّب؟ الجواب قطعاً كلا؛ فإنك تحتاج إلى ممارسة تلك العمليات على الرغم من أنك تعرفها نظرياً معرفة كاملة. إنك ستحتاج إلى وقت تقضيه في الممارسة العملية لتستطيع قيادة السيارة بأمان وسلامة. إنك تعرف نظرياً ان الضغط على جهاز الوقود يزيد من السرعة، ولكنك في

البداية لا تعرف بالضبط، أو غير معتاد أن تضغط بما يكفي من الوقود للسرعة التي ترغب فيها، فتراك إما تضغط أكثر مما يجب فتندفع السيارة بسرعة أكبر مما ترغب فيه، أو تضغط أقل مما يجب فيكون سيرها أبطأ مما يجب. ان رفع قدمك عن عتلة التبديل لا يأتي في البداية منسقاً تماماً مع عتلة التبديل من الأول إلى الثاني. إنك تعرف نظرياً ان تدوير عجلة القيادة إلى اليمين يدير السيارة يميناً، ولكنك في البداية لا تعرف المقدار المضبوط لتدوير عجلة القيادة لتميل السيارة بالمقدار الذي تريده إلى اليمين إلا بمرور وقت في الممارسة، فأنت في البداية إما أن تبالغ في تدوير عجلة القيادة أو لا تديرها بما يكفي، وهكذا. إنك لا تعرف القيادة معرفة صحيحة إلا بعد الممارسة العملية حيث تقترن المعرفة النظرية بالاعتياد العملي. وهذا مثال مصغر على دور الممارسة العملية في تكوين المعرفة وتكوين الاعتياد على وضع جديد.

لذلك ففي بداية قيام الوحدة، علينا أن ننتظر حالة من عدم التلاؤم مع الوضع الجديد، فمسننات الفرد لم تتلاءم بعد مع مسننات الوضع الجديد، الأمر الذي قد ينتج منه بعض الاحتكاك والاضطراب، إلى أن يمر بعض الوقت ويتكون التلاؤم وتتناسق المسننات وتصبح آلة المجتمع الجديد تسير بسلامة وانتظام.

إنني بالطبع لا أستطيع أن أقول شيئاً عن طول تلك المدة زمنياً فهو أمر غير ممكن، إلا أنني أستطيع أن أذكر شيئين مهمين: الأول هو

ان للدولة دوراً مهماً في تسريع عملية التلاؤم هذه عن طريق البناء الوطني، كما مرّ ذكره بما في ذلك عملية التشريع لتحديث النظام القانوني ليتلاءم مع وضع الوحدة، وبما يساعد عملية التلاؤم من جميع الوجوه. الأمر المهم الآخر هو أن تعمل الدولة كل شيء من أجل توفير تلك الفرصة الزمنية اللازمة لحصول التلاؤم والانسجام، ويعني ذلك ان الوحدة عندما تقوم يجب أن تُحمى من الهزّات، فتآمر الأعداء وارد عليها، مهما كان الثمن. وبذلك يكتسب موضوع الأمن أهمية خاصة في هذه المرحلة، فأعداء الوحدة يعرفون أن أفضل مرحلة للعمل ضد الوحدة هو هذه المرحلة التي لم يتكوّن فيها التلاؤم بعد. ان موضوع أمن الوحدة هو القضية المركزية للدولة في هذه المرحلة، وعليها أن تسخّر له كل الإمكانات، وأن تتبع في سبيله كل الوسائل الحديثة. ولا يفوتني في هذا المجال أن أؤكد أن قيادة الدولة يجب أن تكون مستعدة لتحمّل المسؤولية بكاملها ومستعدة لكل احتمال، وأن يكون أمر المحافظة على الوحدة هدفاً مركزياً لا يعلو عليه أيّ اعتبار آخر، وأن تكون مستعدة لكل وسيلة بما في ذلك استخدام القوة بأي نطاق تتطلبه الحالة من أجل المحافظة عليها. إن المجتمع يجب أن يعطي الفرصة اللازمة لحصول الممارسة العملية لحياة الوحدة وتكوين الملاءمة والتكيّف اللازمين للوضع الجديد. هكذا تكون عملية حماية الوحدة بعد أن تقوم. وحذارِ أيُّها السائل المستوضح الكريم أن تقع في الخطأ الذي يقول به بعضهم، إن الوحدة يجب أن تؤجّل لأن الرأي العام لم ينضج بما فيه الكفاية

ليحميها ويمارسها على الوجه الصحيح، لذلك علينا أن ننتظر حتى يحصل ذلك النضج وبعدها نحقق الوحدة. إن هذا القول ينطوي على خطأ كبير يتعلق بكيفية حصول النضج، أي تكوين المعرفة الحقيقية. فالنضج لا يتحقق إلا بالممارسة العملية لحياة الوحدة، إذ بالممارسة يتكوّن الوعي وتتكوّن المعرفة وينمو النضج فيحصل التلاؤم بين عادات الفرد الذهنية والعملية وبين متطلبات وضع الوحدة. إن النضج والوعي لا يتكوّنان إطلاقاً من دون ممارسة حياة الوحدة، فالنضج والوعي ليسا معرفة ذهنية مجردة تتكون خارج نطاق الممارسة بل في صميم الممارسة ذاتها.

— ١٧ —

قال السائل المستوضح الكريم مقاطعاً: لديّ سؤال جديد له علاقة بالموضوع، وإن لم يكن متسلسلاً مع ما نحن فيه. قلت: لا بأس. قال: إنني أعرف أن أسئلتي وإن كانت مستوحاة من الموضوع نفسه إلا أنها تأتي بشكل متداع يوحي أحدها بالآخر، وهكذا. قلت: لا داعي للاعتذار، فمهمتي هي أن أوضح ما استطعت من التوضيح. قال السائل المستوضح الكريم: **لماذا أنت قومي؟** قالها هكذا، وبدا عليه بعض الحرج، لأنه سؤال مباشر، ولا يخلو من بعض الغرابة. وأنا بدوري قفز إلى ذهني شيء مباشر أيضاً، فقلت له، وعلى الفور: وماذا أستطيع أن أكون غير ذلك؟ هل أكون قطرياً؟ أو هل أكون عالمياً؟ وهل أمامي غير أن أكون قومياً؟ قلت ذلك

بصيغة أسئلة إلا أنني أعرف أنها ليست الجواب الكافي عن سؤاله. قلت له بعد أن فكرت للحظات: أمامي خياران آخران، هما إما أن أكون قطرياً أو أن أكون عالمياً. ولنأخذ أولاً الخيار القطري، وهو خيار موجود وملموس الآن ونعيش في ظله. هل أستطيع فعلاً أن أكون قطرياً وأطمح في الوقت نفسه أن يكون القطر الذي أعيش فيه شيئاً مهماً في هذا العالم؟ كيف أستطيع أن أحقق تنمية حقيقية في حدود أي من الأقطار العربية الحالية حيث الموارد محدودة وعوامل الإنتاج غير متكاملة والسوق ضيقة والظروف السياسية غير مستقرة؟ هل يستطيع أي قطر عربي أن يجابه الأخطار الداخلية والخارجية المحيطة به لا سيما خطر الصهيونية التي تعدّ الأقطار العربية كلها والأمة العربية كلّها عدوها الذي يجب أن تقضي عليه سواء رغبت تلك الأقطار في ذلك أم لم ترغب؟ الأقطار العربية هذه قد جرّبت وضع الانفصال في ظل الدولة القطرية، فماذا حقّقت؟ هل حقّقت غير الخيبة؟ وأهم النواحي التي حدث فيها ذلك هو الإخفاق في التنمية والأمن. وهل هناك ما هو أهم من التنمية والأمن في حياة الناس ومستقبلهم؟ هل تستطيع الدولة القطرية هذه أن تؤدي دوراً حضارياً إنسانياً في عالم اليوم، عالم التكتلات الكبيرة والدول العملاقة؟ أو أننا لا نطمح في أن يكون لنا دور حضاري في التاريخ؟ لا أظنك أيها السائل المستوضح الكريم تريد لنا ذلك، فالأمة العربية كانت دوماً ذات دور حضاري إنساني، فقد بلغت الأديان السماوية وتحملت مسؤولية نشرها في العالم وقدمت للعالم حضارات مهمة

في التاريخ. إننا لا نستطيع أن نقدم للعالم إسهاماً مهماً في مجال التحضر والتقدم الإنساني ونحن على هذا الوضع من التجزئة والضعف والتخلف والتعرض للأخطار.

بقي أمامنا الخيار الآخر هو أن نكون عالميين، أي أن تكون رقعة اهتمامنا العالم، لا القطر، ولا الوطن العربي. ولكنني أريد هنا أن أسأل: ما معنى العالمية في هذا الصدد؟ إنني لا أعرف معناها بالضبط. هل هو النضال لتحقيق حكومة عالمية، أي مجتمع عالمي على غرار التفكير الماركسي؟ ان الماركسية الآن في غروب، وهي في أوج قوتها لم تستطع تحقيق مجتمع عالمي، إذ بقيت الدول الاشتراكية على حدودها القديمة، وأقصى ما استطاعت أن تفعله هو تكوين روابط وأحلاف على غرار ما هو موجود في بقية أنحاء العالم غير الشيوعي، وقد زالت تلك الروابط والأحلاف مع الانهيار الأخير الذي لم يبق حتى الدولة التي كانت موحّدة في السابق وهي الاتحاد السوفياتي.

هل نكون عالميين بمعنى بعض المتعصبين الدينيين الذين يقولون بوحدة إسلامية؟ لا أظن أن ذلك أمر واقعي، إذ لا يوجد أي دليل على إمكانية حدوثه، لا الآن، ولا في المستقبل. هل العالمية المقصودة هي ما يقول به بعض الكتّاب الحالمين المنفردين الذين يدعون إلى تطوير هيئة الأمم المتحدة إلى نوع من الحكومة العالمية؟ الواضح الأكيد هو أن هذه الدعوات في أحسن حالاتها وحتى عندما تكون صادرة عن حسن نية، لا تعدو أن تكون طموحات مصدرها الخيال، وهي أبعد ما تكون عن الواقع، ولا يدعمها تأييد ذو شأن في عالم

اليوم. كما أن فائدتها غير مضمونة في أحسن الأحوال.

إذن، فهل عندي خيار آخر؟ لماذا لا أكون قومياً عربياً والأمة العربية أمة عريقة في التاريخ، حققت نهضات كثيرة وبلّغت رسالات مهمة للبشرية، وهي تسكن وطناً يمتد من الخليج إلى المحيط، فيه من الثروات والإمكانات المادية والبشرية ما نستطيع بواسطتها بناء حياة آمنة مطمئنة سعيدة مرفهة للجميع، وتعيش فيه أمة توفرت فيها من الروابط المشتركة ما يعد من أقوى الروابط التي تعرفها الأمم، تتكلم لغة عذبة غنية جميلة، دوّن فيها من التراث الأدبي والعلمي والفني ما يدعو إلى كل الاعتزاز والفخر ويبعث الرضى في النفس؟ وهي أمة عُرفت بحميد الصفات وأحسن السجايا الخلقية، تلك الصفات التي جعلت الخالق الجليل يختارها لتبليغ دياناته الكبرى للبشرية. فهل يعني شيئاً إذا قلت للعالم: أنا من هذا القطر أو ذاك؟ وهل يعني شيئاً إذا قلت: أنا من العالم؟ إنه يعني شيئاً هاماً من دون شك عندما أقول: أنا عربي. فمن ذا الذي لا يعرف ذلك؟ العرب يستطيعون أن يعملوا شيئاً للعالم، ولكن لا يستطيع أي قطر أن يعمل ذلك الشيء. كما لا أستطيع أن أقول: أنا من العالم، لأن العالم لا يعمل كوحدة واحدة.

— ١٨ —

أيّها السائل المستوضح الكريم: هناك نقص كبير في الدولة القطرية، هو عجزها عن تحقيق رسالة، فهي من الضعف والصغر

وضعف الإمكانات المادية والمعنوية ما يجعلها غير قادرة على أن يكون لها دور في شؤون العالم وحمل رسالة مفيدة للبشرية، بعكس دولة الوحدة، فهي بحجمها وقوتها وإمكاناتها المادية، والأهم من كل ذلك بإمكاناتها الروحية، مؤهلة لحمل الرسالة والإسهام في حضارة العالم وتقديم شيء نافع للبشرية جمعاء، وبذلك تكتسب أهمية ومنزلة تنعكس على الفرد المواطن في تفكيره وسلوكه. إنها، أيها السائل المستوضح الكريم، تدرك ان دولة الوحدة تستند إلى تاريخ الأمة العربية، ذلك التاريخ الموغل في القدم، الغني بالانجازات، المكلّل بالبطولات، فهو تاريخ مجيد عزيز يدعو إلى الاعتزاز، ويعترف به العالم، وتعرفه البشرية. في حين أن الدولة القطرية ليس لها شيء من ذلك. وإن كان لها شيء فهو جزء مقتطع من تاريخ الأمة العربية. إن هذا الأمر غاية في الأهمية لأنه يتعلق بدور حضاري ورسالة سامية تضطلع بها أمة عظيمة تستند إلى دولة موحّدة، في حين أن الدولة القطرية مهما حاولت أن يكون لها دور، ومهما اصطنعت مهمة الرسالة تبقى عاجزة عن ذلك.

فمهما كبر شأن الدولة القطرية مساحةً أو سكاناً أو موارد مالية تبقى من دون مؤهلات حمل الرسالة، وقاصرة عن أن يكون لها دور فعال في شؤون عالم اليوم. وقد حاولت الدولة القطرية وتبقى تحاول اصطناع هذه الصفة إلا أن جهودها كانت دوماً تسير في طريق مسدود. وما محاولاتها إلا دليل على أهمية هذا الجانب. فالدولة القطرية تشعر بالحاجة إليها في أوقات الأزمات كوسيلة

لتقوية العزيمة العامة ورفع المعنويات وتقوية الروح للمجابهة، أما في الأوقات الاعتيادية فتحتاج إليها من أجل تسريع البناء وتدوير عجلة التنمية وزيادة الحماس الوطني من أجل البناء والتقدم. وفي كلا الحالين كانت خائبة في مسعاها بسبب فقدان المؤهلات وقصور المتطلبات، فحمل الرسالة أمر لا يتوفر بمجرد الرغبة فيه أو الحديث عنه، بل لا بد له من مؤهلات ومعطيات، وهي قطعاً غير متوفرة في الدولة القطرية. إن مسألة حمل الرسالة وتأدية الدور الحضاري في شؤون العالم من قِبَل الأمة ليست مسألة ثانوية بل جوهرية. ويمكننا ايضاح تلك الأهمية عن طريق ضرب مثال يتعلق بالأفراد، فهناك فرد مؤهل وطموح لأن يكون له شأن في الحياة العامة، وأن يؤدي دوراً في تقدم المجتمع، ويدخل اسمه في تاريخ بلاده في هذه الناحية أو تلك، كأن تكون علمية أو أدبية أو اجتماعية أو سياسية، فيكون بذلك في عداد النخبة القلّة ذات الدور المتميز في حياة بلاده ونهضتها. إلى جانب ذلك، هناك الفرد الذي لا يملك تلك المؤهلات، وليس لديه الطموح ولا الاستعداد لذلك، فيعيش بشكل اعتيادي، يأكل ويشرب ويشيخ ويموت على هامش حياة المجتمع من دون أن يقدّم شيئاً مهماً لمجتمعه وأمته. إنه إنسان عادي وليس إنسان رسالة. إن هذا التميز موجود وملحوظ على مستوى الأفراد، ويصح كذلك على مستوى الأمم والدول. إن الدولة القطرية هي دولة عادية، **والدولة القومية هي دولة الرسالة.**

ألا تعرف أيها السائل المستوضح الكريم الفرق بين شعور الفرد

الاعتيادي وشعور الفرد صاحب الرسالة؟ ان الفرق في الشعور بالسعادة والأهمية والجدارة كبير جداً بين الحالتين. ان السعادة المتأتية عن الخلق والإبداع، والصادرة عن شعور الأهمية والثقة بالنفس، والنابعة من تقديم شيء مهم ومفيد للآخرين، والشعور بالدور الأخلاقي والإسهام الإنساني، إنما هي سعادة لا يعرفها الفرد الاعتيادي الذي تقتصر حياته على ممارسة المهمات الجسمية اللازمة لإدامة الحياة من طعام وشراب ويقظة ومنام. أما السعادة المعنوية فتتعلق بالشعور بالذات والغوص إلى أعماق النفس البشرية والإحاطة بدواخل الذات الداخلية للإنسان مقابل شعور الراحة السطحي المتأتي عن إشباع الحاجيات الجسمية المتعلقة بالغرائز عند الأكل والشرب مثلاً. إن الفرد الاعتيادي محروم من تلك السعادة العميقة الناتجة من إرضاء الذات الداخلية عندما تتحقق إمكانات الإنسان ومؤهلاته في نطاق مثالي أخلاقي يتعلق بإسعاد الآخرين وتقديم إسهام جديد مؤثر في حياتهم مما يدخل في عداد الرسالة السامية. وقياساً على ذلك وبالمنطق نفسه، تكون الدول والأمم بعضها اعتيادياً وبعضها ذا رسالة، والدولة الاعتيادية محرومة من تلك السعادة وذلك الشعور الغامر العميق بالأهمية والدور المليء بالرضى وراحة الضمير والثقة بالنفس والاقتراب من الإنسانية الصحيحة والمثل العليا. في حين ان الدولة القومية دولة الوحدة العربية تتمتع بهذه الصفة وتتصف بهذه الميزة.

إن نشوء الدولة من الأساس كان بدافع مثالي يتعلق بإحلال

السلام والمحافظة على حقوق الأفراد وحماية حياتهم وتحقيق التقدم فيها في جميع الوجوه، لذلك كانت الدولة بمختلف مراحل تطورها تمثل، بشكل أو بآخر، التجسيد العملي للمثل الأعلى الذي تطمح إليه الأمة. إن هذه الصفة المثالية للدولة تتضح في أغلب نظريات نشوء الدولة من العقد الاجتماعي بمختلف اجتهاداته إلى المذاهب الدينية والدولة المنبثقة عنها، إلى المثالية الألمانية، إلى مبدأ أعظم السعادة لأكبر عدد من الناس، إلى مثال السلطة في الدولة الاشتراكية. الدولة تنظيم ذو هدف مثالي، بغضّ النظر عن ماهية ذلك المثل الأعلى، وليست مجرد تنظيم مجرد عن المثل العليا. ولكن ذلك لا يعني أن الدولة، أيّ دولة، بإمكانها أن تكون كذلك، فذلك يعتمد على المؤهلات والمعطيات، فأنت لا تستطيع أن تصنع شيئاً من لا شيء، كما يقال، فأنت قد تطمح وقد ترغب في شيء، إلا أنك ربما لا تستطيع تحقيق ذلك الطموح وبلوغ تلك الرغبة. الدولة القطرية قد تطمح وقد ترغب، إلا أنها لا تستطيع، في حين أن الدولة القومية، دولة الوحدة تطمح وترغب، وهي قادرة على تحقيق ذلك الطموح وبلوغ تلك الرغبة. إن الأمة العربية في ظل الوحدة الشاملة تستطيع أن تكون حاملة رسالة وأن تؤدي دوراً مثالياً في شؤون العالم، ولكن عُمان أو تونس أو موريتانيا لا تستطيع ذلك. وكذلك حال الدولة القطرية في عموم الوطن العربي.

أيّها السائل المستوضح الكريم، إن الله قد خلق الكائنات الحية، وأعطاها القدرة على أن تقوم بالفعاليات التي تديم حياتها، ألا

وهي إشباع الحاجات التشريحية الجسمانية من أكل وشرب، أما الإنسان فقد وضع فيه، بالإضافة إلى ذلك شيئاً آخر هو ما يدعى بالروح، وهو العنصر المثالي في الإنسان الذي ينفرد به عن بقية المخلوقات الحيّة. وهذا الجانب هو العنصر الذي يستطيع بواسطته أن يكون صاحب رسالة، وأن يؤدي دوراً، ولكن ذلك لا يعني أن كل فرد يستطيع أن يكون كذلك، فالروح أو الاستعداد للخير في صراع مع قوى مضادة في داخل الإنسان، ومدى تفوق الإنسان وتقدمه في مجال الرسالة والدور المتميز يعتمد على العلاقة والصراع بين ذلك الاستعداد والقوى المضادة له. لذلك كان هنالك الأنبياء، وكان هنالك من هم دونهم بدرجة أو بدرجتين أو أدنى نزولاً إلى أسفل السلم حيث يوجد من يتجمع فيهم الشر في أقوى حالاته.

واعلم أيّها السائل المستوضح الكريم ان مسألة الرسالة وتأدية الدور الإنساني ليست معنوية غير ملموسة بل إنها شعور وممارسة ونشاط لا يلبث أن ينعكس على الفرد المواطن نفسه، فيجعل تفكيره وسلوكه ونشاطه وحياته وشعوره الداخلي في وضع مختلف عن الفرد الذي يعيش في دولة لا رسالة لها ولا دور تؤديه للإنسانية، بل تعيش على الهامش وتقتصر جهودها على العيش الرتيب من يوم إلى يوم. إن الفرد في الحالة الأولى أكثر تفاؤلاً، وأكثر سعادة، وأكثر نشاطاً، وأصفى نفساً، وأقرب إلى المثل العليا، وأقوم أخلاقاً، وأقوى ثقة بنفسه، وأكثر جرأة في خوض الحياة ومجابهة الصعوبات، وأغنى إنتاجاً. وبكلمات موجزة انه يعيش حياة أغنى وأعمق من حياة الفرد

في الأمة التي تعيش على الهامش في حياة العالم. إن الأمة صاحبة الرسالة ذات روح قوية تعيش حياة مليئة بالإنجازات يسودها الشعور بالقوة والأهمية والقدرة والمثالية، فينعكس ذلك على الفرد بالمعاني نفسها، وبالاتجاه ذاته، فيكون أكثر سعادة وأقوى شخصية. أليس ذلك شيئاً مهماً في حياة الأمم؟ نعم إنه فرق كبير بين أن تشعر الأمة ومعها مواطنها بالأهمية وبين أن تشعر الأمة ومعها مواطنها بعدم الأهمية. إن الشعور بعدم الأهمية قد يدفع أحياناً صاحبه إلى الانتحار. واعلم أيها السائل المستوضح الكريم ان عملية التنمية والتقدم عموماً تحتاج إلى مثل أعلى وإلى حافز عند الفرد، والحافز هذا هو الشعور بالأهمية وبوجود دافع يتعلق بالأمة ومستقبلها. إن حالات التنمية في العالم كانت دوماً مقرونة بوجود دافع عام وهاجس عند الأفراد يدفعهم نحو العلى والتقدم. لذلك نجد أن الدولة التي تمر بعملية تنمية ونهضة تحاول دوماً عن طريق الإعلام ووسائل التعبئة العامة أن تخلق هذا الدافع، وأن توجد مثلاً أعلى تضعه أمام الجمهور لشحذ همته وتقوية عزائمه وحثّ نشاطه واندفاعه لمزيد من العمل والاجتهاد والتحمل. فلماذا يكون ذلك؟ السبب هو أن التقدم يحتاج إلى مثل أعلى يحرك الاندفاع والحماس عند الفرد. إن الدولة القطرية مهما حاولت فهي لا تستطيع خلق ذلك المثل الأعلى، بعكس الدولة القومية، لأنها تستند إلى تاريخ مجيد وحضارة قوية. ان الشعور بالرسالة في هذا المجال يكون هو نفسه حافزاً إلى التقدم ومحرّكاً للنهضة.

القومية ـ أيّها السائل المستوضح الكريم ـ **شعور داخلي بالانتماء**، وقد كان ظهور المجتمع أكبر تطور حصل في تاريخ الإنسان، والأمة هي الصيغة العليا المتقدمة لشكل المجتمع، لذلك كان الشعور بالانتماء إلى الأمة هو قمة ذلك التطور والرقي الاجتماعي. واعلم أيّها السائل المستوضح الكريم ان الشعور بالانتماء القومي لأمة عظيمة هو نقطة البداية في التحرر من القيود، سواء أكانت قيود مرحلة التخلف أم القيود الخارجية المتأتية من الاستعمار بأشكاله كافة. فالشعور بالانتماء إلى أمة عظيمة هو السر في تكوين الثقة بالنفس والقدرة على الفاعلية التي من دونها لا يستطيع الإنسان أن يحقق أي تقدم بل يقتصر نشاطه على ممارسة الفعاليات المادية التي يقوم بها كل كائن حي. والإنسان يمارس نوعين من الفعاليات: الأولى هي الاعتيادية التي يشترك بها مع باقي المخلوقات الحية من طعام وشراب وتلبية حاجات الجسم، والثانية هي التي ينفرد بها عن باقي المخلوقات الحية، ألا وهي فعاليات الخلق والإبداع وما يصطلح على تسميته بإنتاج الحضارة والتقدم. ويحصل ذلك بفعل تلك القوة الكامنة فيه التي ندعوها الروح. إن الروح هي الشعور العميق الداخلي بوجود الذات، أي وجود كائن له شخصية مستقلة، وقادر بفعل تلك القوة الداخلية أن يسيطر على ما حوله في الطبيعة، وأن يؤثر في المجتمع الذي يعيش فيه بإرادة ذاتية مستقلة. ومن غير أن نذهب بعيداً في ايضاح موضوع الروح، يكفي أن نقول إن كل

واحد منا يشعر أن في داخله إنساناً مستقل الإرادة يحاور نفسه وتحصل في داخله عملية التفكير والتأمل وتكوين الأفكار، ومن ثم الاندفاع إلى تنفيذها بكل ما ينطوي عليه ذلك من رغبات وآمال ومواقف. إن هذه الذات المستقلة من أجل أن تكون فاعلة تحتاج إلى حافز ومحرّك، وهذا الحافز والمحرّك هو الشعور القومي، أي الشعور بالذات القومية. إن النهضة وإنتاج الحضارة ظواهر لا تحصل من دون دافع ومحرك، وقد كان الإسلام بما أوجده في النفس العربية من شعور بالرسالة، أي شعور بالذات السامية المشدودة إلى المثل العليا، كان نقطة البداية للنهوض وبناء الحضارة المادية والروحية التي حصلت في ما بعد.

واليوم لا بد للنهضة العربية الحديثة من محرّك، وليس غير الشعور القومي بالرسالة ما يحقق ذلك. ان الشعور القومي بالرسالة ليس أمراً مصطنعاً وليس عاملاً غريباً على النفس، بل هو تحريك للجانب المثالي في الإنسان الموجود فيه إلى جانب الغريزة بكل ما فيها من أنانية وميل إلى الشر. وميول الخير هي في صراع مستديم مع ميول الشر في الإنسان. ان الشعور القومي بالرسالة يخلق الأمل والثقة بالنفس ويقوّي بالتالي ميول الخير فيخرج الإنسان إلى المجتمع مبشّراً وعاملاً من أجل مثل عليا وأهداف سامية تتجاوز الواقع القاصر المسخوط عليه إلى ما هو أعلى في سلم الرقي. فالقومية هي الشعور بالانتماء والشعور بالمسؤولية التاريخية والرغبة في تغيير المجتمع والتاريخ نحو الأفضل وتلك هي الرسالة السامية.

لذلك كانت القومية أيّها السائل المستوضح الكريم هي المحرّك الصميمي الصادق لمقاومة التخلّف والاستعمار، لأن التخلّف والاستعمار ظاهرتان تقفان ضد الشعور بالرسالة وضد الشعور بالذات السامية، وهكذا كان الوضع في كل التاريخ. إن استقلال الهند ودخولها مرحلة التقدم لم يأتِ مصادفة، بل كان محرّكه في الأساس الشعور القومي بالذات، أي بالشخصية المستقلة وتحسس ميول الخير في الإنسان، وهكذا يصح الحال على جميع حركات التحرر والنهوض في العصر الحديث.

القومية هي الشعور الذي لا يمكن أن يتلاءم مع التخلف ومع الاستعمار بفعل كونها الشعور بالذات السامية في كل فرد من أفراد الأمة. فإن كنت تفتش عن النهضة وترغب في أن تتحرر بلادنا من الاستعمار الغربي ولا سيما الصهيونية، فعليك تحريك الشعور القومي ونشر الوعي القومي والدعوة إلى الوحدة العربية. ألا تتذكر أيّها السائل المستوضح الكريم ماذا حصل في بداية قيام الجمهورية العربية المتحدة من تحسس الذات القومية، وكيف بدأت بوادر النهوض للعيان وأخذت براعم الثقة بالنفس تتفتح، وكيف بدأ الأمل والتفاؤل يظهر للعيان هنا وهناك، وكيف سرى نوع من الحماسة للبناء والتقدم في مفاصل الدولة وجماهير الشعب؟ ألا تتذكر تلك المعالم؟ نعم إنني أتذكر ذلك وقد شهدته شخصياً، وما شاهدناه لم يكن إلا بداية بسيطة، إذ لم يتحقق من الوحدة غير خطوة أولى فقط بكل ما رافقها من مصاعب ونقائص، فهل تستطيع

أن تتصور الحالة لو أن الوحدة العربية الشاملة تحققت؟ ماذا كان سيحصل في حالة قيام الدولة العربية الكبرى؟ إن حالة النهوض والاندفاع والحماسة للتقدم ستكون من الاتساع والقوة ما لا نستطيع وصفه الآن. لذلك تلاحظ أيّها السائل المستوضح الكريم أنني كنت دائماً أقرن الوحدة بالتقدم الشامل وبالقوة وبالاستقرار، ولذلك أقول عند مخاطبة فئات الشعب المختلفة إن الوحدة ستكون مقرونة بالرفاهية الشاملة للجميع وبالتقدم في مختلف نواحي الحياة، الأمر الذي سيعود عليهم وعلى أمتهم بالخير العميم.

إن القومية العربية هي الحركة التي يستحيل أن تهادن التخلّف، ويستحيل أن تتساهل مع الاستعمار، ولن تتعايش اطلاقاً مع الصهيونية للسبب الواضح الجوهري الذي ذكرته، ألا وهو أنها شعور بالذات السامية ويقظة بالوجدان القومي المشدود إلى المثل العليا ـ مثل الأمة وتاريخها وتراثها، وذلك لأنها شعور بالذات المستقلة وبحمل الرسالة لتقدم المجتمع والعالم. فكيف والحالة هذه يمكن أن تنسجم القومية مع التجزئة وكل ما يرافقها من تخلف في مختلف المجالات؟ وكيف يمكن أن نتصور أن تهادن القومية ما هو نقيض ذلك، ألا وهو الاستعمار والصهيونية؟

وبالمنطق نفسه والسبب نفسه، تجد أيّها السائل المستوضح الكريم أن الاستعمار والصهيونية هما العدو الأول للقومية وكذلك الأنظمة الرجعية المتخلفة المرتبطة بالاستعمار.

قال السائل المستوضح الكريم معلّقاً: إذن فأنت قومي، لا

قطري، ولا عالمي، أليس كذلك؟ قلت: نعم، أنا كذلك. قال: **وهل يعني أن القطر لا يعني أي شيء بالنسبة إليك؟ وهل يعني ذلك أنك لا تهتم بالعالم الذي من حولنا؟** قلت له: كلا، إنه ليس كذلك.

إن القطر شيء موجود، كما أن العشيرة والمذهب والمدينة ومنطقة السكن أمور موجودة، وربما يفوق القطر أهمية كل ذلك لأنه أساس الدولة القطرية، ففي حدوده قامت دولة ذات كيان معترف به دولياً، وحول ذلك بنيت جميع القوانين التي شرعتها الدولة القطرية. إنني عندما أقول إنني قومي لا أعني انني نسيت كل هذه الروابط وتجرّدت عن جميع هذه المشاعر والعواطف التي تكوّنت بمرور الزمن أو أنها غير موجودة. إن الوضع القطري وضع موجود لا يمكن نكرانه، وفي ظل الوحدة سيتحقق نوع من التطور في وضع القطر، أي التحول من معنى إلى معنى آخر، إلا أنه في كل الأحوال سيبقى موجوداً. وهنا لا بد من التنويه إلى أمر مهم يتعلق بنوع الإدارة التي تصلح لدولة موحّدة مكوّنة من أقطار عدة، كما هو الحال في الوطن العربي. إن المنطقي المقبول هو اختيار النظام الاتحادي كنظام للإدارة الداخلية. ومهما قيل في تفاصيل هذا النظام تبقى المسألة الجوهرية فيه هي توزيع السلطة بين الحكومة المركزية القومية وبين الحكومة المحلية القطرية. وفي داخل القطر نفسه لا بد أيضاً من توزيع السلطة بين حكومة القطر ووحدات الحكم المحلي في المحافظات.

إن هذا التنظيم من اللامركزية يقوم على أساس الديمقراطية

التي يتم بمقتضاها تصنيف الصلاحيات حسب أهميتها، فيتم توزيعها بمقتضى القانون بين مستويات متدرجة من الحكومات في المحافظات إلى الحكومة المركزية الاتحادية التي توكل إليها عادة الأمور الجوهرية المتعلقة بالتنمية والثروة القومية والأمن القومي والعلاقات الدولية، وما عدا ذلك يوزع تدرجاً بين الحكومات الأدنى. إن هذا التنظيم الاتحادي اجراء عملي أساسه الديمقراطية، بمعنى تقريب سلطة اتخاذ القرارات من المواطن قدر الإمكان. فكلما كانت سلطة اتخاذ القرارات قريبة من المواطن كان النظام أكثر ديمقراطية، لذلك فالأمور المتعلقة بمعيشته مباشرة وشؤونه اليومية توكل إلى السلطة المحافظة، والأمور الأكثر خطورة توكل إلى حكومة القطر، والأمور الأكثر خطورة المتعلقة بأمن الدولة ووحدتها وتنمية اقتصادها وعلاقاتها بالعالم الخارجي توكل إلى الحكومة المركزية. إن جميع هذه الحكومات تعمل بطريقة ديمقراطية وفي ظل القانون والدستور، إلا أن قرب أو بعد المواطن عن عملية اتخاذ القرارات يتفاوت حسب نوعية القرار ومدى خطورته وتعلّقه بأمن الدولة ككل. المهم في كل ذلك هو القول إن النظام الاتحادي ليس أقل وحدوية من النظام المركزي الاندماجي، بل هو مجرد صيغة للإدارة تلائم الدولة الكبيرة الواسعة برقعها الجغرافية المتنوعة في ظروفها المحلية. وفي حالة الوطن العربي، هناك ظرف خاص آخر يستوجب اتباع هذا النظام هو وجود دولة قطرية في كل قطر من الأقطار العربية مضى عليها وقت وتكوّنت لها عاطفة وعصبية وصار لها بمرور الوقت شخصية

ووجود. إن كل ذلك يضيف عاملاً آخر إلى العوامل التي تبرر اتباع هذا النظام الذي يبقى بموجبه كيان القطر قائماً، إلا أنه يتنازل عن بعض صلاحياته لحكومة جديدة، هي الحكومة المركزية.

— ٢٠ —

قال السائل المستوضح الكريم: وماذا لو أنني قبلت كل ما قلته لي حتى الآن؟ قلت: ذلك خيارك. قال: إن الذي أقصده: **ماذا أفعل عندما أكون مؤمناً بالوحدة؟** قلت: ذلك أمر آخر، فهو سؤال يتطلب الجواب. الوحدة كما سبق أن أوضحت أيّها السائل المستوضح الكريم لا تتحقق وحدها، بل لا بد لها من أداة، وأوضحت المقصود بتلك الأداة. ولكن، وفي كل الأحوال، الوحدة تبدأ أولاً بالإيمان، أي القناعة بها كمبدأ، والقناعة مصدر الشعور الطبيعي بالانتماء وبالهوية، أي بكوني أنا فلان بن فلان، عربي. إن هذا الشعور أمر طبيعي إلا أنه عندما يتبلور في النفس يصبح شعوراً قومياً، وعندها يكون من قبيل الوعي السياسي بالهوية والانتماء. فإذا ما تكوّن ذلك، أي إذا ما تحوّل الشعور القطري الطبيعي من أنا عربي إلى شعور قومي سياسي، أي إلى شعور بأننا نحن العرب يجب أن نتحد في كيان قومي، له دولة قومية واحدة، عندما يحصل ذلك يكون الفرد الوحدوي قد ظهر. فإذا كنت تسأل عن ماذا يجب أن تعمل عندما تكون وحدوياً؟ أقول: إن هذا السؤال مهم ويستحق الإجابة. ان التفكير هو أساس العمل ونقطة البداية فيه، وهنا يرد

مفهوم الإرادة. ان كل شيء يعتمد على إرادة الإنسان، فالإنسان هو محور الكون، وهو من دون شك العامل المحرّك في هذا العالم، وعلى إرادته يعتمد كل شيء، وهنا، وأنا أقول ذلك أرجو من السائل المستوضح الكريم ألاّ يقفز ذهنه إلى أمور لا أقصدها أو إلى أمور أخرى يستنتجها خطأً من هذا القول، وألاّ يزجنا في نقاش ديني حول المقارنة بين إرادة الخالق وإرادة الإنسان، فذلك ليس هو ما أعنيه اطلاقاً.

المقصود هو ان الإنسان هو الذي يبني ويهدم، وهو الذي يغيّر مجريات الأمور، وعلى إرادته يتوقف ما يجري في العالم، بغض النظر عن المفهوم الفلسفي الديني بخصوص الإرادة العليا التي تسيّر الإنسان أو لا تسيّره. المقصود ببساطة هو أنه بمقدار ما يعمل الإنسان يستطيع أن يغيّر ما حوله من أوضاع. فالوحدة كإجراء يتغير بموجبه وضع التجزئة من حالة إلى حالة أرقى وأعلى منها لا يحققها غير الإنسان، إذ لا يمكننا أن نتصور أن هذا التحول أو أيّ تحول آخر يمكن أن يحصل إذا لم يتحرك الإنسان وبقي ساكناً في مكانه. إذن هي إرادة الإنسان التي يعتمد عليها كل شيء. فما هذه الإرادة؟

إن نقطة البداية في تكوين الإرادة هي ما يحصل في تفكير الإنسان. إن التفكير يعني ما يدور في داخل الإنسان من نظر في الأمور التي تجري حوله، والتفكير هو القناعة التي تتكون عند الإنسان بخطأ أو صواب هذا الأمر أو ذاك. والمهم في هذا الأمر هو القناعة الداخلية مقابل المظهر الخارجي. فقد تكون القناعة الداخلية

غير منسجمة مع المظهر الخارجي، كأن يقول الإنسان ما لا ينسجم مع قناعته الداخلية. إن إرادة الإنسان القائمة على قناعة داخلية راسخة هي المحرّك الأساس لعمل ذلك الإنسان ونشاطه. وفي هذا المجال، لا بد من التنويه بالدور الذي تؤديه التوعية. والتوعية تعني التبصير والتنوير عن طريق بسط المعلومات الصحيحة والمساعدة في تحريك التفكير عن طريق النقاش بكل ما ينطوي عليه من عرض المعلومات، والمحاججة وايراد الأدلة وتفنيد الأباطيل، أي المساعدة على تحريك التفكير في الاتجاه الصحيح. وبذلك تكون للوحدة العربية حركة شعبية بمعنى اتصالها بالإنسان وبالجماهير، تخاطب عقولهم وتنبه وجدانهم وتستثير ضمائرهم على مساوىء وضع التجزئة ومخاطرها وأهمية الوحدة وصلاحها من أجل تحقيق وضع القوة والسير في طريق التقدم والحق والخير والرفاهية لمجموع الأمة.

ـ ٢١ ـ

ولم يستطع السائل المستوضح الكريم إلا أن يسترسل في الأسئلة المتفرعة من أصل السؤال الأول فيقول في نفسه أولاً وعلى لسانه بعد ذلك: **هل للقائد والقيادة دور مهم في تحقيق الوحدة العربية؟** وكان جوابي له بالإيجاب. إن دور القائد في التاريخ أمر معروف، ولا يحتاج إلى مزيد من الأدلة. فالقائد إنسان من نوع خاص تتوفر فيه صفات خاصة من القدرة والشجاعة وصفاء النفس ورجاحة العقل وبُعد النظر والتعلق بالمبادىء، وتوضحت عنده بجلاء

الهوّة بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، وارتسمت في ذهنه الصورة الواضحة للتطور الجديد والوضع الأفضل الذي يريد أن يوجده خدمة للصالح العام.

والقائد إنسان اقترنت عنده الرغبة في التغيير بالقدرة على توعية الآخرين وتعبئة قواهم وتوحيدهم والتأثير فيهم وتوجيههم في اتجاه تحقيق المبادىء. وهكذا حصلت التغييرات المهمة في التاريخ سواء أكانت سياسية أم دينية أم اجتماعية أم علمية أم اقتصادية. فمن الأديان السماوية إلى الاكتشافات الجغرافية كان للقائد دور أساسي في تغيير التاريخ والوحدة العربية، عمل يتعلق بتغير واقع الأمة الحالي من واقع التجزئة بكل ما فيه إلى واقع الوحدة بكل ما ينطوي عليه من قوة وتقدم وخير، لذلك فللقائد دور مهم في تحقيقه. ذلك أمر بديهي من دون شك.

المهم في ذلك ليس الاعتراف بالبديهية بل النظر إلى الواقع الحالي للأمة العربية. إن الواقع الحالي للأمة العربية يحفز على ظهور القائد، ولكن ذلك لا يحدث بشكل قانون رياضي. فقد مضى على الأمة وقت ليس قصيراً، وهي تعيش في وضع التجزئة، إلا أن ظهور القائد لم يحدث في كل يوم، ولا في كل مكان. إن ظهور القائد قضية يصعب تحليلها من حيث الأسباب والعوامل، ولكن المهم ليس هذا الجانب البحثي من الموضوع، بل المهم، هو أن القائد عندما يظهر، علينا أن نأخذ الموقف الصحيح من ظهوره. إن القواد لا يظهرون في كل يوم، لذلك على العرب أن يعتبروا ظهور القائد

فرصة تاريخية يجب التمسك بها إلى أقصى الحدود والالتفاف حولها ووضع الإمكانات كافة في خدمتها. إن مرحلة الغزو الصليبي للبلاد العربية، والوضع المتردي للأمة من التفكك والانقسام والضعف قد تمخض عن ظهور قيادة واحدة هي قيادة صلاح الدين الأيوبي الذي استطاع أن يواجه الوضع المتردي وأن يغيره إلى الأفضل. ان وضع التجزئة الحالي يحتاج إلى قائد تلتف حوله الأمة وتضع كل إمكاناتها في خدمة العمل التاريخي الذي يتصدى له، وهو بعبارات واضحة بسيطة تحقيق الوحدة العربية، وتحرير كامل التراب الفلسطيني، والقضاء النهائي على الصهيونية وطردها خارج الحدود. إن هذه المهمة تحتاج إلى قوى الأمة وطاقاتها وتحتاج إلى أن تلتف الأمة بجميع فئاتها حول القائد الذي يتصدى لهذه المهمة.

إن الذي يبعث على الاستنكار حقاً أن ينظر بعض الحكام العرب إلى ظهور القائد الجديد بمنظار المصالح الأنانية ومن خلال مشاعر أساسها غرائز الغيرة والحسد والمصلحة الذاتية بدلاً من أن يرتفعوا بمشاعرهم إلى مستوى ما تقتضيه المصلحة القومية.

ـ ٢٢ ـ

وهنا ظهرت على السائل المستوضح الكريم علامات محاولة التذكر، فقال مستوضحاً: **ألم تقل إنك ترفض العالمية؟** فقلت: نعم، إنني قلت ذلك. قال: **إذن ألا يعني ذلك ان القومية العربية لا تؤمن بالإنسانية؟** قلت له: كلا، مع أنه من المتوقع أن يلتبس عليك

الأمر، فكلمة الإنسانية غالباً ما تستعمل رديفاً للعالمية، وهو خطأ شائع، إذ هناك فرق كبير بين الإنسانية والعالمية. **فالإنسانية** تعني الاهتمام بالإنسان والعمل على إسعاده وتحقيق حياة حرة كريمة مستقرة له، وإزالة الظلم والاستغلال عنه. أما **العالمية** فهي مفهوم يتعلق بالنظام السياسي الذي يجعل من العالم دولة واحدة تحكمها حكومة واحدة، وشتان بين المفهومين. إن القومية العربية إنسانية جداً وتعمل على تحقيق الإنسانية للإنسان فهي التي تزيل الظلم والاستبداد والاستغلال عنه، وهي التي توفر عوامل القوة والتقدم والتطور له فتخلق بذلك حياة حرة سعيدة آمنة له وللأجيال القادمة، وهي التي تحرره من الخوف والحاجة، وبذلك تتيح له المجال لإظهار ما به من كفاءة ومهارة وموهبة وإمكانات للإبداع والعمل والإنتاج، وبذلك تساعده على تحقيق طموحاته وما في نفسه من آمال، وتلك هي الحرية بأوسع معانيها وأقوى صورها. كما أن القومية العربية والوحدة العربية تقف موقف المساند لحركات التحرر في العالم وتناضل ضد الظلم والاستغلال والاستبداد حيثما وجد، وتناهض الاستعمار والتمييز العنصري والاستغلال الاقتصادي والهيمنة على الشعوب والتدخل في شؤونها الداخلية والتأثير في ثقافتها. وبذلك، كما ترى أيها السائل المستوضح الكريم، إن القومية العربية والوحدة العربية هما اللتان تناضلان بصدق واخلاص وبكل تفان من أجل تحقيق الإنسانية الصحيحة الواقعية، وهما الطريق الأمثل للإنسانية. أما قضية الحكومة العالمية فشيء آخر تماماً، وقد سبق لنا أن أوضحنا

عدم واقعية هذا المفهوم وتعارضه مع حقيقة تكوين العالم، ولن يؤدي تطبيقه إلا إلى هيمنة الأمم الكبيرة علي الأمم الصغيرة واستعبادها واستغلال ثرواتها. وقد كان ذلك دائماً حلم الغزاة الطغاة الفاتحين المستخدمين قوّتهم للسيطرة على العالم، ولن تؤدي أية محاولة لتطبيقه إلا إلى الفوضى وعدم الاستقرار والإخفاق في النهاية. هل عرفت الآن أيها السائل المستوضح الكريم الفرق؟ قال: بلى.

ـ ٢٣ ـ

قال السائل المستوضح الكريم: إذن **أفهم من كلامك أن الوحدة العربية تعني قيام دولة واحدة تضم جميع الأقطار العربية الحالية**. قلت: نعم، ذلك هو المقصود. فقال مستوضحاً: **إذن، فذلك يعني دخول جميع الظروف والأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، الايجابي منها والسلبي في نطاق دولة واحدة، الأمر الذي يعني دخول جميع عناصرالتباين الموجودة الآن بين الأقطار العربية في نطاق الدولة الجديدة**. قلت: نعم، ذلك صحيح. فقال: **ألا يخشى من الأثر السلبي لعوامل التباين**؟ ألا يخشى من العيوب والأمراض الاجتماعية والعادات السلبية والأوضاع المتخلّفة الموجودة في هذا القطر ان تنتقل إلى القطر الآخر الذي يخلو من تلك السلبيات والأمراض؟ فقلت: إذن أنت تخشى من عوامل الاختلاف. قال: نعم. قلت: ولكن عوامل الاختلاف يمكن أن تكون عوامل ايجابية بدلاً من العكس، فالتباين

ينشط المناقشة والمقارنة. كما أن الأمر الجيد تتضح مزاياه أكثر عندما يقارن بالأمر السيىء، والمقارنة لا تحصل إلا عندما يوجد الاثنان جنباً إلى جنب. اعلم أيّها السائل المستوضح الكريم ان الوحدة عملية ثورية، فهي عندما تقوم تتحقق معها ثورة في المجالات كافة، لأنها تعني ضمناً التحرك من وضع التجزئة الراكد إلى وضع أعلى منه في سلّم الرقي والتقدم، وعملية التوحيد هي في حقيقتها الواقعية عملية تقدم وإحلال وضع جديد أفضل منه في مكانه، وتلك عملية تقدم جذرية في المجتمع بكامل روحها وأوضاعها النفسية والقانونية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وفي وضع التقدم هذا تصبح عملية وضع السيىء في جانب الحسن عملية مفيدة لأنها تعني المقارنة والتحفز من أجل تحويل السيىء إلى الحسن، وليس العكس. فهي عملية صعود وتغيير جذري تتحول من خلالها الأوضاع من حالتها الراهنة إلى ما هو أفضل منها في سلّم الرقي تمشياً مع الوضع الجديد وتنفيذاً لروح التقدم التي تخلقها عملية التوحيد. إن التباين في الأوضاع أمر يبعث على المنافسة، والمنافسة حافز للتقدم والتجديد. إن جميع القوانين والأنظمة والاجراءات والتنظيمات الموجودة في الأقطار المتحدة سيجري حتماً تقويمها وإعادة النظر فيها، لتوحيدها على أساس أرقى وأفضل مما هو موجود منها، وليس العكس، وبذلك تكون العملية عملية تقدمية.

عندما تتحد الأقطار العربية فإن التجارب الناجحة التي قامت في تلك الأقطار في مختلف المجالات الفنية والعلمية والاقتصادية

والعمرانية والثقافية والاجتماعية، وفي مجالات الرياضة والشباب والمرأة والصحة والمواصلات والنقل والتخطيط والصناعة والزراعة والريّ والتجارة والتوزيع والشؤون الاجتماعية والبحث العلمي والتعليم ومجالات حياة المجتمع كافة، ان جميع هذه التجارب ستحصل المقارنة بين نتائجها ونجاحاتها ومشاكلها ومعوقاتها التي حصلت في ظل وضع التجزئة، وستتم عملية الاستفادة منها على أساس قانون الأواني المستطرقة، حيث تمتد النجاحات من مكان إلى آخر، ويتم تبادل الخبرات وإكمال بعضها البعض الآخر. ان تنوع وازدياد عدد المؤسسات والجامعات والمدارس والصناعات والمشاريع بمختلف أنواعها وعموم مؤسسات المجتمع من شأنه أن يؤدي إلى مزيد من التقدم، والى المزيد من التطور في الأداء كمّاً ونوعاً.

إن ازدياد العدد والتنوّع من شأنه أن يوسع المجال أمام المواطن من أجل أن يبدع وينتج ويستغل مواهبه، وذلك يفتح فرصاً أوسع أمامه في المجالات كافة. فالجامعات عددها كبير وطرقها في التدريس متباينة وأنظمتها متعددة ومتنوعة، الأمر الذي يفسح المجال أمام الطالب ليختار ما يناسبه للدراسة. ويصح ذلك على جميع مرافق الحياة ومؤسسات المجتمع الأخرى. فالتنوّع وازدياد العدد والاختلاف عامل ايجابي للفرد والمجتمع. إنه عامل ايجابي بالنسبة إلى المجتمع، لأنه يقوّي المنافسة ويخلق الفرصة للمقارنة وتبادل الخبرات والارتقاء نحو الأفضل. وهو عامل ايجابي بالنسبة إلى الفرد لأنه يوسع مجال الاختيار أمامه ويزيد من فرص تحقيق المواهب

وانتقاء الأفضل، وبذلك يتسع معنى الحرية وتتحقق إنسانية الفرد واطلاق مواهبه وإمكاناته.

التنوع والاختلاف مصدر من مصادر التقدم والرقي والتطور الحضاري بعكس التجانس المحدود الذي يخلق الرتابة ويضعف المنافسة ويضيّق الفرص ويقلّل المجال للاختيار أمام الفرد. فالصراع ليس رديفاً للتباين كما قد يُظن بل على العكس، فالتباين يمكن أن يكون عاملاً ايجابياً في وضع تسوده روح التقدم والصعود. إن وحدة الأقطار العربية التي تضم جميع أوجه التباين الموجودة في حياة مجتمعات الأقطار الداخلة في الوحدة ستكون عامل خير وتقدم بدلاً من العكس، كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة.

لا بل أستطيع أن أذهب إلى أبعد من ذلك أيّها السائل المستوضح الكريم، فأقول إن الإبقاء على ذلك التباين والحرص عليه أمر ضروري بعد الوحدة، إذ ليس من المصلحة توحيد كل شيء، بمعنى إحلال التماثل محل التباين. لذلك فإن النظام الاتحادي ـ بنظري ـ هو الأفضل من حيث انه يترك الحرية للأقطار لأن تتباين في تفاصيل حياتها اليومية وشكل مؤسساتها ونمط الأنظمة والقوانين التي تنظم ذلك. إن تعدد حقول التجارب وإذكاء روح المنافسة وتشجيع روح المبادرة واستمرار عملية المقارنة والتقويم أمور تسير في اتجاه التقدم وليس ضده، وهي أمور يساعد النظام الاتحادي عليها.

ان الوحدة من أجل أن تزدهر وتحافظ على حيويتها

وتقدميتها، ومن أجل أن تبقى حيّة متحركة وسائرة في طريق التقدم والازدهار، ومن أجل أن تعطى الفرص المتساوية للتجارب في مختلف مجالات التطور الاجتماعي، أقول من أجل كل ذلك يجب أن نحرص على درجة من التباين ونحافظ عليها ونشجعها بوسائل البقاء تعمّداً وعن وعي بعد تحقيق الوحدة.

— ٢٤ —

وبعد سماع كل ذلك وجدت السائل المستوضح الكريم ترتسم على محياه بعض علامات التعجب، حتى كأنه لم يكن ينتظر مثل هذا الكلام، لأنه كان يظن أن الوحدة تعني التماثل في كل شيء. إلا أنه قال مضيفاً: ولكن، ألا تستطيع المزيد من الايضاح في هذا المجال؟ **ما علاقة التنوع واتساع المجال في قضية الحرية وقضية السعادة بالنسبة إلى الفرد؟** قلت: نعم، من الممكن اعطاء تفاصيل أكثر، وضرب بعض الأمثلة. إنني أسألك أيها السائل المستوضح الكريم: هل تستطيع ممارسة هواياتك أكثر في ظل الوحدة أو في ظل التجزئة؟ ان الهوايات قد تكون السباحة أو تسلق الجبال أو رسم المناظر الطبيعية أو الاهتمام بالآثار أو إقامة المخيمات أو الكشافة أو ركوب الخيل أو الرياضة أو السياحة أو الصيد أو التصوير أو جمع الطوابع. إذا كنت هاوياً لواحدة أو أكثر من هذه الهوايات، أليس صحيحاً القول إن فرص ممارسة هوايتك تكون أكبر وأغنى وامتع عندما تكون مواطناً في كل الوطن العربي فتستطيع السفر والإقامة

والعمل وممارسة الهواية في أقطاره كافة، من أن تكون مواطناً في قطر واحد من أقطاره؟ في الحالة الأولى تستطيع أن تسافر وتتصل بأصحاب الهواية نفسها في الأقطار الأخرى، وتستطيع أن تجد المجال الفسيح للتمتع وممارسة الهواية، في حين أنك تكون محدود الإمكانية ومحصوراً في قطر واحد في ظل التجزئة. وقد تكون ممنوعاً من دخول أقطار أخرى نهائياً، كما حصل ويحصل في ظل التجزئة.

أليس التمتع بممارسة الهوايات والتمتع بممارسة النشاط الثقافي والأدبي والفني والاقتصادي ومختلف أنواع النشاط الإنساني الأخرى يكون أوسع وأسهل في ظل الوحدة منه في ظل التجزئة؟ إنني لا أظن أنك تشك في ذلك. أليس لكل ذلك علاقة وثيقة بتحقيق سعادة الإنسان المواطن؟ ما السعادة؟ أليست الحرية في أن تعمل العمل الذي تحبه وتمارس الهواية التي تحبها وتطلق الإمكانات والمواهب الموجودة لديك؟ أليس ممارسة كل ذلك جزءاً مهماً من الحرية الفردية للإنسان؟

ـ ٢٥ ـ

وأراد السائل المستوضح الكريم أن يتوسّع في الاستيضاح، فقال: أراك في بعض الأحيان تتحدث عن أمور مادية، وفي أحيان أخرى تتحدث عن أمور معنوية، أو ربما عاطفية. قلت: نعم هذا صحيح، وما هو الضرر في ذلك؟ قال: ولكن التأكيد في عالمنا اليوم

هو على الأمور المادية الملموسة. قلت: مهما يكن من اتفاقي أو عدم اتفاقي مع هذا الرأي، أرجو أن تسمع ما يأتي: قال: أنا كلّي اصغاء. قلت له: إن الحياة بغضّ النظر عن الزمن هي مزيج من أمور مادية وأمور معنوية، أليس كذلك؟ فالطعام شأن مادي والشرف شأن معنوي وطرق المواصلات أمر مادي والكرامة أمر معنوي. والإنسان يريد الخبز مع الكرامة، والعمران مع الشرف، ويكوّن العائلة مع الحفاظ على العرض وهكذا. كما أن الإنسان مكوّن من روح ومن غرائز. فهو في الوقت الذي يستعمل عقله للتمييز بين الأمور وتكوين المواقف إزاء ما يحدث فإنه أيضاً يحتاج إلى الاندفاع والحماسة، ويتأثر ويغضب ويفرح ويحزن ويرضى ويسخط ويبكي ويضحك. إن العاطفة جزء مهم من حياة الإنسان وهي حقيقة ثابتة من حقائق الحياة. إن العاطفة مصدر مهم من مصادر السعادة البشرية، كما أنها يمكن أن تكون مصدراً من مصادر شقائه.

الوحدة تخلق القوة المادية وتسهّل عملية التنمية الاقتصادية، وبالتالي تكون مصدراً للأمن والسلامة والحفاظ على الوطن والحرية والاستقلال وحماية الممتلكات. وبتسهيل عملية التنمية تكون الوحدة مصدراً للثروة وارتفاع الدخل والتمتع بمباهج الحياة المادية عن طريق الزيادة المستمرة في استهلاك السلع والخدمات. ولكنها، بالإضافة إلى كل ذلك تحقق سعادة معنوية وعاطفية، ويأتي ذلك من الشعور بالأمان وبصون الكرامة والشعور بالأهمية والمكانة في العالم والاحترام بين الأمم والتقدير من قبل الآخرين. كما أنها أساس

الشعور بالاطمئنان للمستقبل، وأن ما نبنيه الآن سيكون مصاناً وأن أبناءنا سيكونون في أمان من الأخطار. فكما أن وثيقة التأمين تحدث في النفس راحة معينة بسبب الشعور بالاطمئنان إزاء الخطر الذي تؤمن عليه الوثيقة، كذلك الوحدة بما تخلقه من قوة ومناعة وهيبة واقتدار تفعل مفعول وثيقة التأمين، إلا أنها تأمين شامل ودائم ضد الأخطار وضد المجهول عموماً في الحاضر والمستقبل. إن هذا الأمان هو من دون شك مصدر مهم للسعادة لأنه شعور مريح يبعث على الاطمئنان والفرح والهدوء والاستقرار الذي يجلب للنفس السعادة.

إن حياة الإنسان هي مجموع مشاعره إزاء الأشياء، فإذا ما كانت تلك المشاعر مليئة بالراحة والشعور بالأمان والهيبة والاطمئنان، وكلما كانت شعوراً بالأهمية والمكانة واحترام الآخرين كانت الحياة سعيدة والعكس بالعكس. إن الإنسان يريد أن يشعر بأنه شيء مهم في هذا العالم، وأن لديه ما يستطيع أن يفخر به، وأنه منتج ومساهم في حضارة البشرية، وأن لديه ما يقدمه لها. كما أنه يحب أن يشعر بأنه محترم مهاب الجانب. ويحب أن يشعر أنه قوي مقتدر لا يطمع به أحد ولا يقترب منه الأشرار. إن جميع هذه المشاعر التي تمرّ على الفرد كل يوم وخلال تفاصيل حياته اليومية تشكّل مصدراً مهما من مصادر السعادة. إننا نعرف مقدار الألم والضيق والتعاسة التي تنتاب كلّ واحد منا كلما حدث اعتداء على بلادنا من قبل الأعداء الطامعين. إن كل اعتداء من قبل الكيان الصهيوني وكل عمل عربدة يقوم به هذا العدو المجرم يبعث في

نفوسنا التعاسة والمرارة والشعور بالحزن والألم. ان الشعور بأننا مهددون دوماً من قبل بعض جيراننا والدول الاستعمارية يحقن في نفوسنا الألم ويبعث فيها شعور الخيبة، وكل ذلك مصدر من مصادر الشقاء البشري. لقد عشت في بلد كبير قوي لمدة من الزمن هو الولايات المتحدة الأمريكية عندما كنت طالباً، وأعرف مشاعر أفراده في المناسبات الوطنية، وعندما كانت تمر الأحداث؛ وكيف كان الفرد منهم، يشعر بالزهو والراحة لقوة اقتصاده وقبول عملة بلاده في كل أرجاء العالم ودرجة تطوره العلمي وقوته العسكرية ومكانته السياسية في العالم. كنت عندما أرى ذلك في عيونهم، وطافحاً على وجوههم، معبّرين عنه بشتى وسائل التعبير، كنت عندما أرى ذلك امتلىء أسى وحزناً لأوضاعنا ولأننا لسنا كذلك. كنت أعاني وأتألم عندما أرى الصهيونية تختال وتجلجل وتتباهى بما تقوم به من أعمال عدائية نحونا ونحن لا نستطيع أن نعمل شيئاً، أو أن نرد الإهانة، أو أن نوقف ذلك العدوان. ان الشعور بالقوة مصدر مهم للسعادة، كما أن الضعف والوهن مصدر من مصادر التعاسة والحزن والألم. ألا تتذكر أيها السائل المستوضح الكريم كيف كنّا نشعر عندما تحقق أمتنا أو يحقق أحد أقطارها انتصاراً في أمرٍ ما؟ كيف كنّا نمتلىء فرحاً وغبطة، وكيف كنّا نشعر ونعيش تلك الأيام؟ وبالعكس ألا تتذكر مشاعرنا إزاء النكسات والانكسارات التي كانت تحدث عندنا؟ ان الشعور بالفرح والسعادة لا تخلقه العوامل المادية فقط بل الأمور المعنوية أيضاً. والعاطفة مصدر مهم من مصادر

السعادة. إن سعادة الإنسان تتكون في النهاية من مجموع مشاعره، فكما تكون مشاعره تكون درجة سعادته.

إنك أيها السائل المستوضح الكريم موجود في المجتمع، ولا أشك أنك قد تعرضت لتجارب الخيبة والنجاح، لحالات الانتصار وحالات النكسات، وتعرف المشاعر التي انتابتك من جرائها. أظنك تتفق معي أن الدولة القطرية الحالية لا يمكن أن توفر لنا ولا للجيل القادم أي نوع من الشعور بالاطمئنان والاستقرار والراحة النفسية والوثوق بالمستقبل لأنها سبب الضعف والتعرض للأخطار. وتتفق معي ان النكبات التي حلّت بنا ما كانت لتحدث لو كنّا أمّة موحّدة قوية الجانب. هل كانت فلسطين سيحدث لها ما حدث لو كنّا أمّة موحّدة بدولة واحدة قوية؟ هل كانت الصهيونية تستطيع أن تعمل بنا ما عملته، وأن تعربد في المنطقة كما تفعل الآن لو كنّا دولة واحدة؟ هل كانت الاضطرابات وعدم الاستقرار واعتداءات الطامعين تحدث لو كنّا في وضع موحّد قوي غير وضع التجزئة الضعيف الذي نعيشه الآن؟ أيّها السائل المستوضح الكريم: إننا عندما نكون أقوياء لا نحتاج إلى أن نقاتل كثيراً، ولا أن نسفح دماءنا، ولا أن ندخل حروباً متتابعة مع أحد. إن المعتدي والطامع نفسه ما كان ليقترب منا لمجرد أنه يعلم أننا أقوياء، فوضع القوة نفسه يبعد الحرب والاعتداء من قبل الطامعين. إن الضعف نفسه يستهوي الأعداء ويجذب الطامعين ويشجّع المعتدين، ووضع القوة نفسه يبعدهم. ذلك قانون معروف يصح على العلاقات بين الأمم، كما يصح على

العلاقات بين الأفراد. إذن فوضع القوة لا يوفر الأمن، ويقينا الاعتداء فحسب، بل يوفّر الدماء والأموال والمعاناة التي تسببها الحرب عادة.

واعلم أيها السائل المستوضح الكريم أن القوة مصدر مهم من مصادر السعادة، فقد حدّد سبحانه وتعالى النعمة بالإطعام من الجوع والأمان من الخوف في الآية الكريمة المعروفة. ان الشعور بالسعادة هو المبتغى والهدف من كل نظام اجتماعي يُوجده الإنسان، والمشاعر التي تنتج من القوة والأمان وكل ما يتبع ذلك من مشاعر إنسانية مريحة تبعث السعادة في النفس. والوحدة العربية هي ما يوفر ذلك وليس وضع التجزئة، وضع الضعف والمهانة والاعتداء على المقدسات وعلى كل ما نعتزّ به ونحترمه ونقدسه. هل تعرف أيها السائل المستوضح الكريم مشاعر من يعيش في ظل الاحتلال الاسرائيلي؟ ماذا يشعر في كل يوم وكل ساعة من حياته؟ ماذا يسمع، وماذا يرى، وماذا يعاني، وماذا يحدث له ولعائلته ولبيته ولأقاربه ولبني وطنه تحت الاحتلال يومياً؟ إنني لا أستطيع أن أصف لك ذلك، فقد أكون أعرف بعض تلك المشاعر، ولكن ليس كلها، وقد يكون بمقدوري أن أصف لك السطح الأولي لتلك المشاعر، ولكنني عاجز حتماً عن وصفها بعمقها الحقيقي الذي تحفره في النفس.

— ٢٦ —

وهنا أخذ السائل المستوضح الكريم يبدو كأنه يريد أن يتحدث عن أمور عملية تتعلق بالأشخاص بدلاً من الأفكار، فقال:

ألا يمكنك أن تقول شيئاً عن الأناس الذين تريد توجيه الكلام إليهم؟ **ماذا عمَّن ترى أنه يستطيع تحقيق الوحدة؟** قلت له مجيباً: نعم الوحدة يحققها البشر، والبشر هم المعنيون أولاً وأخيراً. وأقصد بالبشر بالطبع أولئك الأشخاص المهتمون بقضية الوحدة في الوطن العربي. أولئك هم الأداة التي بواسطتها يمكن تحقيق الوحدة.

إنني أيها السائل المستوضح الكريم أعرف الكثير منهم، وهم ليسوا في اتجاه واحد، فهم موزعون على فئات كثيرة متباينة، وعلى بعضهم أو على كلهم تقع المسؤولية. قال: هلاّ قلت المزيد؟

أيّها السائل المستوضح الكريم: الصفة الأولى للوحدويين هي أنهم منقسمون، وأحياناً متناحرون، وتلك هي الطّامة الكبرى. لقد شهدتُ وأنا طالب في الدراسة الأولية في الجامعة ذلك الانقسام الذي لم يكن له مبرر منطقي، وقد ثبت ذلك في ما بعد وعرفه الذين انقسموا وربما اعترفوا به.

كان الوحدويون يتحدثون عن المبادىء وعن تباين الفلسفات وعن اختلاف النظر إلى الأمور، ولم يكن الأمر كذلك. كانوا ينقسمون على أمور لو ذكرتها لاستغرب السامع وتعجب وامتلأ غيظاً. كانوا ينقسمون على قضية الصدارة والزعامة، وعلى مَنْ يتقدم الصفوف، ومَنْ ينضم إليهم، ومَنْ يكون الأول، ومَنْ يكون الثاني، وعلى حب ذلك الشخص البارز أو عدم حبّه. كانوا يتخاصمون على الإصرار على هذا الموقف أو عدم الإصرار عليه،

على هذه الكلمة أو على تلك. إنهم كانوا مناضلين مخلصين، نعم كانوا كذلك، إلا أنهم كانوا شخصيين ذاتيين أيضاً. كان فيهم قصر النظر وحب الذات والصراع المستمر بين المبادىء والمظاهر. أعرف حالة فريق وحدوي لا أشك أبداً في إخلاصه وتفانيه وإيمانه بالوحدة، إذ كان مناضلاً في مرحلة الدراسة الجامعية، اقترب من فئة أخرى ذات مركز نضالي مهم، وكادا يتلاحمان ويمتزجان، إلا أنه في النهاية تغلبت الذات فافترق ذلك الفريق الوحدوي وألّف حركة منفصلة، وبعد سنين طويلة أدرك الجميع أنهم لم يكونوا في الحقيقة على خلاف مبدئي. فيا أيها الوحدويون إرجعوا إلى ضمائركم وافحصوا ما بداخلكم وتمعّنوا بالهواجس والدوافع لتتبينوا الصحيح من الخطأ، والموضوعي من الذاتي، وأصدقوا أنفسكم القول، وضعوا مصلحة الأمة أمامكم، واعلموا أن الوحدة هدف قومي يقاومه أعداء كثيرون ذوو عدة وإمكانات، وان أولئك الأعداء ليسوا من النوع الهين، لذلك عليكم أن تتجمعوا، وأن تنبذوا الخلاف وتطردوا هواجس الذات والمصالح الشخصية لتتحدوا في صف واحد من أجل أعلى وأسمى وأنبل وأكبر هدف للأمة يتوقف عليه حياتها: وجودها واستمرارها على وجه الأرض. أيّها الوحدويون أنتم الفئة الأولى التي تجب عليها وحدة الصفوف وتقع عليها مسؤولية غسل النفوس من الصغائر والتوافه والأغراض. إنكم جميعاً تنادون بالوحدة وتؤمنون بها وتناضلون من أجلها، واعلموا أنكم مهما قلتم وعملتم وذهبتم يميناً أو شمالاً، ومهما حدث ويحدث، تبقى الوحدة فوق

جميع الأفكار والأهداف والغايات الأخرى، فهي حياة الأمة وهي وجودها وما عداها من المبادىء والأهداف مهما سمت أو كبرت تبقى أهميتها في المرتبة الثانية، إذ لا يرقى للوحدة أي هدف، ولا يوازيها أي مبدأ آخر. فعليكم أولاً تحقيق الوحدة، وبعدها يمكنكم أن تنظروا في ما عداها من المبادىء والنظريات والأهداف. فإن شئتم أن تختلفوا فلا بأس من ذلك، وإن شئتم أن تتنافسوا فلا مانع من ذلك، ولكن ذلك يجب أن يكون لاحقاً لا سابقاً لتحقيق الوحدة. إن جميع النظم والنظريات والأهداف أمور يوجدها الإنسان لتنظيم حياته وتحقيق المزيد من التقدم والازدهار، ولكن كل ذلك شيء والوحدة شيء آخر مختلف جوهرياً. ان وجودنا وحياتنا يتوقف على الوحدة، ولكنه لا يتوقف على النظريات والأهداف الأخرى مهما سمت وكانت أهميتها. إنني متيقن من ذلك تيقني من وجود هذا القلم الذي أدوّن به هذه السطور، ومن أن الشمس تشرق في الصباح وتغرب في المساء. أيها الوحدويون اتحدوا، وليس لكم من سبيل غير ذلك. اتحدوا.

— ٢٧ —

قال السائل المستوضح الكريم: **ومَنْ تقصد بالوحدويين؟** قلت له: كل من ينادي بالوحدة، كتابة أو شفاهاً، كل من يقول أنا وحدوي. وأنا أقصد بذلك الوحدويين الاشتراكيين، وغير الاشتراكيين، والوحدويين الديمقراطيين وغير الديمقراطيين،

والوحدويين الجمهوريين وغير الجمهوريين، وهكذا كل الوحدويين، بغض النظر عن كل اعتبار آخر.

ومن أجل المزيد من التوضيح أود أن أقول للسائل المستوضح الكريم إنني بهذا القول لا أقصد أن يغير الوحدوي آراءه في النظرية التي يعتنقها، أو أن يتنازل عن رأيه في الأمور الأخرى أو أن يترك موقفاً اتخذ. كلا ان الديمقراطية والحرية والجمهورية والملكية والاشتراكية والعدالة والرأسمالية والاصلاحية والاندماجية والاتحادية واللامركزية... الخ ليس إلا آراء ونظريات لا سبيل إلى محوها وانصهارها أو احلال التماثل في مكانها. إن كل صاحب رأي أو نظرية يستطيع أن يبقى على رأيه ونظريته كما يرى ويرغب، ولكن المطلوب هو أن تتحد الجهود وتتوحد الصفوف وتمتزج الإمكانات وتصوب باتجاه واحد هو تحقيق الوحدة أولاً، مع احتفاظ كل ذي رأي برأيه.

فهل هناك ما يمنع ذلك؟ أليست هذه هي الصيغة التعاونية التي تسود العالم اليوم، حيث نجد في كل مكان تقريباً من الدنيا نوعاً من التعاون واتحاد الجهود بين فئات تتفق في أمور، وتختلف في أمور أخرى؟

أيّها الوحدويون، صحيح ان الماضي قد شهد الاختلاف في ما بينكم، وفي بعض الحالات شهد أكثر من ذلك فاصطرع بعضكم مع بعض، واضطهد بعضكم بعضاً، وشهّر بعضكم ببعض، وقال

وعمل هذا الفريق ما قاله وعمله بحق الفريق الآخر، ولكن ذلك يجب ألاّ يستمر، ويجب ألاّ يكون قيداً على الحاضر وسدّاً أمام المستقبل، فقد تنازعتم وتخاصمتم بإرادتكم، وتستطيعون الآن أن تتخلصوا من كل ذلك بإرادتكم أيضاً، فالخطر محدق، والظرف محرج، والهدف أسمى، والغاية أكبر من كل ذلك، وليس أسهل على من يتوفر عنده الإخلاص وبعد النظر والغيرة على الصالح العام من أن يغسل نفسه من أدران تلك المرحلة ويجلو عن نفسه الصدأ ويزيل غشاوة البصر والقيد عن الضمير، فيحل الوئام والتعاون ورصّ الصفوف محل المشاحنة والانقسام والاختلاف. ان الخلاف الذاتي هو أسهل الخلافات لمن يريد إزالته.

ثم قلت: هل ترغب المزيد أيها السائل المستوضح الكريم؟ قال: نعم. فقلت مخاطباً: أيها الماركسيون كنتم قد اعتنقتم هذا المبدأ بدافع حل مشاكل الشعب، كما تقولون، والكثير منكم لا أشك في أن دافعه في الأساس كان هذا التصور. إنكم كنتم تفتشون عن حل لمشكلة الوضع المتردي الموجود فاخترتم أو اجتهدتم أن الماركسية هي الحل. والآن وقد اتضح من خلال تجربة أكثر من نصف قرن أن الأقطار العربية بقيت متخلّفة، يسودها الفقر والجهل والمرض، ويسيطر عليها نفوذ الاستعمار والرجعية في الداخل. وأنتم وبعد كل تلك التجارب تعرفون أن هذه الأقطار بقيت في هذا الوضع بسبب ضعفها، وتمكن الاستعمار من بسط نفوذه عليها، وأن الرجعية الداخلية قد عطلت عملية التقدم أو عرقلتها فأبقتها متخلّفة

ضعيفة. إنكم تعرفون أن الوحدة العربية حركة تقدم إلى الأمام، فهي التي تحقق القوة وتحافظ على الوجود وتقف في وجه الاستعمار والصهيونية وتفتح المجال واسعاً أمام التنمية والتقدم الاقتصادي، وتضع ثروة الأمة في خدمة المجموع وتحرّر المنطقة من نفوذ الاستعمار ومطامع الصهيونية. إنكم تدركون الآن أن مجال النضال الواقعي هو الوطن العربي، وتدركون أيضاً أن الماركسية اجتهاد في تنظيم حياة المجتمع الاقتصادية والسياسية والثقافية تقابله اجتهادات أخرى، وأن هذا الاجتهاد لم يحقق النجاح المطلوب في أكبر تجربة لتطبيقه في الاتحاد السوفياتي. إنكم تدركون كل ما حدث ويحدث في عالم اليوم، الأمر الذي يدعوكم أكثر من أي وقت مضى إلى المزيد من الواقعية والمزيد من الرجوع إلى النفس وتقويم الأمور، فإذا كنتم حقيقة تقاومون الاستعمار، فحركة الوحدة العربية هي المقاتل الأول ضد الاستعمار والصهيونية. والوحدة العربية بكل المقاييس بما فيها مقاييسكم ومنطق نظريتكم هدف تقدمي يجب تحقيقه. إن تحقيق الوحدة لا يتناقض مع الماركسية إذا ما نظر إليها بعيداً عن الاعتبارات الذاتية والأهداف السياسية الضيقة وقيود الماضي وما حدث من صراع واقتتال. إنكم مدعوون باسم المصلحة العامة، وباسم المبادىء السامية لتحرير الشعب أن تضعوا وراءهم آثار الماضي وما أفرزته الحوادث الدامية أحياناً من آثار، فالصالح العام يجب أن يكون فوق كل شيء، لاسيما الاعتبارات التي ثبت بطلان الأسس التي قامت عليها. لنرجع جميعاً إلى الشعب وإلى واقع الأمة، ولتنصب جهودنا

على تحقيق التقدم الملموس للجماهير، بعيداً عن الأوهام وخيال النظريات. لقد تطور بعضكم بهذا الاتجاه، وهو أمر يدعو إلى الاحترام والتقدير، فظهرت عبارة (الماركسيون العرب) أو (الماركسيون القوميون). إنه تغيير يدل على البداية الصحيحة. نعم، يستطيع أي منا أن يكون ماركسياً، أو أن يكون أي شيء يريد، ولكن ضمن دائرة العروبة ومحيط الأمة العربية ومجال المبدأ القومي الأعلى: مبدأ الوحدة. إن القومية ليست نظرية بل هي مصدر النظريات. لنكن قوميين أولاً، وبعدها نستطيع أن نكون أي شيء نريد، ونعتنق أية نظرية نرغب. القومية هي وجودنا السابق على كل شيء، ويأتي قبل كل شيء، إذ ما معنى أن نكون ماركسيين أو أي شيء آخر إذا لم نوجد أولاً؟

— ٢٨ —

قال السائل المستوضح الكريم: **وماذا عمن يُسمّون اليوم بالإسلاميين؟** قلت له: إن الحديث في هذا المجال مُلحّ، وفي وقته. إنك تتذكر أيها السائل المستوضح الكريم إنني ذكرت في وقت سابق ان الخلاف بين العروبة والإسلام خلاف مصطنع من الأساس، إذ كيف يمكن أن يكون هناك خلاف والإسلام أكبر نهضة في تاريخ العرب؟ ولكن الخلاف قد حصل إلى حدّ ما. أما إذا أردت أن أحدثك عن الأسباب فذلك ممكن، فأقول إن سبب ذلك الخلاف مزودج تختلط فيه العوامل الذاتية بالتعصب وسوء فهم الإسلام

أساساً. إذا كان الاتجاه الإسلامي يريد تحقيق وحدة المسلمين في العالم فكيف يمكنه أن يعارض وحدة الأمة العربية؟ أليس الوطن العربي قلب العالم الإسلامي؟ أليس العرب هم نواة المسلمين والصف المتقدم فيهم من حيث فهم الإسلام والقدرة على حمل مسؤوليته؟ إن هذه المسألة من البساطة والوضوح إلى درجة يستغرب الإنسان كيف يمكن أن تكون موضع جدل أو اختلاف.

الإسلام كمبادىء أخلاقية وكروح ثورية تقدمية لتجديد المجتمع وتحريره من الاستغلال والظلم أمر لا خلاف عليه. ودور الإسلام في التاريخ معروف، وكونه أضخم جزء من التاريخ العربي وأكثر حضارات العرب إشراقاً أمر كذلك لا خلاف فيه. بقيت مسألة واحدة هي تطبيق الشريعة على الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية للمجتمع. إن هذه المسألة التي يحتدم حولها الجدل والخلاف هي اجتهاد يصح عليه كما على الاجتهادات الأخرى في كيفية تنظيم المجتمع، لذلك، فهي لا تصح أبداً، ولا ترقى اطلاقاً إلى مرتبة القضية الجوهرية في حياة الأمة، ألا وهي وحدتها القومية. ويستطيع أي سائل من عامة الناس أن يسأل ببساطة لماذا يتعارض موضوع تطبيق الشريعة مع الوحدة العربية؟ ألم يكن الوطن العربي موحّداً في ظل الإسلام؟ ألا يتطلب الإسلام أن يتوحد العرب اليوم؟ إن مسألة تطبيق الشريعة اجتهاد يحتمل المناقشة وليس من العسير تلمس مواضع الضعف فيه، إلاّ أن ذلك ليس ما نحن فيه الآن. ما نحن فيه الآن هو السؤال الجوهري: **لماذا وبماذا**

يختلف الإسلاميون عن الاتجاه الوحدوي القومي؟ هل يمكن أن يكون الإسلام ضد الوحدة العربية؟ الجواب بالطبع: كلا على وجه التأكيد. إذن، لماذا لا تتّحد الجهود وترصّ الصفوف وتتّحد الجبهة ضد الاستعمار والصهيونية والتجزئة لبناء الوحدة العربية؟ واعلم أيّها السائل المستوضح الكريم أن الإسلام كان دوماً روحاً للعروبة، وكان العرب دوماً رأس الرمح في نشر الإسلام وإعلاء كلمته. إن شق الصفوف لم يكن أبداً مبرراً ولا منتظراً ولا مقبولاً ولا مرغوباً إلا من قبل أعداء الوحدة وأعداء الإسلام. إن التعصب وضيق الأفق والهواجس الذاتية واصطناع الخلافات لن تؤدي إلا إلى مزيد من الضعف والتفكك، ولا يستفيد منها إلا أعداء الإسلام، وهما الاستعمار والصهيونية. لتتحد جميع القوى أولاً من أجل الوحدة العربية، ولتكن مسألة شكل النظام اجتهاداً مفتوحاً لمن يختاره. وضمن الأمة وفي داخل إطار وحدتها يمكننا أن نجتهد، وأن نختلف، وأن نتبارى في صياغة أفضل الأنظمة التي تؤدي إلى تقدم ورفاهية شعبنا. واعلموا أن الوحدة العربية لا تتعارض مع ما تقولون به أو تهدفون إليه. واعلموا أن أعداء العرب والطامعين في أرضهم وثرواتهم حلفاء للاستعمار ومتعاونون مع الصهيونية علنا أحياناً، وفي السرّ أحياناً، وعلينا أن نكون واقعيين في التشخيص، فلا ننخدع أو نخدع أنفسنا. إن الإسلام يمكن أن يكون ستاراً للخديعة والتمويه من قبل بعضهم من غير العرب، ممّن يدعون إلى الإسلام، وعلينا ألاّ ننخدع بذلك.

أيّها الأفراد المستقلون. أيّها المواطنون ممن لم تصنفوا في هذا الاتجاه أو ذاك؛ مَنْ كان منكم لديه مثقال ذرّة من وعي قومي، ومثقال ذرّة من تأييد لقضية الوحدة العربية، فالواجب يدعو إلى التكاتف ورصّ الصفوف وتوحيد الجهود مع جميع الوحدويين من كل الاتجاهات والمذاهب والنظريات. الواجب يدعوكم إلى ذلك إذا كنتم تريدون للوحدة أن تتحقق. إنكم قد لا تتفقون مع هذا الفريق أو ذاك في هذا الشيء أو ذاك، وربما لا يعجبكم تصرّف أصحاب هذا الاتجاه أو ذاك، ولكن ليس ذلك هو المهم، بل المهم أن يضع كل واحد عصاه مع عصي الآخرين ليكون الجميع حزمة واحدة يستحيل كسرها. إنك أيها الفرد المستقل قد يعجبك هذا الشخص أو الأشخاص في هذا الفريق، وربما لا يعجبك، وقد تحب أو لا تحب هذا الشخص أو ذاك، كما قد يكون لحقك أذى من هذا الشخص أو ذاك في الماضي، أذى مادي أو معنوي، صغيراً كان أم كبيراً، ولكن ذلك يجب ألاّ يكون عائقاً في طريق وحدة الصفّ وتصافح الأيدي واجتماع الكلمة. إن جميع الخلافات المبدئية والشخصية، وجميع عواطف الحب والكره يجب أن تترك في الخلف، فنتجاوزها لما هو أرقى وأعلى في سلّم العلاقات الإنسانية، فيجتمع الجميع على مبدأ الوحدة، وليحتفظ من يريد أن يحتفظ بآرائه وعواطفه وهواجسه الداخلية لغير هذا المجال: مجال النضال المشترك من أجل الوحدة، فذلك هو دليل التحضر ومقياس الشعور بالمسؤولية، والعلامة الدالة على الوطنية الحق، والمؤشر الأكيد على الإخلاص

لقضية الشعب والوطن. فالمصلحة العامة فوق كل شيء، وقبل الجميع، تعلو ولا يعلو فوقها شيء. الوحدة أولاً وقبل كل شيء، وكل ما عداها مؤجل في الوقت الحاضر. إن الشعار الصحيح يجب أن يكون أيها الوحدويون، أيها المخلصون، من جميع الاتجاهات: اتحدوا، اتحدوا، اتحدوا.

ـ ٢٩ ـ

والآن وبعد أن خاطبنا فئات الشعب، ألا يعتريك أيها السائل المستوضح الكريم العجب؟ قال: وما ذلك العجب؟ قلت له: للّه درّ هذا الهدف القومي، كم هو عظيم في مكانته، وكم هو سامٍ في مراميه، وكم هو نافع في نتائجه؟ وعجبي ممّن لا يستطيع أن يرى ذلك واستغرابي عمّن لم يلتفت إليه، فكيف يستطيع الفرد العربي، كائنا من يكون ومهما كانت مهنته أو الطبقة التي ينتمي إليها، أن يكون بمعزل عن الجهد العام الذي يبذله الوحدويون لتحقيق الوحدة؟ كيف يستطيع أن يكون مرتاح البال وراضي الضمير وهو يرى كل الذي يحدث لنا في وضع التجزئة وبسببه، ويعرف تماماً أن الوحدة ستغيّر كل ذلك ولا يتبعها ويذود عنها ويبذل من أجلها كل غال ورخيص؟ فالأمر لا يكتنفه التعقيد، والرؤية لا يحجبها الضباب. فالأمر واضح وبسيط ولا يحتاج الإنسان منا إلى غير الحصافة والإدراك الاعتيادي ليرى ذلك وليتوصل إليه. فالقومية، كما قلنا، ليست نظرية بل هي شعور ينبع من أعماق النفس، والوحدة ليست

نظاماً بل هي الوضع الطبيعي لوجودنا كأمة، فذلك ما يجب أن نكون عليه بكل المقاييس وحسب كل الأحكام، وليس ما نحن فيه الآن. إنها التجزئة التي تحتاج إلى التبرير وليست الوحدة، فالوحدة هي الوضع الطبيعي، والتجزئة هي الوضع الشاذ. فلو سألني أحد لماذا تنادي بالوحدة، لقلت له: أنا الذي أسألك لماذا توجد هذه التجزئة، وعليك أنت أن تجيبني بما يقنع ولن يقنع كل ما تورده من حجج، فهي الشذوذ والمستغرب والجالب لكل ما هو ضار؟ يريدها بعضهم، ونحن لم نصنعها، بل أرادها العدو الأجنبي، فهو الذي صنعها وفرضها علينا وحماها وأمدّها بأسباب البقاء إمعاناً في الإضرار بنا واسترسالاً في تحقيق مصالحه. إن كان لديك شك بذلك فأخبرني، وإن لم يكن فمالك إذن تجانب الانسجام مع نفسك وتعاف المنطق البسيط في الكلام؟ قل لي كيف لا أكون ولا أدعو ولا أعمل ولا أضحي من أجل الوحدة، وهي على ما ورد من المزايا، والتجزئة على ما ورد من العيوب؟

نعم أيها السائل المستوضح الكريم، الوحدة هي الوضع الطبيعي، والتجزئة هي الوضع الشاذ. وإنْ سألت عن السبب، أجيبك، لأن الوحدة هي الوضع الطبيعي للأمة والتجزئة هي الوضع الشاذ لها. والمقصود بالأمة هي الأمة العربية، ذلك الكائن الحي القديم المستمر في الحياة، فالحاضر كما تعلم لم يأت من فراغ بل من الماضي، والماضي غير منفصل عن الحاضر بل متصل به وذلك شأن المجتمع الإنساني في إطار الأمة يعيش مع الزمن، فأعضاؤه متصل

بعضهم ببعض وعمره متصل بعضه ببعض، كالشجرة جذورها هو الماضي وجذعها وأغصانها وأوراقها وثمارها هو الحاضر. الأمة كائن حي، لأنها مكوّنة من أفراد أحياء تربطهم مجموعة روابط ويعيشون في مجتمع معين مترابط الأجزاء يتفاعل بعضه مع بعض مما كوّن له شخصية وملامح وصفات ومزايا وطريقة حياة وتفكير وعادات وقوالب فكرية وسلوكية جعلته بكل تلك الصفات مجتمعاً محدداً يختلف عن المجتمعات الأخرى، ذلك هو المجتمع القومي وتلك هي الأمة. وحذارِ أيّها السائل المستوضح الكريم أن تقع في تلك الأخطاء التي تعدّ الحاضر من صنع القانون، فالقانون لا يخلق المجتمع ولا يوحّد الأمة بل هو مجموعة قواعد تضعها الأمة لتنظيم ناحية من نواحي حياتها، فهو نتاج إرادتها، لذلك تستطيع تغييره عندما تشاء. الأمة هي التي تخلق القانون، وليس العكس. القانون لا يخلق الأمة. إنني أقول ذلك لغرض أن أوضح أن دولة التجزئة قد اقترنت بوضع قانوني من حيث إنها ذات دساتير تنص على وجودها وحدودها، وبذلك يقال، كما يدعي أصحاب هذه النظرية، انها اكتسبت شرعية. إن الدولة القطرية قد خلقها قانون بالمعنى الشكلي للقانون، وأقصد بذلك ان قرار انشائها قد تمّ بدستور شرّعته جهة تشريعية من نوع ما تختلف من حالة إلى أخرى، حسب الوضع السائد في القطر المعين، وذلك هو أساس الشرعية كما يدعيها أصحاب هذا الرأي. إن الذين يقولون بالنظرية القانونية في قيام المجتمع يغفلون أمرين جوهريين، **الأول**، هو أن القانون مهما كانت منزلته لا يخلق

الأمة بل الأمة تسبق وجود القانون، وهي صاحبة الإرادة، وهي كائن اجتماعي موجود ومستمر في الحياة. الأمة هي التي تخلق القانون وليس العكس. الأمر **الثاني**، هو أن أصحاب هذا الرأي لا يهمهم الجوهر بل يتعلقون بالشكل، فهم يغفلون تماماً كيف قامت الدولة القطرية والإرادة التي أنشأتها، هل هي إرادة الشعب حقاً أو إرادة الأجنبي؟ هل كانت تلك الهيئات التشريعية ممثلة عن حق لإرادة الشعب أو أنها كانت مجرد أشكال وهياكل خارجية؟

إن الأمة العربية قديمة ومستمرة في الوجود وتغوص جذورها في أعماق التاريخ، وستبقى موجودة بالرغم من وجود الدولة القطرية التي لم تستطع أبداً طمس إرادتها وتغيير معالمها. إن الشعور القومي موجود وتاريخ العرب الحديث عليه من الأدلة والشواهد ما يكفي للتدليل على ذلك الشعور، بالرغم من كل شيء. فمن الذي يستطيع أن يقطع المجتمع من جذوره ويغير معالمه عن طريق سنّ القوانين؟ القوانين مهما كانت ومهما منحتها الدولة القطرية من قوة معنوية وقدرة مادية على التنفيذ لا تستطيع أن تغير حقيقة الأمة التي هي كائن حي لم يتكوّن اليوم ولا في الأمس القريب.

إن المهم والمشرق والغني من تاريخ الأقطار العربية، هو ذلك المعلق بكونها جزءاً من الأمة العربية، وما عدا ذلك ثانوي باهت التأثير والمغزى. إننا اليوم بتفكيرنا وسلوكنا ومزايانا وصفاتنا ومزاجنا وعاداتنا وتقاليدنا وطاقاتنا أبناء الأمة العربية وليس أبناء الأقطار التي نعيش فيها. إن دستور القطر وقانون الجن[illegible] السابقة ان القضية

المتصلة بذلك لا تستطيع أن تخلق أمة جديدة لم توجد من قبل، بل الأمر الحقيقي هو أن الأمة موجودة والقانون أحد أنشطتها ومجالات عملها، فهو إنتاجها ووليد إرادتها، فالقانون لا يعدو أثره أن يكون تعبيراً عن إرادة الأمة وليس فوقها ولا سابق لوجودها، ولا هو خالق لها، كما يحلو لأصحاب النظرة القانونية أن يتصوروا. إن الشرعية اصطلاح بشري وليس قانوناً أزلياً سابقاً لإرادة الإنسان، والشرعية لا يمكن أن يوفرها الشكل بل لا بد من توفر الجوهر أولاً وقبل الشكل. إنني أعجب كيف يمكن الإنسان العربي ألاّ يكون قومياً ولا ينادي ويعمل من أجل الوحدة العربية.

قال السائل المستوضح الكريم: ولكنَّ هناك فريقاً آخر من المواطنين لم يرد ذكرهم، ولم تتجه إليهم بالدعوة، وهم الذين يمكن تسميتهم بالقطريين. قلت: هل تقصد الذين يكتفون بحدود القطر، ويتمسكون بالتجزئة الحالية؟ قال: نعم، وعندها شعرت أن السائل المستوضح الكريم يريد طرح موضوع القطرية أو وضع التجزئة، ورأيت بذلك مناسبة جيدة **لأن أعود إلى موضوع الدولة القطرية.** قلت: إنني أدرك وأقدّر الموضوع الذي تشير إليه، وفي صدد ذلك أود أن أقول إن الدولة القطرية هي الوضع السياسي الموجود حالياً بدلاً من الوحدة، وقد مضى على هذا الوضع بعض الوقت الذي يعدّه بعضهم ليس قصيراً، فهو يعود في ما يتعلق بأغلبية الأقطار [illegible] الى الحرب العالمية الأولى عندما أقدمت الدول الاستعمارية المرين [illegible] العربي في معاهدة سايكس - بيكو

المعروفة، وتوزيع النفوذ فيه. ان بعض القطريين (إن صحّ التعبير) يرى في الزمن الذي مرّ دليلاً لصالح التجزئة، باعتبار أن وضع التجزئة قد صمد خلال كل تلك المرحلة ولم تستطع حركة الوحدة العربية أن تغيّره. ولكني أستطيع أن أقول من جانب آخر إن الزمن الذي مرّ قد كشف مواضع الضعف في التجزئة وبذلك يكون الوقت قد وفّر الدليل على العكس مما يقول القطريون. عندها انتبه السائل المستوضح الكريم، وأراد أن يدفع الموضوع إلى مزيد من النقاش، فقال متسائلاً على الفور: وأين مواضع الضعف؟ **ما الأمور التي تدلل على إخفاق وضع التجزئة؟** قلت مجيباً عن هذا السؤال المهم المباشر: إن وضع الأمة العربية الحالي وضع متخلف من جميع الوجوه، ولا يستطيع أحد بمن فيهم القانعون بالتجزئة أن يقول عن تأكد وقناعة أنه وضع جيد أو مقبول، ولا أظنني أحتاج إلى أن أسرد لك الدلائل المادية والمعنوية على تردّي الأوضاع في الوطن العربي اليوم وفي جميع الوجوه وفي المجالات كافة. ومن أجل التلخيص والتحديد أود أن أقول: إن الدولة القطرية قد أخفقت في المجالات كافة، إلا أن الإخفاق كان واضحاً وأكيداً في مجالين أساسيين هما: التنمية والأمن. وهل هناك ما هو أهم من التنمية والأمن؟ قال السائل المستوضح الكريم: **وكيف كان ذلك في التنمية والحديث عن الثروة النفطية العربية يملأ الآفاق في كل مكان؟** قلت له: إن الجواب عن ذلك لا بد من أن يتضمن بعض الشرح. ألا تتذكر أنني ذكرت في معرض الإجابة عن بعض الأسئلة السابقة ان القضية

المركزية في علاقة الوحدة بالتنمية هي توسيع السوق أمام التنمية؟ إن توسيع السوق عبارة تقال، إلا أنها تنطوي على أمور كثيرة تحتاج إلى الإيضاح؛ فموضوع السوق موضوع قائم بذاته في الدراسات الاقتصادية من حيث علاقته الوثيقة بالتنمية.

قال السائل المستوضح الكريم: إنني أرغب في أن أسمع ما لديك، وأرغب هذه المرة في أن أسمع جواباً فيه بعض التوسع. فقلت: **إن الذي يبحث في مسألة التنمية الاقتصادية يعرف ان العوامل المهمة في التنمية هي توفر رأس المال وسعة السوق**، وربما أن رأس المال يعدّ متوفراً إذا ما أخذت البلدان العربية كمجموعة اقتصادية، لذلك تبقى مسألة سعة السوق هي الخانق المركزي.

ـ ٣٠ ـ

إن **مسألة اتساع السوق** تكتسب أهمية خاصة لكل بلد عربي لديه خطط طموحة إلى تنمية قطاع الزراعة، في الوقت الذي يطمح فيه إلى تنمية الصناعة المدنية والعسكرية. وكمدخل إلى الموضوع لا بد من اعطاء تعريف بسيط للتنمية. بالرغم من تعدد التعاريف هناك مفهوم بسيط نستطيع بموجبه أن نقول **إن التنمية تتحقق عندما يستطيع البلد إنتاج السلع الإنتاجية، بالإضافة إلى السلع الاستهلاكية**. والمقصود بالسلع الإنتاجية هي السلع التي تستعمل في إنتاج سلع جديدة، استهلاكية كانت أم إنتاجية، والمثال على ذلك هو الآلات والتجهيزات التي تتكوّن منها المصانع المنتجة لسلع أخرى.

ومن هذا التعريف يتضح **أن هناك فرقاً بين التقدم الاقتصادي والتنمية الاقتصادية.** فالأول عموماً يعني الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أعلى منها، بغض النظر عن مكان تلك المرحلة في سلّم التنمية الاجتماعية. فمثلاً: العراق يستورد السكر للاستهلاك المحلي، فإذا ما شيّد مصنعاً لتكرير السكر الخام المستورد فإنه يحقق تقدماً اقتصادياً، وإذا ما استطاع بعد ذلك أن يبني مصنعاً لصناعة السكّر من القصب أو من البنجر، ابتداء من المادة الخام المنتجة محلياً وانتهاءً بالسكر الجاهز للاستهلاك، فإنه بذلك يكون قد حقق خطوة أخرى في مجال التقدم الاقتصادي، ولكنه لم يدخل مرحلة التنمية الاقتصادية الحقيقية. وعندما يصبح قادراً على أن يؤسس صناعة لإنتاج الآلات التي تستخدم في إنشاء المصانع لصناعة السكر يكون قد دخل مرحلة التنمية الحقيقية.

وبناء على هذا الفهم للتنمية الاقتصادية يبقى ضيق السوق في العراق عاملاً مهماً في الحدّ من إمكانية الوصول إلى التنمية الحقيقية. إن ضيق السوق الداخلي الذي تحتاج إليه صناعة السلع الإنتاجية يجعل هذه الصناعة غير اقتصادية، وبالتالي يكون المستورد منها أرخص من المصنوع محلياً. إن صناعة السلع الإنتاجية لا يمكن أن تكون اقتصادية إلا إذا توفر سوق يستطيع أن يستوعب الحد الأدنى من الإنتاج اللازم لجعل الصناعة اقتصادية، والحد الأدنى هذا هو قطعاً أكبر ممّا يستطيع السوق المحلي للعراق أن يستوعبه. إن صناعة ما قد يكون من الممكن أن تنشأ في البداية على أساس غير

اقتصادي فتقوم الدولة بتحمل خسائرها بقصد تحقيق هدف أمني أو اجتماعي، إلا أن ذلك لا يصح إلا إذا كانت تلك الخسارة موقتة، إذ إن الدولة لا يمكن أن تتحمل خسارة صناعة ما من دون حدود زمنية، وهو حتى لو صح على صناعةٍ ما، فإنه لا يمكن أن يصح على مجموع الصناعة في البلاد، إذ لا يمكن أن نتصور قطراً كالعراق مثلاً يقوم بإنشاء جميع صناعاته على أساس غير اقتصادي وتسديد الخسائر الناجمة عن ذلك من ميزانية الدولة لأمد غير محدود. إنه إن فعل ذلك، فلن يحقق تنمية اقتصادية حقيقية مهما كانت موارده النفطية، إذ إن هذه الموارد نفسها غير دائمة، كما أن صناعة من هذا النوع لا يمكن أن تشكّل قاعدة لتنمية حقيقية، لسبب بسيط هو أنها لا تنتج فائضاً يمكن أن يستخدم لتمويل الاستثمارات الجديدة التي من دونها لا تستمر التنمية.

ومما زاد الطين بلّة دخول عامل جديد هو التطور التقني، وذلك بتأثيره في حجم الوحدة الاقتصادية. المعروف أن الصناعة الحديثة تقوم على أساس الوحدات الإنتاجية، ولكل وحدة طاقة إنتاجية محددة، ولأجل أن يكون استخدام هذه الوحدة الإنتاجية اقتصادياً يجب تشغيلها بالطاقة المحددة لها. أما إذا شغلت بأقل من طاقتها القصوى فيكون استخدامها غير اقتصادي وترتفع بذلك كلفة الإنتاج. لنفرض على سبيل المثال، أن صناعة من الصناعات مكوّنة من وحدات إنتاجية، والوحدة الإنتاجية ذات طاقة اقتصادية هي (٥٠) ألف وحدة من سلعة ما من السلع. إن هدف الوحدة من

أجل أن تشغل اقتصادياً يجب ألاّ ينخفض إنتاجها عن (٥٠) ألف وحدة من تلك السلعة. لنفرض أن سوق العراق يستطيع أن يستوعب هذه الخمسين ألف وحدة من هذه السلعة، فتقوم الدولة بتأسيس معمل بطاقة إنتاجية مقدارها (٥٠) ألفاً وتمنع الاستيراد، فتقوم هذه الوحدة بسدّ حاجة السوق المحلي. وبعد مدة من الزمن يكون قد حصل تطور تقني غيّر من طريقة الإنتاج فضاعفها، فأصبحت الوحدة الجديدة من هذا المصنع بإمكانها أن تنتج (١٠٠) ألف من تلك السلعة بالكلفة نفسها، أي أن الحدّ الاقتصادي للوحدة الجديدة أصبح (١٠٠) ألف وحدة من تلك السلعة. إن الذي يحصل نتيجة ذلك هو أن كلفة إنتاج هذه السلعة في الخارج تنخفض إلى النصف بالنسبة إلى كلفة الإنتاج من المصنع في العراق. وعندها، إما أن تقوم الدولة بتحمل الخسارة وتستمر في الإنتاج، وهو أمر لا يمكن أن يستمر في الأمد الطويل، أو أن تقوم بتجديد المصنع بإحلال الوحدة المتطوّرة مكان الوحدة القديمة. ولكن الوحدة الجديدة المتطورة، من أجل أن تكون اقتصادية يجب أن تشغل بطاقة قصوى، وهي (١٠٠) ألف وحدة من السلعة، في حين ان السوق لا يستوعب أكثر من (٥٠) ألفاً. فماذا نصنع بفائض الإنتاج؟ وقد يكون الجواب هو التصدير. ولكن هل عملية التصدير سهلة لبلد مبتدىء بالصناعة يدخل سوق المنافسة في العالم ويزاحم الدول الصناعية المتقدمة ذات الإنتاجية العالمية التي قطعت أشواطاً بعيدة في زيادة الكفاءة وتخفيض الكلفة والقدرة على التطور التقني الذي

يساعد كثيراً على تخفيض كلفة الإنتاج؟ تلك هي الحلقة المفرغة والمعضلة التي تواجه عملية التنمية عندنا وفي عموم بلدان العالم الثالث الصغيرة الحجم.

إن الارتفاع المستمر بالإنتاجية وتخفيض الكلفة والتطور التقني أمور تحققت للدول الصناعية بفعل تاريخ طويل من التطور الصناعي، ابتداءً بمرحلة الاستعمار والسيطرة على أسواق المستعمرات، وصولاً إلى الوقت الحاضر، حيث التقدم التقني على أشدّه لزيادة الإنتاجية وتخفيض الكلفة.

إن حرق جميع هذه المراحل بالنسبة إلينا أمر صعب من دون شك. هذا هو الحال بالنسبة إلى السلع الاستهلاكية أو معظمها في الأقل، والحال أكثر صعوبة بالنسبة إلى السلع الإنتاجية. ومن ذلك نستطيع أن نستنتج ما يأتي:

إن التقدم الاقتصادي (وفي النهاية التنمية الاقتصادية) تحتاج إلى توسيع السوق المحلي في العراق سواء في قطاع الزراعة أم في قطاع الصناعة المدنية والعسكرية. هذا هو السبب الذي يجعل الصناعة الكبيرة ذات الإنتاج الواسع التي يتوفر لها سوق يستوعب الإنتاج بطاقتها القصوى أكثر اقتصادية، لأن سعة الإنتاج تؤدي إلى انخفاض الكلفة.

إن الصناعة الواسعة تتمتع بما يعرف بوفورات الإنتاج الكبير التي أهمها المقدرة على استخدام نتائج التقدم التقني. إن سعة السوق

هي المفتاح لذلك، وسعة السوق لا يحققها بأفضل وجه غير الوحدة.

ــ ٣١ ــ

والآن أيها السائل المستوضح الكريم لا بد من أن أقول بعض الشيء عن موضوع الأمن، وهو الشق الثاني من حديث الإخفاق الذي حققته دولة التجزئة. في هذا المجال، الأمور واضحة على ما أظن، فالصهيونية قد احتلت حتى الآن كامل فلسطين، حيث توسعت من حدود قرار التقسيم إلى حدود ١٩٤٨ ثم إلى حدود ١٩٦٧، وهي تحتل بالإضافة إلى كامل التراب الفلسطيني أرض الجولان في سوريا والشريط الحدودي من الأراضي اللبنانية وتبسط نفوذها على جزء مهم من جنوب لبنان، والمسلسل مستمر. وهي تقوم الآن بعملية استيعاب اليهود السوفيات وتهجّر اليهود أينما وجدوا في العالم إلى الكيان الصهيوني. وقد بنت إسرائيل قوة عسكرية تفوق قوة جميع البلدان العربية مجتمعة، وهي مسلحة ذرّياً، الأمر الذي أصبح معروفاً للقاصي والداني، والقوة العسكرية الصهيونية مصممة ومهيّأة ومعبّأة خصيصاً للعدوان على البلدان العربية، والمطامع الصهيونية في البلدان العربية لا يحدّها حدّ، فهي تمتد حيثما تستطيع أن تمتد. كما أن الأمن العربي مهدد في مواضع أخرى، فالحركة الانفصالية في شمال العراق ترعاها الدول الاستعمارية والكيان الصهيوني وتشكّل مصدر استنزاف وخطر

داهم للعراق. وجنوب السودان فيه حركة انفصالية على الشاكلة نفسها تقريباً. والحدود الموريتانية مع السنغال مهددة أيضاً بتمرد انفصالي ترعاه السنغال. كما يشار إلى تطلع ايران إلى مناطق نفوذ في الخليج العربي، وتطلعها أيضاً إلى بسط نفوذها على المناطق المتاخمة في العراق، حيث توجد العتبات المقدسة. كما لا يخفى ما لتركيا من مطامع في المياه والموارد العربية وفي النفوذ في السوق العربي اقتصادياً. إن جميع هذه الأخطار ما كانت لتكون ابتداء، وما كانت لتنمو وتستمر لو لم يكن الوطن العربي مجزأً ضعيفاً متناحراً يضرب بعضه بعضاً، ممّا شجّع ميول الطمع ورغبات النفوذ والهيمنة عند المستعمرين والطامعين على المضي في خططهم.

إن حالة الضعف والفرقة ما كان لها أن توجد أصلاً وأن تتفاقم لو كان الوطن العربي موحّداً في دولة واحدة. إن الضعف عامل مشجّع على العدوان والأطماع، في حين ان القوة من شأنها كبح تلك الميول وقتلها قبل أن تولد. فهل بعد كل ذلك تحتاج إلى مزيد من الأدلة والبراهين على الإخفاق في حماية الأمن القومي العربي؟ إن إخفاق الوضع القطري في حماية الأمن القومي أمر معروف، وقد كتب عنه الكثير. إن لجوء بعض الحكومات العربية إلى توثيق علاقاتها بالدول الاستعمارية، لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية هو بحد ذاته دليل على ذلك لا العكس، فالعلاقة مع هذه الدولة الاستعمارية العدوة المتحالفة استراتيجياً مع العدو الصهيوني تعني في الحقيقة تعريض الأمن القومي للخطر، لأن هذه الدولة عدو

للأمة وذات مطامع في ثرواتها ومتحالفة مع العدو اللدود الذي يعمل على احتلال أراضيها وإبادة شعبها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. إن هذا النوع من العلاقة لا يمكن النظر إليه على أنه تقوية للأمن القومي العربي اطلاقاً، إذ كيف يكون التحالف مع العدو أمناً؟ إنه في الحقيقة ارتماء في الهاوية واستسلام للعدو وتسهيل لعملية التعرض للخطر المهدّد للأمن العربي.

ـ ٣٢ ـ

وكما يبدو، فقد أراد السائل المستوضح الكريم أن يتعرف إلى الجانب الخارجي للوحدة العربية فقال بعد تأمل: **وماذا ترى في أعداء الوحدة في الخارج؟ من أعداؤها، ومن أصدقاؤها؟** قلت له: إن الحديث عن أعداء الوحدة العربية في الخارج أمر مهم من باب معرفة العدو، وهو أمر قيل، فيه ما قيل، إلا أن الأمور ليست بالوضوح الكافي. إن العداء المستحكم خارجياً هو عداء المصالح، فالوحدة العربية خطر حقيقي على الاستعمار والصهيونية، ولا أقول ذلك للتفريق بين الاستعمار والصهيونية، بل هما في الحقيقة شيء واحد، فالصهيونية ربيبة الاستعمار، وهي اليوم أسوأ صورة له، لتجرّدها من الأخلاق والمثل العليا، والإمعان في الاستغلال والاضطهاد. إنها الاستعمار في أبشع حالاته. إن عداء الصهيونية للأمة العربية لا يوازيه أيّ عداء آخر، ولا يصل إلى درجته أي صراع آخر، فالصهيونية لا تقتصر في عدائها على استغلال العرب

واضطهادهم بل هي ترمي في نهاية الأمر إلى إبادة الأمة العربية واحتلال الوطن العربي وإزالة الشعب العربي من الوجود كلياً والحلول محلّه. والصهيونية تعرف ان العرب لن يقبلوا الكيان الصهيوني في أرضهم وبين ظهرانيهم، لذلك فكل الجسور منسوفة، وكل فرص حلول الوسط مرفوضة، والصراع أبدي نهائي لا رجعة فيه. والصهيونية تعرف أن الوحدة هي مصدر القوة للعرب وهي نقطة البداية لانقلاب كفة الميزان ضدهم وضياع أحلامهم والقضاء على مشروعهم الاستعماري. لذلك فالصهيونية تقاوم الوحدة العربية بكل الوسائل.

وأنت أيها السائل المستوضح الكريم لا بد من أنك لاحظت أن العداء المستحكم والمقاومة من قبل العدو الصهيوني لا تتجلى بالكلام، بل على العكس، انهم يعدّون التصريح بالعداء يقوي فكرة الوحدة عند العرب، لأن ذلك من شأنه تزكية الوحدة عند بسطاء الناس ممّن لم يصل إليهم الوعي القومي بعد، فالجمهور العربي عندما يسمع أن الصهيونية تصرّح علناً ضد الوحدة العربية يزداد تعلّقاً بها لشدة كرهه الصهيونية، فما تعاديه هذه الحركة الاستعمارية لا بد من أن يكون صحيحاً، لذلك تعمل الصهيونية، وبكل دهاء ومكر، ضد الوحدة، ولا تتكلم كثيراً ضدها، وهكذا كان موقفها من كل خطوة وحدوية حدثت في الوطن العربي. وتجدر الإشارة إلى أن العمل ضد الوحدة قد تضمن اجراء البحوث والتأليف والدسّ الثقافي والتشويش الفكري، فالصهيونية تقوم بالشيء الكثير

من ذلك في مراكز بحوثها ووسائل الإعلام المتنفذة فيها، ولكنها عندما تقوم بذلك تقوم به بأسلوب خبيث ملتوٍ يتخذ من البحث العلمي ستاراً مخادعاً. والصهيونية في عملها المتواصل ضد الوحدة تسخّر كل إمكاناتها، وتستخدم كل ما لديها من قوى لتخريب أية محاولة للتوحيد من خلال النشاط الاستخباري العسكري والسياسي والاقتصادي، وبمنتهى السرية والتستر وبالتعاون الوثيق مع حلفائها من الدول الاستعمارية، لاسيما بريطانيا والولايات المتحدة. وليس أقل أهمية في مجال نشاطها المعادي للوحدة هو الاتصال بالحركات الانفصالية وتشجيعها وتقديم العون لها في مختلف المجالات من تسليح وتدريب وغيرها من وسائل الدعم. ولاحظ أيها السائل المستوضح الكريم ان الصهيونية تحرص ألاّ تُظهر الفرح والرضا والتأييد العلني لإخفاق أية خطوة أو مشروع وحدوي للسبب نفسه الذي ذكرته، بل تلتزم الصمت بعد أن تكون قد سعت بكل ما لديها من حول وقوة لتحقيق ذلك الإخفاق، وهكذا يكون الخبث والدهاء في السياسة الصهيونية.

ـ ٣٣ ـ

أما الدول الاستعمارية المعادية للوحدة فهي في الدرجة الأولى الولايات المتحدة وبريطانيا. إن عداء الولايات المتحدة للوحدة العربية ذو أبعاد متعددة. هناك أولاً المصالح النفطية؛ فالولايات المتحدة تريد السيطرة على نفط البلدان العربية، وبذلك تستطيع السيطرة على

أوروبا الغربية واليابان التي لا تملك مصادر للطاقة. ويهم الولايات المتحدة أن تبقى هذه الكتل الاقتصادية المهمة في العالم معتمدة عليها في مجال النفط. إن قوة أوروبا الغربية في تصاعد فهي على أبواب وحدة سياسية بعد أن نجحت في تكوين وحدة اقتصادية، كما أن اليابان قوة اقتصادية أصبحت مؤثرة في اقتصاد الولايات المتحدة عن طريق الفائض في ميزانها التجاري، وحاجة الأخيرة إلى سوق اليابان لتعديل الخلل في الميزان التجاري. إن كلاً من أوروبا الغربية واليابان لا يملك مصدراً للطاقة، لذلك فمن مصلحة الولايات المتحدة السيطرة على أكبر مصدر للطاقة في العالم ألا وهو منطقة الخليج العربي. وقد أصبح هذا الأمر أكثر أهمية بعد تفكك الاتحاد السوفياتي الذي هو مصدر مهم للنفط الخام، ذلك التفكك الذي ربما أدّى إلى فقدان وحدة التوجيه في السياسة النفطية لذلك البلد الذي فقد وحدته السياسية.

كما أن الولايات المتحدة نفسها ستكون مستورداً للنفط بنسبة كبيرة من استهلاكها الداخلي، إذ تدل جميع المعلومات أن نهاية هذا العقد ستشهد ازدياداً مستمراً لاعتماد الولايات المتحدة على النفط المستورد لسد حاجتها المحلية. وتدل المعلومات أن المصدر الوحيد الذي يملك الطاقة والإمكانية لزيادة التصدير وإشباع ذلك الطلب هو منطقة الخليج العربي، وهي وحسب الترتيب في الأهمية: العربية السعودية والعراق والكويت والإمارات. إن المعلومات الإحصائية تشير إلى أنه عندما حصل حظر تصدير النفط من البلدان

العربية في ١٩٧٣ كانت الولايات المتحدة الأمريكية تستورد ٨ بالمئة من حاجتها من النفط، أما الآن فهي تستورد أكثر من ٣٠ بالمئة، علماً بأن أكثر من ٧٠ بالمئة من احتياطي العالم خارج الاتحاد السوفياتي (سابقاً) والصين موجود في دول الشرق الأوسط. وبذلك يستنتج خبراء الطاقة ان الولايات المتحدة ستصبح في السنوات القادمة المستورد الصافي لأكثر من نصف حاجتها من النفط. وحسب الاحصاءات التي جمعتها إدارة معلومات الطاقة الأمريكية ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية ومعهد النفط الأمريكي ومركز بحوث الطاقة في كمبردج ومركز الشرق ـ الغرب قد أوضحت، ان الموقف النفطي سيكون كالآتي:

يبلغ الإنتاج الإجمالي في الدول غير الشيوعية (سابقاً) نحو ٥٤ مليون برميل في اليوم، ضمنها (٢٢,٣) مليون برميل لمنظمة الأوبك. ويتوقع أن يرتفع طلب العالم الإجمالي من (٦٣) مليون برميل في اليوم في عام ١٩٨٧ إلى (٧٠,٦) مليون برميل في ١٩٩٥ ثم إلى (٧٤,٥) مليون برميل في عام ٢٠٠٠ حسب دراسة مركز الشرق ـ الغرب. ويتوقع أن تصل الفجوة بين ما تنتجه الدول النفطية وما تستطيع أن تنتجه كأعلى حد لها إلى (١٠) ملايين برميل في اليوم. وإذا كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي (سابقاً) والمكسيك وايران تنتج أقصى ما لديها من طاقة فإن كل الطاقة الزائدة تكاد تكون في قبضة الدول العربية الواقعة على الخليج العربي.

إذن، ومن أجل أن تحقق الولايات المتحدة الهيمنة على مصادر النفط، عليها أن تبقي الوطن العربي مجزأً ضعيفاً غير قادر على تكوين سياسة موحدة في إنتاج النفط الخام وتصديره. وقطعاً لم يكن للولايات المتحدة أن تشن تلك الحرب على العراق لولا هذا الاعتبار، اعتبار السيطرة على النفط في هذه المنطقة، ومعروف أن الوحدة العربية هي العائق الأول في سبيل تلك السيطرة، لذلك تقوم سياسة الولايات المتحدة الثابتة المستمرة على مقاومة الوحدة بشتى الوسائل والسبل.

وقد جاءت التطورات السياسية الأخيرة باضمحلال المعسكر الاشتراكي واختلال الموازنة الدولية إلى ظهور المطامع الأمريكية بصورة أوضح للسيطرة على العالم تحت غطاء ما يسمى بالنظام الدولي الجديد، الذي لم يعد قادة الولايات المتحدة يخفون حقيقة ما يقصدونه من ذلك ألا وهو الهيمنة على شؤون العالم. وإزاء ذلك فمن الطبيعي المنتظر أن تتعزز السياسة الأمريكية في مقاومة توحيد العرب وظهور قوة جديدة في هذه المنطقة من العالم، بينها وبين الولايات المتحدة تاريخ حافل بالعداء. إن السياسة الأمريكية الاستعمارية تقاوم ظهور القوى الجديدة في كل أرجاء العالم انطلاقاً من حسابات هذه الدولة الاستعمارية ألا وهو إضعاف المقاومة للسياسة الاستعمارية أينما تكون في العالم. إن الوطن العربي منطقة حسّاسة من العالم، تتمتع بمزايا اقتصادية أهمها احتياطيات النفط المخزون فيها وموقعها الجغرافي المهم، وسيطرتها على ممرات دولية

حيوية. فهذه البقعة من العالم يجب أن تظل ضعيفة مفككة متناحرة في نظر السياسة الاستعمارية، أما التوحيد والقوة وظهور دولة قوية جديدة فهو أمر لا ينسجم أبداً مع السياسة الاستعمارية لهذه الدولة. لذلك فجميع تفاصيل السياسة الأمريكية في المنطقة العربية تقوم على أساس تقوية الكيانات القطرية وتوثيق الروابط معها وحمايتها ومدها بما يسمى بالشرعية الدولية، والعمل واقعياً، وبشتى الوسائل على إضعاف أية محاولة للتوحيد مهما كانت، ومن أي جهة أتت، ومهما كان نظامها، وسواء أكانت الوحدة جمهورية أو ملكية، تقدمية أو رجعية فالاستعمار يقاومها.

إن الحركة الصهيونية قد ركّزت جهودها في الولايات المتحدة الأمريكية فأصبح تشابكها مع السياسة الأمريكية من خلال المؤسسات العلنية وغير العلنية ومن خلال الجهاز الانتخابي ونفوذ المال والشركات، لذلك أصبح من الصعب التفريق بين أهداف السياستين في المنطقة إلا من حيث اهتمام الصهيونية بالدرجة الأساسية بالسيطرة على الأرض، في حين ان السياسة الأمريكية تهدف إلى النفوذ والسيطرة على مصادر النفط الخام بصورة خاصة. إن كُلاً من الصهيونية والولايات المتحدة يعارض بصورة جذرية أي اتجاه نحو التوحيد في المنطقة أو حتى التقارب بين الكيانات العربية الموجودة الآن، ويسعى بكل الوسائل إلى تثبيت تلك الكيانات وتقويتها وحمايتها وتشجيع الاختلاف والتناحر في ما بينها. إن كل انقسام في الرأي في البلدان العربية يلقى الترحيب والتشجيع بشتى

الوسائل الخبيثة. وأنت تعرف أيها السائل المستوضح الكريم كيف تشجّع الصهيونية والولايات المتحدة الحركات الانفصالية وتمدها بالمال والسلاح والتدريب والتأييد السياسي، والأمثلة على ذلك معروفة، فحالات تزويد التمرد في شمال العراق بالأسلحة من قبل الولايات المتحدة أمر معروف الآن. ومن الحوادث التي نشرت الوثائق عنها ما أرسلته الولايات المتحدة من شحنات الأسلحة من خلال نظام الشاه في وقت رئاسة نيكسون، وعندما كان كيسنجر وزيراً للخارجية، الى التمرد في شمال العراق. واعلم أيها السائل المستوضح الكريم أنني سألت كيسنجر شخصياً في اجتماع معه في باريس، على هامش اجتماع الحوار بين الدول المتقدمة والدول النامية الذي دعت إليه فرنسا، عن سبب تورطهم بإرسال تلك الأسلحة إلى الحركة الكردية في الشمال، فأجابني معترفاً بها، بعد أن نشرت عنها وسائل الاعلام أنهم فعلوا ذلك لاعتقادهم في حينه ان حكومة العراق هي حكومة شيوعية. كما أن مسألة التدريب العسكري والتعاون الاستخباري بين الكيان الصهيوني والحركة الكردية في شمال العراق أمرٌ معروف. ويصحّ الشيء نفسه تماماً على الحركة الانفصالية في جنوب السودان.

— ٣٤ —

وبعد هذا الشرح استطرد السائل المستوضح الكريم فسأل: **وماذا عن موقف بريطانيا من الوحدة العربية؟** قلت له: إن هذه

الدولة الاستعمارية العريقة لا تقل خبثاً ولؤماً في معاداة الوحدة العربية، وإن كانت أقل تأثيراً الآن في الأحداث بعد ظهور الولايات المتحدة الأمريكية. أما عندما كانت مؤثرة في بداية هذا القرن فقد كانت الأولى في تمزيق الوطن العربي كلما وجدت الفرصة مواتية. ويكفي أن تعرف أنها أحد طرفي معاهدة سايكس ـ بيكو، السيئة الصيت، التي تمّ بموجبها اقتسام البلدان العربية المنسلخة من جسم الدولة العثمانية. كما يكفي أن تعلم أنها هي التي حوّلت نفوذ المشايخ في منطقة الخليج العربي إلى دول. وتفاصيل كل ذلك أصبحت الآن معلومات متداولة لمن يريد الاطلاع على تلك الجريمة النكراء التي ارتكبتها هذه الدولة الاستعمارية الممعنة في عداء الوحدة العربية. والكل يعرف أن هذه الدولة الاستعمارية عندما امتد نفوذها الى ليبيا بعد هزيمة ايطاليا في الحرب العالمية الثانية حاولت تكوين ثلاث دول هناك، هي طرابلس وبرقة وفزّان، إلا أنها لم تنجح في النهاية فقد أعلنت بالفعل دولة في برقة باسم برقة الدولة العربية الثامنة. إنك تعرف من دون شك ان بريطانيا هي التي مكّنت الصهيونية من فلسطين في أثناء عهد الانتداب على هذا القطر، وهي صاحبة وعد بلفور، وهي التي فتحت باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين وشجّعتها بشتى الوسائل وأمدّت العصابات الصهيونية بالسلاح وقمعت المقاومة العربية في فلسطين. إن هذه الدولة الاستعمارية عملت كل ما كان بوسعها لمقاومة فكرة الوحدة، ولم تترك وسيلة لمنع تحقيق أية خطوة وحدوية في الوطن

العربي. ولا تنسى أيها السائل المستوضح الكريم أن بريطانيا كانت أحد أطراف العدوان الثلاثي على مصر عبد الناصر التي تصدت لمقاومة الكيان الصهيوني وتحمّلت دوراً مهماً في الدعوة إلى التوحيد العربي. كما لا تنسى أيها السائل المستوضح الكريم ان هذه الدولة الاستعمارية كانت غاية في الحماسة في تشجيع الولايات المتحدة لقيادة العدوان الثلاثي على العراق. إنه سجل متصل حافل بسياسات وأعمال معادية للوحدة العربية في كل مجال، وحيثما مكّنتها قواها ذلك.

ـ ٣٥ ـ

قال السائل المستوضح الكريم: **إنك تتحدث عن إخفاق الدولة القطرية في تحقيق التنمية والأمن لعموم الوطن العربي، ونحن لدينا الآن هذه الأقطار العربية الممتدة رقعتها من المحيط إلى الخليج. ماذا عن أوضاعها قطراً قطراً؟ هل اتسمت تلك الأوضاع بالخيبة والإحباط؟** قلت له: نعم. وهل لديك شك بذلك؟ أتريد أن نأخذ تلك الأقطار قطراً قطراً لنرى ما تواجهه من مصاعب ومعوقات؟ قال: أتمنى ذلك. قلت: ليكن. لنأخذ تلك الأقطار من أقصى المغرب. أمامك **موريتانيا** ذلك البلد الفقير المكونة أرضه في أغلبها من الصحراء. يبلغ عدد سكانها أكثر بقليل من مليوني نسمة، ويبلغ معدل دخل الفرد السنوي فيها (٥١٠) دولارات، فهل يحقق هذا الدخل مستوى لائقاً من المعيشة؟ ألا ترى أنه منخفض جداً وأنه كان من الممكن أن يكون

أعلى بكثير لو كان اقتصاد موريتانيا جزءاً من الاقتصاد العربي الكبير المتنوع المتكامل الموارد؟ ماذا تستطيع موريتانيا أن تعمل الآن لرفع مستوى المعيشة؟ ما هي الموارد المتاحة غير المستغلة؟ ما هي إمكانيات التنمية الموجودة التي لم تستغل بعد؟ هناك ثروة سمكية كبيرة في موريتانيا، أليس بإمكان رأس المال العربي أن يستغلها لمصلحة مجموع الشعب؟ هناك بعض الإمكانيات الزراعية على ضفاف نهر السنغال، أليس من الممكن استغلالها لمصلحة زيادة الإنتاج الزراعي في موريتانيا؟ نعم كل ذلك ممكن، ولكن ذلك يتطلب أن يكون انتقال الفلاحين والعمال الزراعيين ورأس المال حرًّا بين الأقطار العربية وفي ظل قوانين واحدة، فينتقل الفائض من هذه الموارد من القطر الذي يوجد فيه فائض إلى موريتانيا حيث تكون فيه شحيحة. ان جميع خدمات التعليم والصحة والنقل والمواصلات والاتصالات والثقافة والفنون والتدريب المهني من الممكن أن تكون أفضل مما هي عليه الآن لو كانت موريتانيا جزءاً من دولة موحّدة تضم كل البلدان العربية. ثم لو كانت موريتانيا جزءاً من دولة عربية تضم كل الأمة العربية، هل كان ممكناً أن تواجه مشكلة الأقلية الزنجية الحالية ومشكلة النزاع مع السنغال ومشكلة عدم الاستقرار الداخلي؟ لو كانت موريتانيا جزءاً من هذه الدولة الكبرى التي تضم كل الأمة العربية، لما كانت هذه المشاكل أصلاً، ولما تعرّضت مواردها للاستنزاف، ولاستطاعت المحافظة على أمنها واستقرارها، ولعاش

شعبها في أمن واطمئنان وراحة. إن موريتانيا بوضعها الحالي تحتاج إلى كل شيء تقريباً مادياً وبشرياً، ويشكل ذلك معوقاً مهماً لتطورها ورفع مستوى معيشة الشعب فيها، وهو معوق من الممكن أن يزول أو يتناقص إلى حد بعيد لو كانت جزءاً من دولة كبيرة تضم جميع الأقطار العربية.

قال السائل المستوضح الكريم: **وماذا عن المغرب؟** قلت: نعم، والمغرب يصح عليه المنطق نفسه، والملاحظات نفسها. فالمغرب يبلغ عدد سكانه حوالى (٢٥,٧) مليون نسمة، ويبلغ معدل دخل الفرد فيه (١٠٣٠) دولاراً سنوياً، وحسب المعلومات المتوفرة تبلغ الديون الخارجية على المغرب ما يزيد على (٢٢) مليار دولار. إن مستوى معيشة المغرب منخفض بالنسبة إلى ما يجب أن يكون عليه لتحقيق حد أدنى لائق من المعيشة للفرد. إن المغرب ينفق الآن جزءاً مهماً من موارده على القوات المسلحة التي يحتاج إليها لمواجهة مشكلة الصحراء ولمواجهة النزاعات المحتملة، كما هو معروف. والمغرب بلد فيه زراعة وشيء من الصناعة، ويسعى جاهداً إلى ايجاد سوق لمنتوجاته الزراعية، لا سيما الحمضيات في أوروبا الغربية، ويلقى منافسة شديدة من اسبانيا والبرتغال وايطاليا. إن جميع هذه المشاكل المتعلقة بإيجاد الأسواق لمنتوجاته الزراعية من حمضيات وزيتون من الممكن أن تحل تلقائياً لو كان المغرب جزءاً من سوق الوطن العربي الكبير الذي تقوم بعض أقطاره الآن باستيراد هذه المنتوجات من الخارج.

إن المغرب يحتاج إلى رأس المال والملاكات العلمية المؤهلة وتطوير مرافقه في نواحي الخدمات كافة، ولا سيما في مجال الخدمات الصحية والتعليم. وجميع هذه الاختناقات ما كانت لتكون لو كان المغرب جزءاً من الوطن العربي الكبير. إن مشكلة الصحراء نفسها ما كانت لتوجد لولا وجود حالة التجزئة التي أدّت إلى قيام نزاع مع الجزائر وعلاقات معقدة مع موريتانيا، وبالتالي لوفّر المغرب جميع الموارد المالية والبشرية التي استنزفتها هذه المشكلة. ألَمْ يكنْ باستطاعة المغرب أن يسد حاجته من الطاقة لو كان جزءاً من الدولة العربية الموحّدة؟ طبعاً، نعم. ان جميع مشاكل التزوّد بالطاقة ما كانت لتوجد في الأساس لو كان الوضع كذلك. لو كان المغرب جزءاً من دولة عربية واحدة لما اضطر أن يقتطع من موارده الشحيحة ليصرف على مستلزمات الدولة الحديثة لاسيما في مجال الدفاع والمخابرات والسلك الدبلوماسي وجميع مؤسسات الدولة الحالية. صحيح أنه سيكون هناك حكومة محلية إلا أن هذه الحكومة هي قطعاً أبسط وأقل عدداً وكلفةً من الحكومة الحالية.

وبعد المغرب تأتي **الجزائر**. هذا القطر العربي المهم يبلغ عدد سكانه (٢٥,٧) مليون نسمة، ويبلغ معدل الدخل السنوي للفرد فيه (١٩٨٠) دولاراً، وهو بلد منتج للنفط إلا أن إنتاجه من النفط الخام أخذ في التناقص ممّا سيجعله في القريب العاجل معتمداً على الغاز أكثر من النفط الخام. إن الجزائر مدينة الآن،

وتبلغ القروض المترتبة عليها حوالى (٤٤,٥) مليار دولار، وتشكل أقساط الديون والفوائد المترتبة عليها جزءاً مهماً من التزاماتها السنوية التي تدفع من مواردها. لقد قامت الجزائر مباشرة بعد الاستقلال بحملة واسعة للتصنيع إلا أنها واجهت صعوبة في ايجاد الأسواق لتلك المنتوجات. وتعاني الجزائر نقصاً في اليد الفنية والملاكات الضرورية لاسيما في مجال التعليم لتنفيذ برنامج التعريب، ولديها نقص في الأطباء والخبراء الزراعيين. وتعاني الجزائر في الوقت ذاته مشكلة داخلية تتعلق بالاستقرار واختيار نظام الحكم الملائم، ولديها مشكلة مع المغرب تتعلق بالصحراء. إن جميع هذه المشاكل ولاسيما المشكلة الاقتصادية كان من الممكن أن تحل لو كانت الجزائر جزءاً من كيان كبير يضم الوطن العربي بأكمله حيث يتوفر لها السوق الواسع لتصريف المنتوجات والمصدر المهم لملاكات التعليم والصحة والزراعة ونواحي الحياة الأخرى، ولاستطاعت تجنب المشاكل السياسية مع جيرانها من الأقطار العربية، واستطاعت توفير الكثير من مواردها المالية التي تصرفها الآن على القوات المسلحة ومتطلبات الدولة الخارجية والداخلية، ولحلّت مشكلة التعريب. إن امتزاج شعب الجزائر مع بقية أبناء الشعب العربي وفتح الحدود مع الأقطار العربية من الممكن جداً أن يحلّ الكثير من المشاكل التي خلقتها العزلة التي فرضها الاستعمار الفرنسي خلال مدة وجوده في هذا القطر العربي المسلم.

وبما أنك أيها السائل المستوضح الكريم سألت عن جميع الأقطار العربية، وأردت أن نتناولها قطراً قطراً، لذلك أظنك تريد الآن أن تعرف ماذا كان من الممكن أن يكون عليه وضع القطر الذي يلي الجزائر وهو **تونس**. إذا كان الأمر كذلك، فإنك تعلم أن تونس بلد صغير، يبلغ عدد سكانه أكثر بقليل من (٨) ملايين نسمة، ويبلغ معدل دخل الفرد فيه (١٥٠٠) دولار في السنة. وتونس بلد فقير الموارد، فيه إمكانات سياحية جيدة، وينتج الفوسفات وكمية صغيرة من النفط. إن هذا القطر العربي الجميل يحتاج أكثر ما يحتاج إلى رأس المال والسوق الواسعة لتصريف منتجاته لاسيما الزراعية واستغلال موارده السياحية. وواضح أنه لو كان جزءاً من الوطن العربي الكبير لتحقق له كل ذلك ولارتفع مستوى معيشته، ولتدفق إليه رأس المال الفائض في بعض الأقطار العربية لتطوير موارده السياحية، ولاستطاع هذا القطر ايجاد السوق اللازم لتصريف منتوجاته الزراعية. لقد عانى هذا القطر مشاكل أمنية من بعض جيرانه وهو يصرف الآن جزءاً ليس باليسير من موارده على الجيش والأمن الداخلي، كان من الممكن تماماً أن يوفرها لو أتيح لهذه المشاكل أن تحلّ نهائياً. كما تستطيع تونس شأن بقية الأقطار العربية أن توفر على نفسها ما تصرفه الآن على متطلبات الدولة المستقلة كالمصروفات على الجيش والتمثيل الخارجي وعضوية المنظمات الدولية والأمن الداخلي وباقي أجهزة الدولة.

إنها قطعاً ستكون أكثر ازدهاراً وأمناً واطمئناناً وعمراناً وراحة مما هي عليه الآن لو كانت جزءاً من دولة عربية موحّدة.

أما ليبيا فيبلغ عدد سكانها حوالى (٤,٧) مليون نسمة، ومعدل دخل الفرد (٦٠٨٤) دولاراً في السنة، وتعاني نقصاً كبيراً في اليد العاملة، إذ فيها إمكانات زراعية غير مستغلة في منطقة الساحل في برقة وطرابلس، وتعاني نقصاً عاماً في اليد العاملة الفنية وغير الفنية من الممكن أن تحل بصورة نهائية لمصلحة التطور الاقتصادي لو كانت جزءاً من الدولة العربية الموحّدة، حيث تتحقق حرية انتقال اليد العاملة وحرية العمل وحرية الإقامة وممارسة المهنة. تقوم ليبيا بإنشاء قوات مسلّحة وتصرف عليها جزءاً كبيراً من مواردها النفطية، ولديها تمثيل دبلوماسي في الخارج، ولها حكومة فيها تضخم في عدد الموظفين وتصرف شأنها شأن بقية الدول على شؤون الأمن الداخلي والخارجي. وتعاني ليبيا مشكلة سياسية أمنية ناتجة من النشاط المعادي الذي تقوم به الدول الاستعمارية لاسيما الولايات المتحدة ضد حكومة هذا البلد. إن جميع هذه المشاكل ما كان لها أن توجد لولا الوضع القطري القائم، فلو كانت ليبيا جزءاً من دولة عربية موحّدة لما اضطرت أن تتحمل تكاليف القوات المسلحة ومصروفات الأمن الداخلي والخارجي وحدَها، ولاستطاعت تطوير مواردها الزراعية واستغلالها بصورة أفضل، ولتمكنت من سدّ النقص الموجود حالياً في ملاكاتها الفنية والخدمية لصالح التقدم والازدهار. إن

المشاكل الحدودية مع تشاد ما كان لها أن تكون بهذا الشكل، كما أن مشاكلها الحدودية الأخرى كان من الممكن ألاّ توجد أصلاً لو كانت ليبيا جزءاً من وطن عربي كبير واحد. إن القوة عامل رادع ومانع لكثير من المشاكل، والضعف عامل جاذب للمشاكل، لأنه يشجّع الطامعين على الطمع والاعتداء، لذلك فالدول الاستعمارية ستكون في وضع غير وضعها الحالي إزاء ليبيا لأن عليها أن تجابه دولة عربية موحّدة قوية تضم كل الأمة.

ـ ٣٧ ـ

أمّا **مصر**، أيّها السائل المستوضح الكريم، فوضعها يمثّل حالة صارخة الوضوح، فهذا القطر العربي يبلغ عدد سكانه حتى منتصف عام (١٩٩١) حوالى (٥٥) مليون نسمة، ويزداد بمقدار مليون نسمة كل عشرة أشهر. ويوضح ذلك مدى الحاجة التي تخلقها هذه الزيادة الكبيرة بالسكان، وانها تعني أن على البلاد أن تهيىء جميع مستلزمات الحياة لمليون إنسان جديد كل عشرة أشهر. ويبلغ معدل دخل الفرد (٦١٠) دولارات في السنة، وتبلغ ديونها الخارجية حوالى (٤٨) مليار دولار. إن موارد مصر مستغلة للأقصى تقريباً، فالرقعة الزراعية المحدودة مستثمرة، وموارد المياه محدودة بما هو موجود الآن، ومواردها من النفط وقناة السويس وصلت تقريباً إلى حدها الأعلى، كما أن إمكاناتها السياحية مستغلة. ويعني ذلك أن إمكانات التوسّع في الموارد المتاحة أمام

البلاد ليست كبيرة إزاء الزيادة الكبيرة بالسكان. في مصر فائض في اليد العاملة غير الفنية وفائض بالملاكات الفنية المدرّبة، وتحتاج مصر إلى رأس المال ومجالات تصريف الفائض من اليد العاملة، وتحتاج إلى أسواق واسعة لتسويق منتجاتها الصناعية. إن كل ذلك لا سبيل إلى الحصول عليه من غير الوحدة مع البلدان العربية. تعاني مصر كثيراً قلّة مواردها من العملة الصعبة التي تحتاج إليها لاستيراد الآلات والمعدات والمواد الخام واستيراد ما يسدّ حاجتها من الغذاء لاسيما الحبوب، وتطوير مرافقها الخدمية والإنتاجية ومستلزمات النهضة والحياة الحديثة، ويتوفر ذلك في البلدان العربية الأخرى. ان فتح المجال أمام مصر عربياً يعني الكثير لعملية التنمية الاقتصادية. ومثال واحد يوضح ذلك هو الأراضي الزراعية الشاسعة الصالحة لزراعة الحبوب في شمال السودان التي لو استغلت لاستطاعت تحقيق الاكتفاء الذاتي لمصر والسودان من الحبوب، ولاستطاعت مصر توفير العملة الصعبة اللازمة لذلك. إن الدول الاستعمارية ولاسيما الولايات المتحدة تمارس ضغطاً سياسياً كبيراً على مصر من خلال المساعدات التي تقدمها في مجال تزويدها بالحبوب. إن كل مسألة ارتباط حكومة مصر بالغرب المستعمر لاسيما الولايات المتحدة كان من الممكن ألاّ تكون لو لم يكن هناك ضغط الظروف الاقتصادية والحاجة إلى المساعدات المالية. إن كل مسألة الخروج على إرادة الأمة والتصالح مع العدو الصهيوني، وكل ما تبع ذلك من

سياسات موالية للاستعمار ومتناقضة مع أهداف الأمة العربية ومصالحها الحيوية كان من الممكن أن تكون في وضع آخر لولا الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي استخدمها الحكام الموالون للغرب ذريعة لتبرير تلك السياسة اللاقومية. إن مجموع تلك السياسة كانت ستكون في وضع حرج جداً لولا ضغط الظروف الاقتصادية وظروف الحاجة. ولا يخفى في هذا المجال فهم ماذا سيكون الوضع العربي لو بقيت مصر في الصف القومي ولم تتبع السياسة التي تتبعها الآن في عقد صلح مع العدو والخضوع للسياسة الأمريكية في المنطقة.

إن سؤالاً مهما يجب أن يوجه لمثقفي مصر وقادتها: ما هو المستقبل الذي يرونه لبلد في مثل هذه الأوضاع الاقتصادية، وما هو الأمل في الخروج من حلقة الفقر المفزعة؟ هل هناك فعلاً أمل بتحقيق تنمية اقتصادية حقيقية في ظل هذه الأوضاع؟ إنني من المعتقدين أن الإمكانية ضعيفة جداً، إذ لا أمل في الأفق غير الاندماج بالجسم العربي، غير الوحدة مع مجموع الوطن العربي حيث يتحقق التكامل في الموارد وتنفتح الأسواق ويتدفق رأس المال المحصور في الأقطار الأخرى ليسهم في التنمية. الواضح هو أن جميع جهود التنمية تبتلعها الآن الزيادة في السكان وتبقى البلاد في مكانها، إن لم تتراجع إلى الوراء، إذ لا توجد أية مؤشرات على إمكانية الحد من زيادة السكان في الأمد المنظور، في حين على العكس، فإن التحسن في الخدمات الطبية من شأنه أن يؤدي

إلى تناقص في نسبة الوفيات في الوقت الذي تبقى فيه نسبة الولادات على ما هي عليه، الأمر الذي يؤدي إلى تفاقم مشكلة زيادة عدد السكان. إذن لا يوجد حل ناجح جذري غير الوحدة العربية التي يندمج فيها اقتصاد مصر باقتصاد البلدان العربية، وبذلك تتحول زيادة السكان إلى عامل ايجابي للتنمية بدلاً من العكس، حيث تستطيع الأقطار العربية التي تعاني نقصاً في اليد العاملة من حل مشاكلها باستخدام الفائض الموجود في مصر. وبذلك ينفك عن مصر هذا الخانق الاقتصادي.

— ٣٨ —

ولننظر جنوباً أيها السائل المستوضح الكريم حيث نجد **السودان.** هذا البلد العربي الشاسع الرقعة الغني جداً بموارده الزراعية يبلغ عدد سكانه ٢٦,٦ مليون نسمة، ويبلغ معدل دخل الفرد السنوي (٤٠٠) دولار، وتبلغ ديونه الخارجية حتى سنة ١٩٩٠ حوالى ١١,٨ مليار دولار، وهو مستوى متدنٍ، كما هو واضح. ان اتساع رقعة الأراضي الزراعية ووفرة المياه عوامل مساعدة جداً على جعل هذا البلد المنتج الأول للغذاء الذي يحتاج إليه الوطن العربي، إذ تبلغ الأراضي الزراعية فيه ١٥٥,٦ مليون هكتار، المزروع منها في ١٩٨٩ هو ١٢,٥ مليون هكتار، أي ٨ بالمائة. إن السودان بلد لا يخلو من المعادن وقد ثبت وجود النفط فيه، وفيه غابات استوائية ذات موارد زراعية ضخمة إلا أنه بلد

فقير. فهو يحتاج إلى رؤوس الأموال التي تستطيع استثمار تلك الموارد بصورة حديثة، ويحتاج إلى عدد كبير من الفلاحين المهرة من نوع فلاّحي مصر لاستغلال أراضيه الزراعية غير المستثمرة. إن جميع هذه الخوانق قد أدّت إلى تخلف اقتصاده لاسيما قطاعه الزراعي. إن أوجه التكامل الاقتصادي بين السودان ومصر كثيرة وواضحة للعيان، وقد حاول البلدان التغلب على تلك الخوانق من دون نجاح ملموس بسبب الحالة القطرية الموجودة. إن تطور السودان اقتصادياً يحتاج حتماً إلى اندماج عربي لاسيما مع مصر والبلدان التي فيها فائض من رأس المال. إن الوحدة العربية هي مفتاح التقدم الاقتصادي للسودان من دون شك.

ويعاني السودان مشكلة سياسية لا تقل أهمية عن ذلك في بقائه فقيراً متخلّفاً، وتلك هي مشكلة عدم الاستقرار والحركة الانفصالية في الجنوب التي تغذيها دول الاستعمار والكيان الصهيوني، الأمر الذي اضطر السودان إلى الاحتفاظ بقوات مسلّحة تستنزف جزءاً مهماً من موارده المالية. إن عدم الاستقرار السياسي ومشكلة الجنوب قد أدّتا إلى استنزاف موارد هذا البلد، وقلّلتا بالتالي إمكانياته في مجال التنمية والتطور. إن الأثر السلبي لعدم الاستقرار ومشكلة الجنوب في تطور البلاد أمر واضح للعيان، إلا أن البلاد ليس أمامها من خيار إلا أن تقبل ذلك حفاظاً على وحدتها الوطنية وسلامة أراضيها. إن الاستقرار والوحدة الوطنية أمور سياسية مهمة إذا ما وضعت البلاد في موضع الاختيار بينها

وبين التنمية فإنها مضطرة إلى قبول دفع الثمن للوحدة الوطنية والاستقرار. ومن الواضح أنه لو كانت السودان جزءاً من دولة عربية واحدة تضم كل الوطن العربي لذابت جميع هذه المشاكل وحدها، فالعناصر الانفصالية لا يعود لها الأمل في التمرد وإبقاء البلاد في مثل هذه الحالة، كما أن مشكلة الاستقرار ما كانت لتظهر للوجود أصلاً.

ويلاحظ أيضاً ان في السودان قطاعاً من المثقفين من ذوي الاختصاص الجامعي في مختلف مجالات المعرفة، اضطر جزء كبير منهم إلى الهجرة إلى الخارج، بحثاً عن العمل، في حين أن البلاد لا تزال في حالة تخلّف وبحاجة إلى خدماتهم. إن التنمية الاقتصادية في ظل الاستقرار في دولة الوحدة تحيل جميع هذه السلبيات إلى عوامل إيجابية حيث يصبح بالإمكان الاستفادة من فائض العمالة الفنية وغير الفنية في مجالات التنمية بدلاً من الهجرة إلى خارج الوطن العربي.

— ٣٩ —

وبعد تلك الملاحظات لا بد أيّها السائل المستوضح الكريم من الاتجاه شرقاً، فنتناول أوضاع الأقطار العربية الأخرى شرق السويس. لنأخذ أولاً **لبنان**، هذا البلد العربي الصغير المختص بالسياحة والخدمات. إن سكان هذا البلد العربي (عدد سكانه ٢,٧ مليون نسمة ومعدل دخل الفرد فيه ١١٠٤ دولارات) يعرفون

أكثر من غيرهم مدى حاجتهم إلى أسواق البلدان العربية وحرية انتقال رؤوس الأموال والبضائع والأشخاص وحرية العمل والإقامة وممارسة المهنة بالنسبة إلى حياتهم. فلبنان كان وسيبقى معتمداً على محيطه العربي اقتصادياً، فالسياحة والاصطياف والخدمات التي يقدمها تحتاج إلى المحيط العربي، وجميع منتجاته الزراعية والصناعية والخدمات مجالها الأول للتسويق هو البلدان العربية. إن تجارة الاستيراد والتصدير والمرور والخدمات المصرفية والتأمين والخدمات الأخرى التي تتخذ من لبنان مركزاً لها تحتاج إلى المحيط العربي، أي أنها تحتاج إلى السوق العربي. إن الوحدة العربية تتيح لهذا البلد أن يندمج اقتصادياً مع اقتصاد البلدان العربية، وهو الوضع الأمثل لتطوره الاقتصادي. إن النشاط الاقتصادي المعروف عن مواطن هذا القطر سيجد مجاله للاستثمار والعمل واستثمار الفرص الاقتصادية عندما يكون بإمكانه الانتقال الحر إلى البلدان العربية الأخرى والعمل والإقامة وممارسة المهنة فيها. كما أن البلدان العربية الأخرى ستجني فوائد جمة من الخدمات الموجودة في لبنان ومن المرافق السياحية ومن الجهاز المصرفي، الأمر الذي يحقق منافع اقتصادية للجميع.

وفي الجانب السياسي مرّ لبنان بحالة عدم استقرار أدّت إلى حرب أهلية دامت أكثر من اثني عشر عاماً، وقد سبقتها اضطرابات متتالية، وكان حصيلة كل ذلك تدميراً للموارد، التي من الصعب احصاؤها، وكان من هولها وفداحتها وضخامة حجمها ما هو

معروف للجميع. إن جميع تلك الاضطرابات وعدم الاستقرار والحروب الأهلية سببها التركيب الداخلي للبنان وتعرّضه لضغوط جيرانه وتدخل القوى الخارجية الطامعة في المنطقة. فيا ترى هل كانت المشكلة الطائفية ستكون بالشكل الذي هي عليه لو كان لبنان جزءاً من دولة عربية واحدة تضم العرب من المحيط إلى الخليج؟ إن حالة الانقسام، وما يسمّى بالتوازن الطائفي والتوزيع الطائفي في السياسة والوظائف والفرص ليست إلا نتيجة وضع لبنان الحالي بحجمه الصغير وظروفه كقطر منفصل. أما لو كان لبنان جزءاً من دولة عربية واحدة قوية لذابت جميع هذه المشاكل، ولكان الوضع مختلفاً تماماً، إذ يصبح بالإمكان حل جميع المشاكل داخلياً من دون أي تدخل أجنبي.

وأنت أيّها السائل المستوضح الكريم، ربما يتبادر إلى ذهنك ما يردده بعضهم من أن المشكلة الطائفية ستكون أكثر استفحالاً لو كان لبنان جزءاً من وطن عربي موحّد. إن هذا الكلام أيّها السائل المستوضح الكريم ينظر إلى المستقبل من خلال الحاضر، أي انه يقيم وضع الوحدة على أساس وضع التجزئة، وهو طريقة غير صحيحة في فهم الأمور. إن وضع التجزئة هو وضع الضعف، ووضع الضعف يُغْري جميع الأطراف بمحاولة الكسب على حساب المجموع، ويشجّع الطمع بالمكاسب، ويفسح المجال للتدخل الأجنبي ويشجع مَنْ في الداخل على الاتصال بالخارج وقبول المساعدات لقاء التدخل. وبعبارة أخرى، إن وضع

الطائفية في ظل التجزئة هو وضع الضعيف، ويؤدي ذلك الوضع إلى مزيد من التمسك بالطائفية لأنها الوسيلة الوحيدة المتوفرة للحصول على أي شيء شرعياً كان أم غير شرعي. إن وسائل العمل في ظل الطائفية لا بد من أن تكون طائفية أيضاً، وهذا يؤدي بدوره إلى المزيد من الضعف وإلى مزيد من الانقسام الطائفي، وهكذا. في حين ان وضع الوحدة هو وضع القوة والعافية والثقة بالنفس الذي لا يسمح بتدخل الأجنبي، وبذلك تكون الوسائل مشروعة وبعيدة عن الطائفية والأمراض الاجتماعية. وبذلك يصبح ممكناً لمن يريد تحقيق مطلب شرعي، أو الحصول على حق ضائع أن يتبع الأساليب الصحيحة المقبولة المشروعة المتمشية مع القانون والصالح العام. وعندها تكون العملية صحية ولا تؤدي إلى الكوارث التي أدّت إليها عملية الجذب والدفع والصراع الطائفي في لبنان، التي لم تؤدِ إلى أية نتيجة مشروعة ايجابية بل أضرّت جميع الأطراف. إن وضع الوحدة ـ أيها السائل المستوضح الكريم ـ وضع آخر مختلف تماماً عن وضع التجزئة، لذلك فوسائله مختلفة ووضعه النفسي مختلف.

ـ ٤٠ ـ

والآن، أيّها السائل المستوضح الكريم، ننتقل من لبنان إلى **فلسطين** ذلك القطر العربي الجريح المحتل من قبل الصهيونية. إن حالة هذا القطر أكثر وضوحاً، كما أظن، فهو قطر ما كان ليحدث

له ما حدث اطلاقاً لو كان وضع الوحدة هو الوضع السائد بدلاً من التجزئة. وحتى في الوقت الحاضر، وبعد أن حدث ما حدث وحققت الصهيونية ما حققته، هل تستطيع الصهيونية أن تبقى على كيانها الغاصب في فلسطين لو استطاعت البلدان العربية أن تتّحد؟ الجواب قطعاً: كلا، على وجه الأكيد. إن اتحاد البلدان العربية بدولة واحدة سيخلق وضعاً جديداً تماماً من جميع الوجوه عسكرياً واقتصادياً وسياسياً وقانونياً، وإزاءه سيتلاشى هذا الكيان وتتبدد جهود الصهيونية وتخيب كلياً خطط الدول الاستعمارية، إذ كيف يمكن أن يتصور أحد أن هذا الكيان يستطيع أن يقف بوجه دولة واحدة بقيادة واحدة، وقوات مسلحة واحدة، وموارد مالية واحدة، ووضع قانوني ودولي واحد، وسياسة دولية واحدة، وإمكانيات بشرية واحدة، مهما بلغت قوته العسكرية، ومهما بلغ دعم دول الاستعمار له؟ واعلم أيها السائل المستوضح الكريم أنه ثبت، بما لا يقبل الشك، وبالدليل الملموس ان التطور التقني ليس بالأمر المحتكر من قبل العدو، وأن العرب عندما تتوفر الإرادة والتصميم والعمل قادرون على امتلاك السيطرة على التطور التقني، وحتى بأسرع وبأفضل ممّا لدى العدو. إن التسليح الحديث أمر يتوقف على الإرادة، كما أن الموارد المالية والقدرة العلمية جميعها أمور متوفرة للعرب أكثر مما هي متوفرة للعدو. إن الأمة العربية لا ينقصها شيء غير أن تتحد إرادتها بإرادة قوية واحدة. وعليك أيها السائل المستوضح الكريم أن تفتش عن سبب ما نحن فيه، ليس

في أمر يعود إلى الجوهر بل إلى ما ورد في القول المأثور للإمام عليّ عليه السلام: «اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم».
ترى، أيها السائل المستوضح الكريم، بكم تقدر الجهود والمال والثروة والخسائر المادية والبشرية ومجموع ما خسرته الأمة العربية بسبب احتلال الصهيونية لهذا الجزء من الوطن العربي؟ لو كنا أمّة موحّدة في دولة قوية لما فكّر أحد بأن يختار فلسطين مكاناً لتحقيق هذا المشروع الاستعماري المجرم، ولوفرت أمتنا بالتالي كل ما بذلته وما ستبذله من جهود وتضحيات وخسائر بسبب ذلك؟ إنني لا أستطيع ولا أعتقد أن أحداً يستطيع فعلاً أن يحصي الخسائر التي سببها لنا هذا المشروع الاستعماري. إذن هل تدرك الآن قيمة الوحدة والمنافع التي تنتج منها في جميع المجالات؟

— ٤١ —

قال السائل المستوضح الكريم متسائلاً: وما هو وضع **الأردن**؟ وكيف سيكون في وضع الوحدة مقارنة بوضعه الحالي؟ قلت له: وهذه حالة واضحة أخرى، ولأجل أن تعرف الجواب، اذهب واسأل في الأردن في طوله وعرضه وبمختلف شرائح المجتمع: كيف سيكون حالكم لو كنتم جزءاً من أمة تمتد بلادها من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي؟ هل سيكون أفضل أم أسوأ مما هو عليه الآن؟ ان اقتصاد الأردن ومن جميع الوجوه تقريباً يحتاج إلى البلدان العربية، فالأردن قطر خدمي، وقطر ينتج

محاصيل زراعية فيها فائض عن حاجته، ويستورد مواد غذائية أخرى لاسيما الحبوب، ولديه أسطول نقل بري كبير يحتاج إلى تشغيل في النقل المروري عبر البلدان العربية، ولديه جالية تعمل في منطقة الخليج العربي وتشكل أحد موارد العملة الصعبة التي يحتاج إليها. إن اقتصاد هذا القطر يعتمد كلياً على العلاقة مع جيرانه من البلدان العربية وعلى منطقة الخليج العربي. في الأردن بعض الصناعات التي يفيض إنتاجها عن حاجة السوق المحلية وتحتاج من أجل أن تستمر وتزدهر إلى أسواق البلدان العربية الأخرى. إن كل اقتصادات هذا القطر تحتاج إلى وحدة اقتصادية شاملة مع الأقطار العربية الأخرى من أجل أن تتكامل معها وتتبادل معها السلع والخدمات. إن تشابك اقتصاد الأردن مع العراق أمر واضح وازداد وضوحاً في السنوات الأخيرة.

ويعاني الأردن اختناقات أهمها شحّ المياه، فحتى مياه الشرب يجد صعوبة في توفيرها في بعض السنين، لذلك لا سبيل إلى حل هذه المشكلة جذرياً إلا بحصوله على المياه من المصادر العربية المجاورة وهي العراق وسوريا. ويحتاج الأردن إلى النفط الذي يعتمد عليه كلياً في توفير الطاقة. في الأردن فوسفات يحتاج إلى أسمدة لتصنيعها وتصديرها إلى الأقطار العربية الأخرى. إن أوجه التشابك والتكامل بين اقتصادات الأردن واقتصادات البلدان العربية لا حصر لها فهو يحتاج إليها من جميع الوجوه. وعندما يصبح الأردن جزءاً من دولة عربية واحدة ذات اقتصاد مندمج

واحد يجد الحل لجميع هذه المشاكل، ويحقق اقتصاده تقدماً وازدهاراً لا شك فيه. ففي السياحة يجد سوقاً جيدة، وكذلك في تصريف الفائض من إنتاجه الزراعي والصناعي والمعدني، وتحل مشكلة المياه وتوفير الطاقة، وتحل مشكلة ايجاد العمل لليد العاملة الفنية الفائضة لديه.

إن الأردن دولة فقيرة الموارد، لذلك يضطر إلى الاعتماد على الضرائب وعلى المساعدات من الأقطار العربية الأخرى وبعض الدول الأجنبية. وتسبب هذه الحاجة مشاكل وصعوبات لهذا البلد معروفة لدى الجميع، كما أنها تتصف بعدم الاستقرار، إذ إنها متذبذبة حسب تقلبات الظروف السياسية. والأردن هو البلد الآخر المتأثر كلياً بالقضية الفلسطينية حيث يشكّل الكيان الصهيوني تهديداً مباشراً له. إن العبء المالي والاقتصادي الذي خلقه احتلال الصهيونية لفلسطين يدفع الأردن قسطاً كبيراً من ثمنه بشتى الأشكال، ومنها مشكلة اللاجئين وعبء الجيش وقوى الأمن الداخلي، بالإضافة إلى الآثار السلبية الأخرى. الأردن أيضاً كيان دولة بكل ما ينطوي عليه ذلك من عبء مالي واقتصادي بسبب ما يضطر لاقتطاعه من التنمية للصرف على الجيش وقوى الأمن الداخلي والتمثيل الخارجي وأجهزة الدولة الأخرى. إن جميع هذه الأعباء المالية والاقتصادية من الممكن توفيرها في ظل الوحدة الشاملة مع الأقطار العربية الأخرى.

أما **سوريا** (عدد سكانها ١٢,٥ مليون نسمة ومعدل دخل الفرد فيها ١٠٠٠ دولار)، أيها السائل المستوضح الكريم، فقد كانت مركزاً مهماً للدعوة إلى الوحدة العربية، وكانت صاحبة المبادرة في قيام الجمهورية العربية المتحدة، إلا أنها أيضاً كانت مقراً لحركة الانفصال التي قوّضت ذلك العمل القومي. وهذا القطر فيه إمكانات للتطور الزراعي والصناعي، لو أتيحت له الأسواق لنما وتطور لمصلحة عملية التنمية. وتكامله الاقتصادي مع العراق والأردن ولبنان وفلسطين معروف وبائن. إن ضيق السوق المحلية واضطراب الأوضاع السياسية في المنطقة قد حدّ من إمكانيات التوسّع الزراعي والتجاري والصناعي. إن هذا القطر يشكل منفذاً مهماً لتصدير النفط بالنسبة إلى العراق والسعودية، ويمر نهر الفرات فيه. وتقيم تركيا عليه سدوداً وتعمل على الاستحواذ على أكبر كمية من مياهه خارج القوانين والأعراف المتبعة في اقتسام الأنهار المشتركة، مستفيدة من عدم وحدة السياسة المائية بين العراق وسوريا إزاء هذا الموضوع. وتحتاج سوريا إلى أسواق العراق، ويحتاج العراق منفذاً على البحر الأبيض المتوسط. وفي سوريا منابع بعض المصادر المائية المهمة لحياة الأردن. وتشكل أرض الجزيرة في سوريا والعراق أهم منطقة لإنتاج الحبوب لسد حاجة القطرين والأقطار العربية الأخرى لو أتيح لها الاستثمار المشترك الأمثل. ويحتاج القطاع الزراعي في سوريا إلى الأسمدة التي تنتج

في العراق، حيث تتوفر العناصر الأساسية لإنتاجها وهي الكبريت والفوسفات والطاقة. في سوريا إمكانات سياحية جيدة وتصلح طريقاً لتجارة المرور للصادرات والواردات عبر لبنان، وهكذا فالتشابك والتكامل الاقتصادي ملحوظ في جميع هذه المجالات. ومن المنطقي أن يكون الاقتصاد السوري أكثر ازدهاراً وتطوراً لو كان جزءاً من اقتصاد عربي متكامل في إطار دولة عربية واحدة لا تفصلها حدود.

وفي الناحية السياسية، ليست سوريا، أيها السائل المستوضح الكريم، استثناء من الحالة العامة، فكونها قطراً منفصلاً عن الأمة يعيش في وضع التجزئة، أدى ذلك إلى اضطراب سياسي وعدم استقرار بعد الاستقلال، تدفع البلاد ثمنه ويتحمل الاقتصاد أعباءه المالية والاقتصادية. فلو كانت سوريا جزءاً من دولة عربية واحدة، لما مرّت بكل تلك التقلبات التي شهدتها بعد الاستقلال من انقلابات عسكرية واضطرابات داخلية. كما أن التهديد الإسرائيلي قد أدى إلى تحمل البلاد أعباء مالية باهظة للصرف على القوات المسلحة والمخابرات وقوى الأمن الداخلي. إن نسبة عالية من الموارد العامة تصرف سنوياً على الأغراض العسكرية من الممكن توفيرها لأغراض التنمية والتقدم والازدهار في ظل الوحدة، حيث تتلاشى أوضاع التجزئة ومقتضيات اللعبة السياسية وكل ما ينتج من عدم الاستقرار من استنزاف للموارد. كما يمكن توفير جزء من المصروفات العامة التي تقتضيها الدولة.

وإليك أيها السائل المستوضح الكريم أقول: إن **العراق** (عدد سكانه حوالى ٢٠ مليون نسمة ومعدّل دخل الفرد فيه ٤٠٦٣ دولاراً)، يدفع ثمناً باهظاً بسبب وضع التجزئة الذي يعيش فيه، شأنه شأن جميع الأقطار العربية الأخرى. فالعراق من الأقطار العربية المهمة المنتجة للنفط، وهو يحتاج إلى منافذ التصدير على المتوسط، ويحتاج إلى سوق أوسع لصناعاته الناشئة، وفيه موارد زراعية كبيرة غير مستثمرة، ويحتاج إلى اليد العاملة اللازمة لذلك، المتوفرة في أقطار عربية أخرى. ويحتاج العراق إلى مزيد من اليد العاملة في مختلف المجالات لسد النقص الموجود لديه في المرافق الإنتاجية والخدمية كافة، وهي متوفرة في أقطار عربية أخرى وفائضة عن الحاجة هناك. إن النهضة الاقتصادية من الممكن أن تتضاعف وتتكامل وتزداد لو كان اقتصاد العراق موحّداً مع اقتصادات البلدان العربية الأخرى.

أما في الجانب السياسي فقد اضطر العراق إلى الدفاع عن حدوده الشرقية وحده تقريباً، والحرب مع ايران كانت في حقيقتها دفاعاً عن العراق وعن عموم منطقة الخليج العربي بوجه التدخل الايراني، والسعي المتواصل إلى مدّ النفوذ والهيمنة على المنطقة، وقد كلّف العراق ذلك الكثير من الجهد والمال والدماء. ومن الطبيعي أن تتردد ايران كثيراً قبل أن تفكر في الاعتداء على الجناح

الشرقي للوطن العربي لو كان الوطن العربي موحّداً. لقد عمل النظام الايراني السابق ويعمل الآن على الاستفادة من وضع التجزئة عن طريق استمالة بعض حكومات دول الخليج إليه وتكوين العلاقات معها متبعاً أساليب عدة في التعاطي معها. لقد سعى نظام الشاه، واستمر النظام الذي أعقبه، من أجل بناء قوة بحرية كبيرة في الخليج العربي والاحتفاظ بقوات مسلحة كبيرة، وهو يسعى الآن إلى امتلاك السلاح الذري، والهدف من كل ذلك واضح بالطبع ألا وهو منطقة الخليج العربي الغنية بالنفط. إن هدف هذا النظام هو أن يكون أكبر قوة في المنطقة كما صرح بذلك علناً، ويعني ذلك من دون شك أنه يشكل خطراً على العراق. إن الوضع يكون مختلفاً تماماً عندما تواجه ايران دولة عربية موحّدة بكامل ثقلها وإمكانات الأمة العربية أكبر ممّا هي عليه في الوضع الحاضر. إن القوة التي تخلقها الوحدة لا يشترط أن تستعمل، إذ يكفي وجودها لكي تمنع التفكير بالعدوان. فالعدوان لا يقع والحرب لا تقوم إلا عندما يكون لدى المعتدي الأمل في أنه سينجح في عدوانه، ومثل هذا الأمل يعتمد على توازن القوى. إن وضع التجزئة يشجع على الوقوع في الوهم وارتكاب الأخطاء في الحسابات ممّا يؤدي إلى وقوع العدوان والحرب وتحمل الخسائر والتضحيات التي تسببها في النهاية.

في شمال العراق مشكلة العناصر الانفصالية التي خلقتها الدول الاستعمارية وغذّتها مطامع ايران واستخدمتها ورقة سياسية

خلال المرحلة الماضية. إن هذه المشكلة قد استنزفت من موارد العراق الشيء الكثير وسبّبت له وضعاً غير مواتٍ للتنمية والتقدم، وسفكت فيها دماء غزيرة، وسببت لمجموع البلاد خسائر مادية وبشرية يصعب حسابها. إن هذه المشكلة ما كان لها أن توجد أو أن تستمر لو كان العراق جزءاً من مجموع الأمة، إذ على الحركة الانفصالية عندها أن تواجه مجموع الأمة، وليس جزءاً منها، ولتوجب على القوى التي تغذيها وتستخدمها لأغراضها ومطامعها أن تفكر بقوة الأمة وليس بقوة جزء منها. إن كل قضية الاستقرار تحل بشكل طبيعي في ظل الوحدة العربية الشاملة، والاستقرار عامل مهم في مجال التقدم والازدهار والتنمية.

العراق يتقدم اليوم الصفوف في الدعوة إلى الوحدة، ويتحمل هذه المسؤولية القومية المشرفة مقدماً في سبيل ذلك تضحيات مادية، ويتحمل أعباء هذه القضية العربية. إلا أنه مع ذلك سيكون من دون شك في وضع أفضل بكثير مما هو عليه الآن من جميع الوجوه في وضع الوحدة. فعجلة التنمية ستدور أسرع ويتحقق الاستقرار الداخلي وتنحل تلقائياً مشكلة الأكراد في الشمال، ويتكامل اقتصاده مع الاقتصادات العربية. وفي ظل القوة والاستقرار والموارد المالية الكبيرة والإمكانات الاقتصادية يستطيع أن يقطع أشواطاً بعيدة في البناء والعمران والتقدم والازدهار والتنمية في جميع الميادين. إنه يتحمل ثمن المبادرة والتضحيات التي يتطلبها النضال لتحقيق الوحدة، إلا أنه سيجني منها الكثير

وستكون أوضاعه من جميع الوجوه أفضل ممّا هي عليه في وضع التجزئة.

— ٤٤ —

ولنتجه الآن أيها السائل المستوضح الكريم إلى **اليمن**، وهو البلد الذي حقق وحدته الإقليمية بين شماله وجنوبه. إن هذا البلد هو من دون شك أفضل وضعاً الآن ممّا كان عليه قبل الوحدة، فقد وضعت الوحدة حدّاً لذلك الصراع المرير المسلح وغير المسلح الذي استنزف مواردهما وانهك قواهما وأبقاهما فقيرين. ففي ظل الاستقرار والسلام يستطيع هذا البلد الآن أن يتفرغ للتنمية وتحقيق التقدم الذي يحتاج إليه في شتى الميادين. إن الشطر الجنوبي كان مستنزفاً إلى أقصى الحدود، إذ كان الجزء الأعظم من موارده موجّهاً نحو الحرب والصراع مع الشمال، وكذلك كان الشمال، إلا أن اليمن الموحّد نفسه لا يزال فقيراً، إذ يبلغ عدد سكانه حوالى (١٣,٧) مليون نسمة، ومعدل الدخل الفردي فيه حوالى (٥٤٠) دولاراً في السنة، وهو مستوى منخفض جداً. واليمن يحتاج إلى جميع أنواع الخدمات من صحية وثقافية وتعليمية ومواصلات وغيرها. إن كمية النفط التي اكتشفت تساعد من دون شك على سدّ حاجة الاستهلاك الداخلي ويصدّر منه القليل الذي يدرّ دخلاً من العملة الصعبة تحتاج إليها البلاد. إلا أنه سيكون في وضع أفضل من ذلك بكثير في ظل الوحدة الشاملة.

ولليمن جالية نشيطة في مجال الأعمال الحرّة والتجارة كانت تعمل في السعودية وتكوّن مصدراً مهماً للعملة الصعبة، وقامت السعودية مؤخراً بتهجير هذه الجالية، الأمر الذي ألحق باليمن ضرراً مالياً كبيراً. في ظل الوحدة الشاملة ستنتهي هذه المشكلة وسيكون بمقدور أي يمني أن يعمل حيثما يشاء، وفي أي قطر عربي، وسيكون مواطناً لا يستطيع أحد تهجيره متى شاء. واليمن بلد زراعي وقابل لتطوير الكثير من موارده في هذا المجال، والسوق الطبيعي للفائض من تلك المنتجات هو الأقطار العربية الأخرى. واليمن يحتاج إلى رأس المال لتطوير منتجاته، ورأس المال متوفر في الأقطار الأخرى، إلا أنه لا يستطيع أن يتحول إلى اليمن بسبب العوائق الموجودة في ظل وضع التجزئة. وبين اليمن والسعودية نزاع قديم، كان ولا يزال مصدراً لاستنزاف موارد اليمن، المضطرة إلى الاحتفاظ بقوات مسلحة وقوى أمن داخلي لمجابهة الضغط السعودي والتدخل في الوضع الداخلي، وكل ذلك سيزول بالطبع في ظل الوحدة. واليمن كدولة تخصص جزءاً من مواردها للصرف على مؤسسات الدولة من تمثيل خارجي وغير ذلك من مقتضيات الدولة الحديثة، والجزء الأكبر من هذه النفقات يمكن توفيره في حالة الوحدة. إن الوضع الاجتماعي والثقافي في اليمن لا يزال متخلفاً حتى بالنسبة إلى كثير من الأقطار العربية الأخرى، مما لا شك فيه أن الوحدة بما تؤدي إليه من امتزاج وتفاعل وتكامل الإمكانات تساعد من دون شك على تطوير

الوضع الاجتماعي للأفضل، ويصح الحال على جميع نواحي الحياة الأخرى.

ـ ٤٥ ـ

إن حادث توحيد اليمن يكتسب أهمية خاصة في مثل هذه الظروف، فقد كان حادثاً ايجابياً وسط الكثير من التطورات السلبية. وإني أيها السائل المستوضح الكريم موقن أن أقوى ما يحدد موقف الإنسان هو مدى القناعة العقلية، فمهما كانت العوامل العاطفية مؤثرة، ومهما كانت الظروف المحيطة موحية ومشجعة في هذا الاتجاه أو ذاك تبقى جميع هذه العوامل مساعدة للعامل الرئيسي ألا وهو قناعة العقل البشري، فالذي يحصل في العقل يحدد في النهاية الموقف حتى ولو كانت العوامل المساعدة الأخرى تؤثر في الاتجاه المضاد. كما أن العوامل المساعدة هذه حتى وإن أثّرت فتأثيرها يكون موقتاً، إذا لم تنسجم مع قناعة العقل. ولا أقصد بالطبع في هذه المناسبة أن أتناول موضوع تكوين المعرفة، ذلك الموضوع الفلسفي المهم والمعقّد، لأننا لسنا في مجال بحثه، وإن كنت أسوق هذه الكلمات عنه فلكي أوضح انها قناعتي في هذا المجال، والتي على أساسها أبني موقفي.

إنني أيها السائل المستوضح الكريم أقدم هذه الكلمات كمدخل إلى القول بأن وحدة القطر العربي ـ اليمن ـ تستحق الدراسة لسببين، واحد يتعلق باليمن كجزء من كل، والآخر يتعلق

بتوظيف ما تتوصل إليه الدراسة لإلقاء ضوء كاشف على مجمل موضوع الوحدة العربية الذي هو موضوعنا الرئيسي. تُرى أيها السائل المستوضح الكريم لو أن دراسة تفاصيل أوضاع هذا القطر العربي خلال فترة تجزئته، ومقارنة ذلك بما هو عليه الآن، بما في ذلك الإمكانات الجديدة التي تتيحها الوحدة قد عملت، فماذا تتوقع أن يتضح منها؟ انه عمل ثقافي مهم من دون شك.

لقد أتيحت لي الفرصة أيها السائل المستوضح الكريم أن أستمع مباشرة الى علي سالم البيض في اجتماع مصغر على هامش المؤتمر عن موضوع الوحدة، وكان أهم ما ورد في ذلك هو الحديث الصريح عمّا حدث بين شطري اليمن قبل التوحيد. وأتذكر أنه قال ما معناه، إنهم في الجزء الجنوبي كانوا يعملون من أجل بناء الاشتراكية، وان قادة الشطر الشمالي كانوا يعملون من أجل إقامة الرأسمالية، وقد فشل الجانبان، فلا نحن في الجنوب بنينا الاشتراكية، ولا هم في الشمال أقاموا الرأسمالية. كما قال ما معناه أننا أضعنا جهودنا وهدرنا مواردنا وسفكنا دماءنا، ليس من أجل بناء الوطن ولا مصلحة الشعب بل من أجل أن يزيح بعضنا بعضاً من الحكم. لقد آن الأوان لوضع حد لذلك. لقد أدركنا خطأ ذلك وضرره على بلادنا وشعبنا، لذلك قررنا الرجوع إلى الطريق الصحيح ووضع حد لذلك، فاتحدنا. قال ذلك بتفصيل أكثر إلا أن موجز ما قاله بصدد الموضوع هو هذا.

أما دولة **عُمان** أيها السائل المستوضح الكريم فيصح عليها

المنطق نفسه، وتنطبق عليها تقريباً الملاحظات نفسها. فعُمان بلد يبلغ عدد نفوسه حوالي مليوني نسمة، ويبلغ معدل دخل الفرد فيها (٥٦٥٠) دولاراً سنوياً، وهو مستوى متدنٍ بالرغم من كمية النفط الصغيرة نسبياً التي ينتجها. إن هذا البلد له نزاعات حدودية مع جيرانه، لاسيما مع اليمن ومع الإمارات التي له فيها مطالبات بأراضٍ غنية بالنفط كما يبدو. إنه بلد فقير ومتخلّف ويحتفظ بقوات مسلحة ويحاول دائماً اتباع سياسة موالية للدول الغربية، لاسيما بريطانيا، ويجامل النظام الحاكم في ايران. وايران كانت دوماً تضغط على هذا البلد المشرف على الممر المائي المهم: مضيق هرمز. إن هذا البلد سيكون من دون شك في وضع سياسي واقتصادي واجتماعي أفضل في حالة اتحاده مع الأقطار العربية الأخرى. سيستطيع هذا البلد استيراد ما يحتاج إليه من سلع زراعية لا ينتجها من الأقطار العربية الأخرى، وسيستطيع أن يتكامل مع اقتصادات البلدان العربية لمصلحة الجميع، وسيكون بالإمكان سدّ النقص الموجود لديه في اليد العاملة الفنية وغير الفنية لتطوير خدمات التعليم والصحة وفي جميع النواحي الزراعية والصناعية والمواصلات والنقل والنواحي الاخرى. إن نزاعات الحدود ستحل تلقائياً وسيتمازج شعب عُمان مع سكان البلدان العربية الأخرى لصالح التطور الاجتماعي والتقدم في العادات والتقاليد وطرق الإنتاج وفنون البناء والعمران. وسيكون بإمكانه توفير الكثير من موارده التي ينفقها الآن على أجهزة الدولة والجيش والأمن

والتمثيل الخارجي. وستتفتح أبواب التقدم أمام هذا البلد الذي لا يزال في وضع متخلّف نسبياً.

ولتكن الدولة التالية التي نتناولها في منطقة الخليج العربي هي **البحرين**. هذا البلد الصغير الذي يبلغ عدد سكانه حوالى نصف مليون نسمة، ويبلغ معدل دخل الفرد فيه ٦٨٣٠ دولاراً في العام، وهو منتج صغير للنفط. إن هذا البلد الفقير بالموارد فيه رقعة زراعية صغيرة تعاني الآن قلّة المياه الصالحة للري والشرب، وقد أخذت أشجار النخيل فيه بالضمور بسبب قلّة المياه وتسرّب مياه البحر المالحة إلى المياه العذبة القليلة، فارتفعت ملوحتها، وهي آخذة بالتدريج إلى التحول إلى مياه مالحة غير صالحة للزراعة. ومستقبل هذا البلد هو أن يصبح معتمداً على مياه التحلية للاستهلاك البشري. إن هذا البلد كان دوماً مهدداً من قبل ايران التي طالما حاولت الاستيلاء عليه في زمن حكم الشاه، لذلك يحاول حكامه البقاء في دائرة النفوذ الأمريكي والبريطاني طلباً للحماية. إن هذا البلد يحتاج جداً إلى الاندماج في كيان أكبر، فتنفتح أمامه مجالات الاستثمار وتأدية الخدمات وتأمين الغذاء والأمن وحل مشاكله الاقتصادية والأمنية.

— ٤٦ —

وهنا قاطعني السائل المستوضح الكريم قائلاً: **إنكم تتحدثون عن التفاوت الكبير في توزيع الثروة بين البلدان**

العربية، فهل لك أن تقوم بمقارنة بين الأغنياء والفقراء؟ قلت: نعم، نحن نقول بذلك وما تطلبه سأقوم به. ومن أجل المقارنة سأعدّ المغرب وموريتانيا ومصر والسودان واليمن هي الكتلة الفقيرة، وأعدّ دول الخليج المكوّنة من البحرين والإمارات وقطر والكويت والسعودية هي كتلة الدول الغنية. وتدل المعلومات المتوفرة ان عدد سكان الكتلة الغنية من حملة الجنسية يبلغ حوالى ٦,٥ مليون نسمة، ويبلغ ايراد هؤلاء من النفط فقط بين (٧٠) إلى (٧٥) مليار دولار سنوياً، في حين يبلغ عدد سكان الكتلة الفقيرة المكوّنة من السودان والمغرب وموريتانيا واليمن والشعب الفلسطيني حوالى ٦٧ مليون نسمة. وتوصلنا إلى حساب عدد السكان على أساس أن عدد سكان الإمارات المعلن وهو ١,٩ مليون نسمة، يضم من الأجانب بنسبة الثلثين، والثلث الباقي هم الذين يحملون الجنسية. إن كون الغالبية من السكان من الأجانب هو الذي جعل حكومة الإمارات لا تعلن نتائج الاحصاء الأخير الذي أجرته في البلاد، وهو وضع أصبح معروفاً ويذكره المسؤولون في مجالسهم. ومن مجموع سكان الكويت المعلن، وهو مليون ونصف، هناك حوالى ٣٠٠ ألف يحملون الجنسية الكويتية. أما قطر والبحرين فليست لدينا معلومات عن نسبة الأجانب فيهما، لذلك افترضناها تساوي ثلث السكان. إن عدد سكان العربية السعودية لا يتجاوز في أحسن الحالات ٨ ملايين، وهناك من يعتقد أنه أقل من ذلك. ومعروف ان حكومة العربية السعودية

تحرص على تكبير عدد سكانها، ولا توجد وسيلة لمعرفة الحقيقة بهذا الخصوص، فهناك أرقام متداولة بعضها يقدر عدد السكان بأربعة ملايين، وبعضها يرتفع إلى ضعف هذا العدد. إذن هذه هي المقارنة الصارخة: حوالى ستة ملايين ونصف يحصلون على دخل من النفط فقط يتراوح بين (٧٠) إلى (٧٥) مليار دولار سنوياً، في حين يعيش فقراء العرب البالغ عددهم حوالى ٦٧ مليون نسمة في فقر معروف المظاهر، كما في السودان ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين. إن معدل دخل الفرد في الإمارات يبلغ ١٩٨٧٠ دولاراً في السنة، في حين أنه في السودان ٤٠٠ دولار، وهو في الكويت ١٤٦١٠ دولارات قبل انخفاض انتاجها عام ١٩٩١، في حين أنه في اليمن حوالى ٥٤٠ دولاراً وفي موريتانيا ٥٠٠ دولار. (ان مصدر هذه المعلومات هو مطبوعات الأمم المتحدة ومنظمة الأقطار العربية المصدرة للنفط).

إن وجود العربية السعودية والكويت وقطر والإمارات في الوضع الحالي المتسم بعدم التوازن الصارخ في الاستحواذ على الثروة العربية أمر يثير قضية أساسية في الوضع العربي الحالي، قضية عدم العدالة المتناهي مقارنة بالملايين من فقراء العرب الذين يعيشون في حالة الكفاف أو دون الكفاف. كيف يمكن قبول هذا الوضع؟ فهو إن استطاع أن يبقى لبعض الوقت، فمن المستحيل له أن يستمر طويلاً. إن حالة عدم التوازن هذا ستبقى مصدراً للتوتر ومدعاة لعدم الاستقرار، إنها مسألة الغنى والفقر في الوطن العربي.

إنه الغنى الفاحش وبكل ما يتبعه من تصرف لا ينسجم مع مبادىء العدل، ولا مع المصلحة القومية، ولا مع مبادىء الدين، ولا مع الأخلاق الفردية للإنسان العربي، ولا مع الغيرة والشهامة القومية. إن هذه القضية الخطيرة كانت ولا تزال موضع الملاحظة والمقاومة والثورة من قبل جماهير العرب، والسخط والاستهجان من قِبَل أحرار العالم.

— ٤٧ —

وربّما تكون أيها السائل المستوضح الكريم مهتماً بعض الشيء بالكلام الذي يقال في إطار القانون الدولي حول شرعية هذا الوضع؟ قال: نعم، إنني أسمع كلاماً على موضوع القانون الدولي والشرعية الدولية، ولكنني لم أفهم المقصود، ولم أرَ وجاهة تلك الحجّة. فقلت: أيها السائل المستوضح الكريم تصوّر ان بعض أجهزة الإعلام ومنها أجهزة بعض الحكومات العربية أخذت تتحدث لغة الإعلام الغربي. إنها تقول إن هذه الدول الغنية مستقلة (أي السعودية والكويت وقطر والإمارات)، وهي أعضاء في الأمم المتحدة، ولذلك فهي حرّة التصرف بثرواتها الطبيعية، وان لا أحد له الحق فيها غيرها. وقد استغرب السائل المستوضح الكريم ذلك وبدت عليه علامات التعجب، فقال: هل حقاً يوجد من يقول بذلك؟ هل صحيح يوجد من يقول ان الثروة النفطية في الإمارات مثلاً هي ملك أهل الإمارات فقط، أو ان نفط الكويت هو ملك

الثلاثمئة ألف الذين يحملون الجنسية الكويتية؟ قلت له: نعم، هناك من يقول بذلك، وهو بكامل قواه العقلية، إلا أنه ليس بكامل قواه الروحية والأخلاقية.

ألا يعرف من يقول بذلك أننا، مهما كان ويكون، أمة واحدة، وكل ما في باطن هذا الوطن العربي من شرقه إلى غربه هو في الحقيقة ملك لجميع الأمة؟ بالمنطق القومي، الأمة هي المالك النهائي لكل الثروات، وبمنطق الدين، الثروة ملك لجميع المسلمين.

وأنتم يا حكّام الأقطار الغنية، ألا تفكرون بشيء من المصلحة العامة؟ أليس عندكم بعض الاهتمام بحاضر الأمة العربية وبمستقبلها؟ ثم ألا ترون أن المليارات التي تأتيكم سنوياً تحتاج إليها الأقطار الفقيرة ويحتاج إليها الفقراء وتستطيع أن تسهم في التنمية العربية وفي تقوية الدفاع العربي وحفظ الأمن العربي؟ ألا يهمكم أن يبقى السودان موحّداً، وأن تستمر مقاومة الصهيونية وبناء القوة العربية لمقاومة هذا الخطر الأكيد على حياتنا ومستقبلنا وسلامة وطننا؟ هل يمكن مقارنة وضع الأمة العربية الآن بكل مآسيه وبؤسه ومهانته بوضع أمة موحّدة قوية عزيزة تمتد من الخليج إلى المحيط، يعمّ فيها الرخاء الاقتصادي والرفاهية، قوية بكل شيء، يحترمها الجميع، ويعيش فيها الإنسان كريماً معزّزاً مرفّهاً حرّاً؟ هل انكم في وضعكم الحالي مرتاحون؟ وكيف ترتاحون والجميع يشير إليكم بالاتهام والتقصير والتواطؤ مع الأجنبي

فيسخط عليكم القاصي والداني؟ إنكم تعيشون في قلق دائم، بسبب الباطل الذي أنتم فيه، وليس أصلح ولا أفضل ولا أكرم عيشاً وأهدأ بالاً وأرقى منزلة من أن تكونوا مع الحق، والحق هو أن تكون هذه الدول المصطنعة جزءاً من الأمة في وحدة عربية شاملة سيكون لكم فيها أفضل العيش وأكرم المكانة، أنتم ومن يأتي بعدكم، فتكونون ممّن يرضى عنهم الله وعباده.

وأنتم البالغ عددكم بضعة ملايين ممّن تحملون جنسيات هذه الدول المصطنعة سيكون عيشكم أفضل كرامة وعزّة ودينكم أقوى وأقوم في دولة الوحدة مما هو في وضعكم الحالي، فأنتم تعرفون ان هذا المال لا يعود اليكم وحدكم لأنه مال الأمة وثروة العرب أجمعين، لذلك فما تستحوذون عليه حرام، ولا أظنكم ترغبون في أن تكونوا من مرتكبي الحرام وآكلي حقوق الآخرين. ولا أظنكم تفضلون حياة الذل والإهانة والتعرّض للأخطار والقلق الذي يلف دولكم هذه، ولا أراكم ترضون أن تكونوا لعبة بيد الأجنبي والعدو يستعديكم على أمتكم ويستعملكم لضرب وطنكم ويستخدم ثروات الأمة بواسطتكم لخدمة مصالحه. إنكم متهمون عن حق بإلحاق أفدح الضرر بقضية الأمة والوطن. إنكم مخيّرون بين وضع ووضع، وضع الوحدة الشاملة القومية المكلّلة بالعز والخير والرفاهية والعدالة والسعادة والتقوى التي تعمّها، وبين وضع التجزئة الذي تعيشون ونعيش فيه الآن بكل ما فيه من ضعف وهوان ومروق عن تقوى الدين وسعادة الدنيا. إن الإنسان السويّ

بعقله وروحه وخلقه لا يمكن إلا أن يختار الأول: خيار الوحدة حيث السعادة في الدنيا والآخرة.

— ٤٨ —

ربما يفكّر البعض منكم أن بإمكانه في النهاية وإذا ما حدثت الثورة وضاقت الحال أن يهاجر إلى بلدان الغرب حيث توجد أمواله والبيوت التي أعدّها، وأنه سيستطيع العمل في مؤسساته التجارية والمالية التي أنشأها الآن، وأن كل شيء سيكون طبيعياً في حياته الجديدة. وأنه سيكون بإمكانه بيسر وبسرعة تكوين حياة جديدة في ديار المهجر. إن هذا البعض لا شك يفكّر بذلك ويعدّ له العدّة من الآن، وبعضكم قد فعل ذلك فكان له مكانان؛ واحد في المهجر وواحد في الوطن الأم، بل ربما كان له أكثر من مكان في المهجر يتنقل بينها خلال السنة. إن بعضكم ربما ينظر إلى حياة الغرب على أنها المبتغى ومكان السعادة والمسكن الآمن والمقر الأمثل، وان الدخول في ذلك المجتمع والاستقرار فيه هو ما يتمناه الإنسان أينما يكون في هذا العالم. ولكنه إذ يفكر بذلك كبديل متاح في يوم الضيق يقع في خطأ فادح ووهم كبير ويسير إلى إلحاق أكبر الأذى بنفسه وبعوائله وبأجياله القادمة. وعقدة كل ذلك هو أنه يعدّ المال كل شيء، وأنه يستطيع أن يعوض عن كل شيء، وهو عين الخطأ وموضع الزلل. إنكم أيها الواهمون عندما تذهبون إلى بلاد المهجر لن تذهبوا

سائحين أو زائرين أو لمهمة تجارية بل في وضع مختلف تماماً. إنكم ستذهبون وأنتم فاقدو الوطن ومقطوعو الجذور، مسخوط عليكم من أهلكم ومعارفكم وبني قومكم وحكومة بلدكم، تلاحقكم الأمة بالغضب وعدم الرضى. ستكون ضمائركم مثقلة بالذنب ونفوسكم ملأى بالمنكر وأذهانكم مشوشة بالخوف والقلق وعدم معرفة المستقبل. أي أنكم ستكونون في وضع المذنب الهارب المطارد المطلوب للعدالة بكل ما ينطوي عليه ذلك من قلق واضطراب وهموم وخوف وترقب، وبكل ما يصاحبه من همّ وتعاسة وحسرة وألم. في البداية، ربما يكون أبناؤكم وزوجاتكم وأهاليكم راضين بذلك السفر ومقبلين على التفرج على بلاد أخرى ورؤية أشياء جديدة، ولكنهم بمرور الوقت ستتغير نظرتهم وتتلاشى فيهم تلك الرغبات ويحلّ محلها شعورجديد هو شعور الحنين إلى الوطن والأصدقاء والمعارف والأقارب. سيحن الولد إلى مدرسته ومرابع لهوه، وستحن الأم إلى أهلها وذويها وتنمو فيهم الرغبة في معرفة أخبار الوطن وأخبار المدينة التي كانوا يعيشون فيها، وماذا يجري في محلة سكناهم والشارع الذي يقع فيه بيتهم. ستنقلب الصورة ويتغير الوضع النفسي، فكل شيء في المهجر سيصبح عادياً مملولاً، ويصبح كل شيء في الوطن مرغوباً فيه وتتحرق النفس لمشاهدته. وهكذا يدب شعور الغربة في أفراد العائلة وينمو شعور عدم الانتماء وتبدأ الحسرة والألم والتعاسة تمد جذورها في النفوس. ستسمعون الإهانة هنا وهناك، وستسمعون

تعليقات الازدراء في هذا المجلس أو ذلك، وستكتشفون أن المجتمع ربما يقبلكم مادياً، ولكنه يرفضكم نفسياً، وحتى وجودكم المادي قد يتعرض أحياناً للأذى، كما حدث في حالات كثيرة في بلدان الغرب.

أما مركزكم الاعتباري في المجتمع فسيكون بعيداً عن الاحترام، فلن تكونوا شيئاً مهما ولن تشعروا أن لكم كياناً وانتماء إليه، فأنتم مهما طال الزمن ستكونون وافدين غرباء طارئين. ولا يذهب بكم الوهم أن المجتمع الجديد الذي تذهبون إليه لن يعرف قصة كل واحد منكم في بلاده ولماذا هاجر وترك وطنه بل انه سيعرف ذلك عاجلاً أم آجلاً، وبسبب ذلك لن يكون لكم الاحترام بل يعدكم في داخل نفسه منبوذين مذنبين في وطنكم وأصحاب جريمة من نوع ما، وسينظر إلى أموالكم على أنها مشكوك في شرعيتها وأنكم لا تستحقونها تماماً. ستكون علاقات من تتعاملون معهم تجارياً قائمة على أساس استغلالكم لأقصى ما هو ممكن، فالواحد منكم هو ذلك العربي الغني بما يسمى بالبترودولار، وهو بنظرهم مصادفة غير مبررة حصلت عليها أنت بكل طريق عدا طريق العمل وبذل الجهد. إن نظرتهم إليكم ستكون من خلال نظرتهم إلى بلد متخلّف حدثت فيه مصادفة طبيعية هي ظهور النفط حيث يمارس حاكموه وأهله شتى صنوف الاستغلال والحصول على المال بطرق غير مشروعة، فتلك هي الصورة في أذهانهم عن الحال في الدول النفطية في منطقة

الخليج العربي. ويساعد على تضخيم هذه الصورة خيال الإعلام الغربي ومبالغاته عن الشرق وما يجري فيه.

إنكم إنْ ظننتم أنكم ستجدون راحة البال والعيش الهادىء في بلاد المهجر فأنتم واهمون، فأبناؤكم سيكونون مشكلة لكم بسبب ما يتعرضون له من مشاكل المخدرات والجريمة والانحلال الخلقي، وبناتكم سيكون أمر زواجهن مشكلة وحياتهن الجديدة ما يحرج كرامتكم ويتناقض مع تقاليدكم ومع كل ما ترضونه وتحترمونه من قيم الشرف والعفّة. ستلفكم العزلة وستعانون وحشة الحياة الخالية من الحياة الاجتماعية والعائلية التي تعرفونها في بلادكم. وحتى الذي يتوفاه الله سيكون أمر دفنه إشكالاً وحسرة في نفوسكم، فالوالدة المسنّة المسلمة المتمسكة بدينها وعقيدتها تودّ لو أنها تدفن في بلادها وبين أهلها وذويها وحسب تقاليد دينها، ولكن ذلك لن يكون ميسوراً.

إن إقامتكم في بلاد الغربة ستكون موضوعاً للأخذ والرد، ومهما حدث فأنتم لستم من أهل البلاد، ووجودكم قد يكون مقبولاً في القانون إلا أنه ليس كذلك في الحقيقة وواقع الحياة. إن مجرد شعور الواحد منكم أنه لا يستطيع أن يرجع إلى وطنه هو بحد ذاته مصدر ألم لا حدود له ومدعاة لشقاء نفسي أليم لا يعرفه إلا من جرّبه واكتوى بناره. ستأكل الحسرة نفوسكم وسيعتصر قلوبكم الألم كلّما شهدتم أبناء وطنكم يسافرون أحراراً بجوازاتهم لكل مكان يرغبون فيه وأنهم يستطيعون الرجوع إلى الوطن متى

شاءوا معزّزين مكرّمين ويمرون من خط الجوازات بيسر ومن دون مشكلة. ستشعرون دوماً ان وضعكم غير طبيعي، وهو شعور ينمو بالتدريج ويكبر بمرور الوقت حتى يصبح مدعاة للشقاء في داخل النفس، وهكذا تدخل حياتكم نفق الألم وتتعرض للكآبة والإحباط والشعور بالذنب والتقصير كلما مرت الأعوام وتقدم الإنسان بالسن واقترب من نهاية العمر، فيجلس في كرسيه ويسرح خياله في ربوع الوطن ويتذكر حياة العزّة والانتماء التي كان يعيشها في بلاده آمناً مطمئناً مكرّماً طبيعياً كأيّ إنسان سويّ آخر. أما هو الآن فمطرود مسخوط عليه غير مقبول في وطنه وغير مندمج في وطن المهجر، عائلته شقيّة تعصف بها المشاكل والهموم إذ لم يستطع المال أن يحقق ما كانوا يحلمون به. يودون لو كان بمقدورهم أن يكونوا هناك حيث الأهل والأصدقاء والوطن وكل شيء يحبونه وينعمون بالرضى واحترام النفس وراحة الضمير. إن أصغر الأمور في الوطن مما كانوا يمارسونه يصبح ثميناً الآن عندهم يتمنونه كأكبر الأشياء. ماذا عملوا بأنفسهم وأي خطأ فادح ارتكبوه عندما لم يقدروا تلك النعمة الواسعة التي كانوا يرفلون فيها في ربوع الوطن؟ وعندها سيندمون صباحَ مساءَ حيث لا ينفع الندم ولا يجنون من الندم غير المرارة وعذاب الدنيا وجزاء الآخرة، حيث لم ينفع المال في الدنيا، وقطعاً إنه لا ينفع في الآخرة.

كل ذلك يجري للأفراد العاديين، أما الحاكمون ومن كانوا في السلطة فشقاؤهم أضعاف مضاعفة، لأن ذنوبهم أكبر وجرائمهم

أكثر، فهو معروفون في كل مكان، وحيثما ذهبوا امتدت إليهم أصابع الاتهام والتعريف، إنهم هم أولئك الذين عاثوا في الأرض فساداً، وملأوا الأرض ظلماً وجوراً، وأنهم هم أنفسهم الذين سرقوا ثروة الأمة وكدسوا المليارات في المصارف الأجنبية، وأنهم هم أنفسهم أشخاص تلك القصص القريبة من الخيال في التبطر والظلم والاستغلال والاستهتار، بالأمس كانوا أباطرة وقياصرة، واليوم هم أفراد عاديون في كل شيء عدا المليارات. سيكونون تحت نظر الجميع، وستجد وسائل الإعلام الغربية فيهم مادة لقصص الإثارة والتندّر. ستكون حياتهم مغمسة بالشقاء بكل ما ينطوي عليه من خوف وترقب وقلق وعذاب ضمير وحسرة على الماضي.

— ٤٩ —

وبعد إبداء تلك الملاحظات عن كل قطر جواباً عن أسئلة السائل المستوضح الكريم، قال محاولاً الاستزادة من الحديث: **هل لك أن تتحدث الآن عن الأمور الشاملة التي تغطي الوطن العربي كله؟** قلت له: نعم، يمكنني ذلك. ألا ترى أيّها السائل المستوضح الكريم ان تلك الملاحظات توضح أموراً مهمة تتعلق بنواحٍ كثيرة؟ ألا ترى مثلاً أن مشكلة توفير الطاقة في عموم الوطن العربي سيمكن حلّها جذرياً بالوحدة؟ إن الأقطار التي يقلّ فيها أو ينعدم النفط الخام سيكون بمقدورها الحصول على ما تحتاج إليه من منتجات نفطية بسهولة من دون أية مشاكل، وتوفير مصدر

الطاقة أمر مهم الآن، وسيكون أكثر أهمية في المستقبل. كما يلاحظ أيضاً ان البلدان العربية كلها سيكون بإمكانها توفير ما تحتاج إليه من جميع منتجات الصناعة الكيماوية المعتمدة على النفط بسهولة، وهي صناعات واسعة وكثيرة العدد، فالبلدان العربية الآن تملك صناعات كيمياوية نفطية تجد صعوبة في تسويقها في أسواق العالم. وبإمكان البلدان العربية أن تتوسع في هذه الصناعة مستقبلاً لسد حاجة السوق الداخلي والدخول كمنافس قوي في السوق العالمي.

ثم هناك أيّها السائل المستوضح الكريم مسألة توفير الغذاء وما يدعى بالأمن الغذائي، فالبلدان العربية ككل، فيها موارد زراعية هائلة، في حين يشكو بعضها من صعوبة الحصول على بعض السلع الزراعية الأساسية كالحبوب. إن السوق الداخلي الواسع سيستطيع امتصاص كل الإنتاج الزراعي الحالي وسيوفر الإمكانية للتوسع في استثمار الموارد الزراعية غير المستثمرة في المستقبل، وبذلك تؤمن الأمة حاجتها من الغذاء ولا تضطر إلى الاعتماد على استيرادها من الخارج والتعرض للضغوط السياسية والمصاعب المالية التي تفرضها الدول الكبرى مباشرة أو من خلال مؤسسات التمويل الدولية الخاضعة لنفوذها.

ولا يقل أهمية عن ذلك حل مشكلة قلّة رأس المال الذي تعانيه عملية التنمية في أكثر البلدان العربية، الأمر الذي جعل مواردها الأولية معطّلة، مما يضطرها إلى اللجوء إلى القروض من

المؤسسات المالية والمصرفية الدولية والخضوع لضغوطها وشروطها القاسية. إن رأس المال متوفر وفيه فائض على مستوى الوطن العربي، حيث يقوم بعض الأقطار أفراداً وحكومات باستثمار فوائضه المالية في الدول الصناعية الكبرى، التي تستخدمها بدورها لخدمة مصالحها الاقتصادية الخاصة بها. إن فائض رأس المال العربي سيكون بإمكانه حل الكثير من المشاكل وإزالة الكثير من المعوقات سواء في مجال التنمية الاجتماعية أم في مجال التطور الثقافي والاجتماعي للبلاد. ويعني ذلك من دون شك تحرير الأمة العربية من نفوذ الدول الاستعمارية وضغوطها وشروط المؤسسات الدولية الخاضعة لها. ان دفع عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والقضاء على الفقر والجهل والمرض والتحرر السياسي من نفوذ الدول الاستعمارية الذي تمارسه من خلال قدراتها المالية، أمور في غاية الأهمية للأمة العربية، سيكون من الممكن تحقيقها في ظل الوحدة ولا يمكن تحقيقها في ظل التجزئة.

ــ ٥٠ ــ

وإن كنت تسأل أيها السائل المستوضح الكريم عن مشكلة العمالة فالأمر يسير في الاتجاه نفسه. إن توزيع اليد العاملة الفنية وغير الفنية غير متساوٍ بين الأقطار العربية، فهناك أقطار عربية فيها زيادة كبيرة في السكّان مقرونة بزيادة في اليد العاملة الفنية وغير الفنية، الأمر الذي يشكّل عبئاً على اقتصادها الوطني. وهناك أقطار

عربية تعاني نقصاً في اليد العاملة الفنية وغير الفنية، الأمر الذي أعاق نموّها الاقتصادي والاجتماعي. إن هذه المشكلة سيمكن حلها في ظل الوحدة حيث يتحوّل الفائض في اليد العاملة من عامل سلبي إلى عامل ايجابي في القطر المصدّر وفي القطر المستورد لذلك الفائض. وبفعل قانون الأواني المستطرقة سيصبح من الممكن استثمار الموارد المعطلة لمصلحة التنمية القومية، وسيصبح من الممكن دفع عجلة التنمية الاجتماعية لاسيما في مجال الصحة والتعليم والبحث العلمي.

ومن المؤكد أيها السائل المستوضح الكريم ان الوطن العربي ككل سيحقق توفيراً مهماً في نفقات الدولة وفي المجالات العسكرية والادارية كافة، وذلك أمر بديهي، إذ إن الإنفاق على قوات مسلحة موحّدة لكل الوطن العربي سيكون أقل دون تخفيض في الكفاءة (إن لم يكن العكس)، وكذلك الحال في المصروفات على الدولة وتمثيلها الخارجي وقوى الأمن وجميع مرافق الدولة الأخرى. إن هذا التوفير هو ربح صافٍ في النفقات يتحقق في ظل التوحيد لمصلحة أوجه الصرف الأخرى خاصة التنمية والخدمات الاجتماعية.

ولا تنسَ أيّها السائل المستوضح الكريم ان الوطن العربي عندما يكون موحّداً في دولة واحدة، فإن ذلك يعني أنه يسيطر على ممرات دولية مهمة، هي مضيق جبل طارق وقناة السويس وباب المندب ومضيق هرمز، وتمر خلال هذه الممرات التجارة الدولية

بين الغرب الصناعي ومجموع آسيا وافريقيا، بما في ذلك تجارة النفط الخام. ان موقفاً موحّداً وسياسة موحّدة في هذا المجال ستمكّن الوطن العربي من الحصول على منافع مالية وتجارية واقتصادية مهمة لمصلحة مجموع الأمة، لا تتوفر في ظل وضع التجزئة حيث تتباين السياسات وينعدم التنسيق وتضعف قوة المساومة والتفاوض.

ولا يفوتك أيّها السائل المستوضح الكريم ان ترى أنه في ظل الوحدة سيكون من الممكن تنسيق وتوحيد وملاءمة جميع السياسات المشتتة المتفرقة المتضاربة أحياناً وفي جميع المجالات الاقتصادية والمالية والتجارية، وفي العلاقات الاقتصادية الخارجية، وفي النقل والاتصالات والمواصلات وفي كل شيء. والتنسيق والتلاؤم وتوحيد السياسات والقوانين والأنظمة والتفاوض الجماعي، كلها أمور تؤدي إلى جني منافع جمّة تضيع على الأمة في وضع التجزئة. وأنت تعرف على سبيل المثال، أيها السائل المستوضح الكريم، ما يدعى في علم الاقتصاد بمنافع الإنتاج الكبير أو منافع الحجم الكبير، وهي منافع جديدة يمكن الحصول عليها في حالة الحجم الكبير، ولا يمكن الحصول عليها في حالة الحجم الصغير. وأود في هذا المجال أن أضرب لك مثلاً مهماً على تلك المنافع، هو المنافع المتأتية من استخدام الطرق الحديثة المتقدمة تقنيّاً. ان العمل الصغير الحجم في شتى المجالات لا يمكن معه استخدام الوسائل التقنية المتقدمة من

آلات وتجهيزات وطرق عمل حديثة، في حين ان الحجم عندما يتسع يصبح من الممكن استخدام الوسائل التقنية الحديثة، وأنت تعرف أيها السائل المستوضح الكريم المزايا والمنافع التي تأتي من ادخال الوسائل التقنية الحديثة وأهميتها في زيادة الإنتاج والمردود. إذن فالتقدم التقني مقرون باتساع الحجم بحد ذاته. وما استخدام الحسابات إلا مثل واحد على ذلك. وهكذا تكون الوحدة العربية بمثابة فتح الأبواب لتحديث الاقتصاد العربي والحياة العربية برمّتها بفعل الاتساع الهائل في الحجم.

ـ ٥١ ـ

وبعد أن استمع السائل المستوضح الكريم إلى كل ذلك قال: إنه الآن يفكر في أمور أخرى أوحتها له تلك الملاحظات، وبدا وكأن الأمر قد اتسع في مخيلته، ممّا حفزه لإلقاء أسئلة جديدة في الاتجاه نفسه؛ فقال مستوضحاً: سمعتك تذكر بعض العبارات التي وإنْ كنتُ أفهم معناها عموماً إلا أنها تحتاج إلى المزيد من الشرح لتكتمل صورة ما تعنيه. قلت: وما هذه العبارات؟ قال: **إنك كررت ذكر عبارات كثيرة إلا أنني أجد بعضها على درجة كبيرة من الأهمية، لذلك رأيت أن أركز اهتمامي عليها، وهي عبارات القوة والاستقرار والتقدم. فهل لك أن تزيد في توضيح محتوى كل من هذه العبارات الثلاث.** قلت له: نعم، فذلك واجب على من يريد الإيضاح.

ولنبدأ بمفهوم القوة. إن القوة أيها السائل المستوضح الكريم تعني القوة من جميع الوجوه، وفي جميع النواحي، وليس القوة العسكرية وحدها فقط. أظن أنك تتفق معي ان توحيد البلدان العربية في دولة واحدة يؤدي إلى قوة للمجموع غير متوفرة في وضع التجزئة. إن ضمّ الأجزاء إلى بعضها البعض يعني ضم مواردها البشرية والمادية وقواها في مختلف النواحي. والضم هذا يؤدي إلى التفاعل الذي ينتج منه المزيد من القوة، أي قوة إضافية. فقوة المجموع العربي هي قوة الأجزاء زائداً القوة الناتجة من التفاعل، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من تنسيق وتكامل وتوازن. ويعني ذلك أنها قوة متنامية وليست ساكنة. إن القوة الناتجة من التوحيد تستطيع من دون شك حل المشاكل التي لا يستطيع وضع التجزئة أن يحلها في جميع الميادين. فالقوة الاقتصادية بكل ما يرافقها من سعة السوق والحجم الكبير تعني القدرة على بلوغ الأهداف الاقتصادية لمجموع الأمة كارتفاع مستوى المعيشة والتصنيع وحل مشكلة الغذاء وتنمية الزراعة والقضاء على الأميّة وحلّ الاختناقات في مختلف ميادين الحياة.

وتؤدي القوة إلى حل المشاكل السياسية التي هي الآن مصدر استنزاف لموارد الأمة لاسيما التحرير النهائي لفلسطين ولجميع الأراضي العربية المحتلة، وحصول الأمة على حقوقها المغتصبة ورفع الغبن عنها في ميادين العلاقة مع الآخرين تجارياً واقتصادياً ومالياً. وبعبارة أخرى، تؤدي القوة إلى نتائج ايجابية

لصالح الأمة في الميادين كافة، حيث أدّت حالة الضعف إلى حرمان الأمّة من تلك النتائج.

ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يتعداه إلى ناحية لا تقل أهمية ألا وهي دفع الشر المحتمل عن الأمة، فالأمة الضعيفة تغري الطامعين والأشرار بها، وتشجّع المعتدين للاعتداء عليها، ويؤدي كل ذلك بالتالي إلى تعرّضها لمشاكل وعقبات تستنزف مواردها وتعرّضها للأخطار والأضرار الفادحة. إن وضع الضعف بحد ذاته جاذب للمشاكل والأخطار، ووضع القوة بحد ذاته طارد للمشاكل والأخطار، وهو بذلك يعمل جداراً واقياً من خطر المعتدين والأشرار الطامعين. وبذلك توفر الأمة الكثير من الموارد والدماء والوقت والجهود، والأمثلة على ذلك كثيرة. فلولا حالة الضعف الناتجة من التجزئة لما تجرأت تركيا على التصرف بمياه الفرات كما تتصرف الآن، ولما استطاعت أن تقتطع لواء الاسكندرون من سوريا. ولولا حالة الضعف لما استطاعت العناصر الانفصالية أن تسبب للعراق وللسودان ما سببته من مشاكل ومصاعب وتضحيات، ولولا حالة الضعف لما تجرّأت الصهيونية على اغتصاب فلسطين واحتلال الأراضي العربية الأخرى، ملحقة تلك الخسائر المادية والبشرية بأمتنا، التي يستحيل احصاؤها بالدقة. ولولا الضعف الناتج من التجزئة لما استطاعت الدول الاستعمارية من الأساس أن تقتسم وطننا في سايكس ـ بيكو، وتدخل بريطانيا فلسطين والأردن والعراق وباقي الأجزاء التي احتلتها، وتحتل فرنسا

سوريا ولبنان وتونس والجزائر والمغرب. ويكفيك مثالاً أيها السائل المستوضح الكريم أن تعرف مدى التضحيات في البشر والمال والجهود التي اضطرت الجزائر إلى تقديمها لمجرد إخراج فرنسا من بلادها. إن مجرد وجود القوة، حتى ولو لم تستعمل، من شأنه أن يدفع الشر ويبعد العدوان ويطرد الطامعين، وبذلك تحقق الأمة منافع، بمعنى أنها توفر الكثير من الجهود والأرواح والأموال عن طريق تجنّب المشاكل التي يخلقها الضعف عن طريق اجتذاب المعتدين والأشرار والطامعين. ان القوة وضع محمود أيها السائل المستوضح الكريم ووجودها أمر مرغوب فيه وجيد وضروري، فقد أمر الله جلّ جلاله بذلك حينما قال في محكم كتابه ﴿**وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾[1]. إذن فعدو الله وعدونا من أجل أن نبعد شرّهما عنا يجب أن تكون هناك قوة. وذلك أفضل من وضع الضعف الذي يؤدي إلى اجتذاب أولئك الأعداء فيعتدون علينا، ونضطر عند ذاك إلى الدفاع عن أنفسنا فنشتبك معهم بمعارك تسفك بها الدماء وتهدر الجهود وتستنزف الأموال. إن وضع القوة يجنبنا كل ذلك، فهو وضع أفضل لنا، وهو أفضل حتى لأولئك المعتدين والأشرار لأنه يبعدهم ويجنبهم خسائر الحرب وأهوالها. ففي وضع الضعف تصبح المعارك والحرب أمراً لا مفر منه، أما في وضع القوة فتصبح الحرب مستبعدة. وهذا هو معنى القول بأن القوة ضرورية لإحلال

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الأنفال،» الآية ٦٠.

السلام في هذا العالم، حيث يوجد أشرار ومعتدون وطامعون.

ولا يفوتك أيها السائل المستوضح الكريم أن تعلم أن القوة بحد ذاتها تجلب المزيد من القوة، وبذلك تجلب المزيد من المنافع الايجابية والمزيد من استتباب السلام ودفع الشر. في وضع القوة تستطيع الأمة أن تستفيد من جميع الفرص الجديدة التي تظهر في العالم في ميادين التجارة والاقتصاد والعلاقات الاقتصادية الخارجية مع الكتل الاقتصادية الأخرى. وفي ظل وضع القوة تزداد رغبة الآخرين في التعامل معنا، وتقوية علاقاتهم معنا في الميادين كافة، الأمر الذي يؤدي بحد ذاته إلى تحقيق منافع عديدة من تلك العلاقات. الكل يريد التعامل مع القوي، كما يقال، والكل يخطب ودّه، والكل يريد تكوين العلاقة معه والتفاعل معه علمياً واجتماعياً واقتصادياً ومالياً وثقافياً، وفي كل شيء. إن النشاط المشترك مع الآخرين يصبح أكثر سهولة، وهو مصدر لمنافع جديدة ما كانت لتكون لولا ذلك التعامل المشترك الذي شجّعت القوة على ايجاده. فالقوي إذا فتش عن تعاون علمي وجده، وإذا ما أراد الحصول على معلومات ما وجد من يتعاون معه للحصول عليها، وهكذا. إنه في طبيعة التعامل الدولي كما في طبيعة البشر أن يرغب الجميع في التعاون مع القوي. ولا يصح ذلك على مستوى الدول فقط بل يصح أيضاً على مستوى الأفراد، فمواطنو الدولة القوية يجدون تسهيلات أكثر وترحيباً أكثر وفرصاً أكثر ومجالات أوسع في التعامل والعلاقة مع مواطني الدول الأخرى، وتلك حقيقة من

حقائق عالمنا الحاضر. وكل ذلك يعود في النهاية بمنافع جديدة مادية ومعنوية. إن القوة تجلب المزيد من القوة، ذلك أمر صحيح في عموم مجالات الحياة يحصل عليها القوي لمجرد كونه قوياً.

إنني أيها السائل المستوضح الكريم قد فكرت في نفسي وأنا أورد هذه الملاحظات، أنك قد يتبادر إلى ذهنك ما لا أقصده، وقد تذهب في التفسير إلى ما لا أعنيه. فما زلنا نتحدث عن أمور الواقع؛ فمن الواقعية أيضاً أن احتاط لسوء الفهم المحتمل من ايراد هذه الملاحظات. إن سوء الفهم ينتج من الحديث عن القوة، فقد يوحي لك أنني أقصد القوة المجردة عن المبادىء والأخلاق والقانون، أي القوة التي يستخدمها المعتدون الطامعون الأشرار في عالمنا اليوم. كلا أيها السائل المستوضح الكريم، فأنا لا أقصد بالقوة أي شيء من ذلك بل المقصود هو أن وضع القوة أفضل بكثير من وضع الضعف في عالم اليوم وحتى عالم الغد ما دامت نزعة الشر موجودة عند بعض بني البشر. إن الذي أعنيه هو أن القوة التي أدعو إليها هي قوة الأمة العربية لتستعملها في سبيل تحقيق أمانيها المشروعة وتحرير أراضيها المغتصبة ودفع الشر والعدوان والطمع عنها وبناء حياتها الجديدة، حياة السعادة والرفاهية والتقدم لمجموع شعبها. ومعاذ الله أن أقصد أن تستعمل الأمة قوتها لتحقيق منافع غير مشروعة على حساب الآخرين، فذلك لم يكن ولن يكون له مكان في تفكير أمتنا صاحبة الرسالات السماوية والمدافع الأمين عن مبادىء العدالة والحق والتحرر من الظلم

والاستغلال، بل على العكس، أيها السائل المستوضح الكريم، إن الأمة العربية عندما تكون قوية تستطيع أن تكون أكثر فاعلية ونشاطاً من أجل نصرة مبادىء الحق والعدالة في العالم، وأكثر قدرة على مساعدة الأمم المستضعفة والشعوب المستغلة في العالم، وبذلك تكون القوة عاملاً ايجابياً بجانب الحق والعدالة بدلاً من العكس.

وخلاصة القول: إن وضع القوة هو الوضع الصحيح والايجابي بالنسبة إلى الأمة، فهو الذي تستطيع بواسطته تحقيق أهدافها القومية والاجتماعية، وهو الذي يمكّنها من تجنّب شر الأشرار واعتداءات المعتدين، فالقوة مصدر خير وبركة من جميع الوجوه المادية والمعنوية. إنها مفتاح الاستقرار والتقدم.

ـ ٥٢ ـ

وبسماع عبارتي الاستقرار والتقدم، بادر السائل المستوضح الكريم للاستفهام مجدداً عن المقصود بهاتين العبارتين. **ما المقصود بالاستقرار وما علاقته بالوحدة؟** إنه استفسار وجيه لا يمكن أن يترك من دون جواب. وذلك ما فعلته حيث قلت: لا أريد أن أورد تعريفاً للاستقرار غير المألوف والمتعارف عليه، فهو ببساطة يعني الهدوء والاستمرارية في الأوضاع وعدم وجود الهزّات العنيفة والانقطاعات في مجرى الحياة اليومية والتطور، وبديهي أن يكون عدم الاستقرار ما هو نقيض ذلك.

إن الذي يستعرض أوضاع الأقطار العربية قطراً قطراً، يجد

أنها تعاني مشكلة عدم الاستقرار، فهناك الانقلابات العسكرية، وهناك الاضطرابات الداخلية المتسمة بالعنف، وهناك التغييرات في أنظمة الحكم واتجاهاتها، وهناك الأوضاع الانتقالية وحالة الطوارىء، وهناك التوتر بين النظام والمواطنين، وهناك مشاكل الأقليات، وهناك نزاعات الحدود، وهناك الانتفاضات المحلية، وهناك حروب الطوائف. ثم هناك وجود السلاح على نطاق واسع عند الجمهور، وهناك الجريمة الواسعة النطاق وأعمال التهريب والاضطهاد والتمييز والتهجير من قبل قطر لمواطني قطر آخر. ثم هناك حالة التوتر بين قطر وآخر، وحالة العداء، وحالة اتخاذ الاجراءات الانتقامية وتشديد الخناق على انتقال البضائع والإقامة وممارسة المهنة والسفر حتى من خلال القنوات الموجودة في ظل التجزئة، وهكذا. إن حالة عدم الاستقرار هذه التي تتفاوت من وقت إلى آخر، وبين قطر وآخر، إذ تخف أحياناً وتشتد أحياناً أخرى، وتتضاءل بين هذا القطر وذاك، ثم تعود لتتأجج، إن حالة عدم الاستقرار هذه من شأنها أن تجعل الأمور الموجودة غير نهائية، بمعنى أنها دوماً ينظر إليها على أنها موقتة قابلة للزوال من لحظة إلى أخرى. وقد خلق ذلك بمرور الوقت انطباعاً لدى الناس ان الموجود اليوم ربما لا يكون موجوداً غداً، وأن الوضع الذي يعيشون فيه الآن قد يتغير غداً. إن وضعاً كهذا لا ينسجم أبداً مع التقدم والتنمية والازدهار، لأن كل ذلك يحتاج إلى الاستمرارية والثقة. ان الموجود اليوم سيستمر غداً، أو أنه إذا ما تغير فإنه لا

يتغير بين ليلة وضحاها، وإذا ما أريد تغييره فإن ذلك يجري بطريقة سلمية هادئة ومن خلال العمل الاعتيادي الطبيعي للمؤسسات الموجودة وحسب مقتضى القانون. عندما يتكوّن الاعتقاد عند المواطن أن التغيير لا يمكن التنبؤ به ولا يمكن معرفة متى يتم وكيف يتم فإنه سيلجأ إلى الانتظار واتخاذ جميع اجراءات الحماية والوقاية من الآثار السلبية للمفاجآت القادمة. إن وضعاً كهذا لا يساعد أبداً على البناء والتقدم والازدهار. إن ضعف الثقة بالمستقبل يشجّع على هجرة العقول واليد العاملة المدرّبة كلما استطاعت ذلك، ويدفع رأس المال إلى الانكماش وتجنب المخاطرة ودخول مجالات الاستثمار الإنتاجية التي تتطلب وقتاً طويلاً من أجل أن تعطي مردوداً، لذلك فهو يلجأ إلى الأعمال السريعة غير المهمة للتنمية والأمينة المردود. إن التنمية تحتاج إلى التخطيط سواء أكان ذلك على المستوى العام أم الخاص، والتخطيط يصبح غير ممكن أو صعب جداً في حالة عدم الاستقرار. إننا نعرف ذلك حتى على الصعيد الشخصي، وفي أبسط الأمور فالفرد لا يشتري أثاثاً لغرفة إذا لم يكن متأكداً أنه سيبقى في هذا البيت مدة طويلة كافية لتبرير ذلك التأثيث. إن مجرد الانطباع أن الأوضاع الموجودة هي أوضاع موقتة يثبط العزيمة ويمنع المغامرة والمبادرات ذات الأمد الطويل، ويشلّ الإبداع، ويعطّل التفكير، وكل ذلك من شأنه إضعاف جهود التنمية والتقدم.

وكما مرّت الإشارة إليه، إن مشكلة عدم الاستقرار لا تشمل موضوع السرعة في التغيير بل طريقة التغيير أيضاً، فالمواطن الذي يتولد لديه الانطباع أو الاعتقاد ان الأوضاع عندما تتغير، سيكون ذلك بطريقة عنيفة تتضمن استخدام القوة والعنف الذي سيتضرر منه بعضهم، سيكون خائفاً من الإقدام على العمل وبذل الجهود والدخول في المشاريع ذات الاستثمار العالي والطويلة المردود خوفاً من أن يلحقه الأذى في أثناء عملية التغيير.

إن الحل الحاسم لهذه المشكلة هو الاستقرار، والوحدة هي الطريق الأمثل لذلك. في ظل الوحدة العربية تنتهي مشكلة الانقلابات العسكرية ومشكلة المغامرة الشخصية للوصول إلى الحكم، وتنتهي كل مشاكل التوتر بين هذا القطر وذاك، وتزول جميع احتمالات الضغط والأذى على مواطني هذا القطر أو ذاك من قبل حكومة هذا القطر عندما تتوتر علاقتها بحكومة القطر الآخر كما هو شائع في دنيانا العربية الآن.

في دولة الوحدة النظام ديمقراطي تعددي يحكمه الدستور، وفيه حكومة مركزية منتخبة حسب أحكام الدستور، وحكومة محلية منتخبة أيضاً تدير شؤون ذلك القطر. والقوات المسلحة تابعة حصراً للحكومة المركزية دون منازع ومهمتها حصراً هي الدفاع عن أمن الأمة وسلامة الوطن ووحدة أرضه.

وفي ظل دولة الوحدة تنتهي المشاكل الطائفية، فلا يعود

هناك أي مجال لهذه الطائفة لتطغى على الطائفة الأخرى، ولا لهذه الطائفة أن تحصل على امتيازات غير مشروعة. إن الصراع الطائفي في أغلب الحالات يخلقه السياسيون المحترفون ويؤججونه تحقيقاً لمصالح ذاتية لهم، مستخدمين الطائفية وسيلة لذلك، وفي ظل دولة موحّدة قوية تتضاءل مثل هذه الإمكانية. وفي ظل الوحدة يصبح من اليسير حل مشاكل الحدود مع الدول المجاورة من دون أن يطمع أحد بتحقيق مكاسب على حساب هذا القطر العربي أو ذاك، كما هو الحال الآن في ظل وضع الضعف والتجزئة. وبعبارة أخرى، ان فرص الهزّات الداخلية والخارجية تتضاءل عندما تتّحد جميع الأقطار العربية في دولة واحدة قوية لأن الهزّات مبعثها في الغالب حالة الضعف، وما يخلقه من أمل عند هذه الفئة أو تلك أو عند هذا الجار أو ذاك بتحقيق مكسب على حساب الآخرين.

إن الاستقرار أيّها السائل المستوضح الكريم كلمة تقال، إلا أنها ذات مغزى كبير وذات أهمية عظيمة للتقدم. الاستقرار يعني تراكم الخبرة وتراكم المعرفة، وهو يعني استمرار المشاريع التي يبدأ العمل بها الآن من دون أن تتوقف أو تنقطع. وهو يعني الانسجام والخط الصاعد الخالي من التعرجات الحادة. إنه يعني الاطمئنان وراحة البال والثقة بالمستقبل والقدرة على التخطيط والشعور بالأمان، وكل ذلك يشجّع على بذل أقصى الجهود، ويبعث على النشاط والعمل الجاد، ويشجع على المبادرة والابتكار

والابداع في كل شيء وفي شتى المجالات. إنه يشجع الاستثمار بشتى مجالاته الزراعية والصناعية والعمرانية لأن الاستثمار في المشاريع الطويلة الأمد يتطلّب حداً أدنى من الثقة بأن مصادر المواد الخام ستبقى موجودة تتدفق من دون انقطاع، وأن السوق سيبقى مفتوحاً لتصريف المنتوج، وأن المصارف ستبقى عاملة تموّل وتقبض وتمارس عملها من دون أن تغلق، وأن وسائط النقل ستبقى تعمل كالمعتاد وأن مصادر الطاقة ستكون متوفرة من دون انقطاع، وهكذا بالنسبة إلى جميع ما هو ضروري لنجاح المشروع.

الاستقرار أيها السائل المستوضح الكريم ضروري لعمل أجهزة الدولة وفي المجالات كافة، فالأشخاص الذين في دور التدريب سيتخرّجون من دون مانع، والموجودون الآن سيستمرون في عملهم براحة وهدوء، والمشاريع ستنفّذ كما خُطّط لها من دون هزّة تؤدي إلى التوقف. والبحث العلمي يحتاج إلى الاستقرار، وخدمات التعليم والصحة والنقل والمواصلات والصيانة والخدمات البلدية تحتاج إلى الاستقرار. وكل شيء يحتاج إلى الاستقرار من أجل أن يزدهر.

الأفراد المواطنون أيها السائل المستوضح الكريم لا يمكن أن يقوموا بواجباتهم كما يرام ولا يتمكنون من الإسهام الحي النشيط في خدمة وطنهم وتنمية اقتصادهم من دون استقرار. القطاع الخاص هو أكثر ما يكون حسّاساً لمسألة الاستقرار

والاطمئنان للمستقبل والثقة بالسلامة والشعور بالأمان. ففي أصغر الأمور وأكبرها، ومن الفرد صعوداً إلى الحكومة، الكل يحتاج إلى الاطمئنان والاستقرار. الاستقرار هو ثمرة مهمة من ثمرات الوحدة وهو ما نفتقده الآن كما دلّت على ذلك تجربة الأقطار العربية في مرحلة ما بعد استقلالها. في ظل دولة الوحدة وبمرور الوقت يتكوّن الشعور بالاطمئنان ويتحقق الاستقرار النهائي بأن مؤسسات المجتمع مستمرة في عملها بهدوء، وان التغيير يحصل بطريقة انسيابية هادئة خالية من الانكسارات الحادة ومن العنف واستخدام القوة، بل يجري كل ذلك بانسجام وهدوء وضمن القانون الذي يحفظ للجميع حقوقهم ويوفر للجميع الطمأنينة والعدالة.

قد يقال أيها السائل المستوضح الكريم إن عدم الاستقرار الحالي سيستمر في ظل الوحدة، أو حتى يمكن أن يقال إن عدم الاستقرار سيزداد في ظل الوحدة بسبب الصراع المحتمل من أجل النزعات القطرية ومطامع السياسيين المحليين. إن قدراً معيناً من ذلك قد يحدث في البداية شأنه شأن أي تغيير جذري يحدث في المجتمع، وتحقيق الوحدة الشاملة تغيير جذري في الوضع إلا أنه سرعان ما يزول وتتوازن الأمور ويجد جميع من في نفوسهم مطامع أو أحقاد أو نعرات من السياسيين المحليين أو غيرهم ان هذا الطريق مسدود وأن طريق التقدم في المجتمع مفتوح في مسالك أخرى شرعية وبنّاءة، وعليهم أن يتحولوا إليها بدلاً من مواجهة الأمة وتحمل مسؤولية إلحاق الضرر بأعز أمانيها القومية ألا وهي

الوحدة. لذلك وبعد مرور المرحلة الأولى المتسمة بالتململ الضار عند بعض أصحاب النفوس الضعيفة التي يحركها الشر، وبعد أن يحقق المجتمع الجديد الانتقال إلى الحياة الجديدة ويتوازن فيها يحصل ذلك الانسجام ويدب الهدوء في المجتمع وتسري الراحة في مفاصلة وتبدأ المؤسسات تعمل بصورة انسيابية منسجمة، وتبدأ الثقة تُبنى بالتدريج بالوضع الجديد وتترسخ به القناعة، ويأخذ المجتمع بالتحول، فيدب فيه الرضى وهو يرى مزايا الوضع الوحدوي ويجني ثماره يوماً بعد يوم، فيهدأ ويطمئن ويرتاح ويتفاءل. وعندها تتصاعد وتائر النشاط والعمل والإبداع فيؤدي كل ذلك إلى المزيد من الاطمئنان والقناعة والأمل بالمستقبل مؤدياً إلى المزيد من النشاط والعمل والإبداع. وهكذا وبشكل حلزوني يزداد المجتمع رسوخاً ويتأسس الاستقرار على قاعدة صلبة راسخة.

ـ ٥٣ ـ

بقي أن نتناول موضوع **التقدم** أيها السائل المستوضح الكريم، فقد جاء ذلك في التساؤل الذي طرحته بصدد موضوع الوحدة. نعم، **الوحدة باعث كبير للتقدم. فكيف يكون ذلك؟** أيها السائل المستوضح الكريم ان الوحدة لا تتحقق إلا على أنقاض التجزئة. ويعني ذلك إحداث تغيير جذري في أوضاع المجتمع العربي. فالتجزئة وضع قائم وموجود، له قوانينه ونظمه

ومؤسساته، ويعمل في تلك المؤسسات عدد من المواطنين بشتى الاختصاصات وفي مختلف المستويات والمسؤوليات. وعندما نقول بالوحدة نعني زوال هذا الوضع وإحلال وضع جديد في مكانه هو وضع الوحدة الذي لا بد له من قوانين وأنظمة جديدة، ولا بد له من مؤسسات جديدة، وفي كثير من الحالات لا بد له من أشخاص جدد. إنه وضع جديد يراد له أن يحل محل الوضع القديم. وتلك عملية تقديم وتجديد جذرية في المجتمع. إن عملية التوحيد هي في حقيقتها عملية تغيير جذري في الأوضاع العربية الموجودة.

ولا أظنك أيها السائل المستوضح الكريم لا تعرف أن وضع التجزئة قد مرّ عليه بعض الوقت، وساعده ذلك على مدّ بعض الجذور، فتكوّنت حوله بعض المصالح ونسجت له بعض العادات وطرق التفكير وعادات العمل. إن ذلك من طبيعة الأشياء، فكل وضع مهما كان فاسداً أو غير فاسد لا بد من أن تتكيف له أوضاع المجتمع بمرور الوقت. إن عملية التكيف هذه تحصل بدرجة أو بأخرى، سواء أكان النظام صالحاً أم غير صالح. ومن كل ذلك أريد أن أقول إن عملية تحقيق الوحدة تنطوي أساساً على إحداث تغيير جذري في هذه الأوضاع، أي تغيير الوضع الذي تكيّف نوعاً ما مع التجزئة. وتلك بحد ذاتها عملية تقدم من دون شك. إنها تفكيك وضع موجود من أجل تكوين وضع جديد مختلف عنه. فالوحدة تنطوي في جوهرها على فعل تقدمي إذا ما عرفنا التقدم

بأنه انتقال المجتمع من وضع إلى وضع آخر أفضل منه وأعلى منه في سلّم الرقي.

ولكن منبع التقدم لا يقتصر على هذه الخاصية النابعة من صميم تحقيق الوحدة، بل هناك عامل تقدمي آخر هو أن الحركة الوحدوية حركة تقدمية في الأساس، بمعنى أنها تؤمن بتجديد المجتمع العربي والانسجام مع روح العصر في المجالات كافة. ويعني ذلك ان حركة القومية العربية هي حركة عصرية وليست حركة سلفية، فهي منسجمة مع تقدم البشرية الذي حققته في مختلف المجالات، الذي هو ملك جميع الأمم وليس حكراً على أمة أو أمم معينة. إن هذه الصفة التقدمية هي الفارق الجوهري للقومية العربية عن الاتجاهات السلفية الرافضة جوهر العصر الحديث، التي ترى أن النهضة تتحقق فقط عن طريق بعث الماضي والتمسك به بحذافيره وبصورة حرفية. القومية العربية على عكس ذلك تؤمن بالتطور، وترى ضرورة الانسجام مع روح العصر والأخذ بما حققته البشرية من تقدم في مختلف نواحي الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعمرانية والثقافية بما لا يتناقض مع تراث الأمة ولا يتعارض مع شخصيتها المستقلة ومبادئها. إن ذلك صفة تقدمية مضافة ومهمة في حركة الوحدة العربية تجعلها مع التقدم في المجالات كافة.

ولكن السائل المستوضح الكريم قال محاوراً: نعم، تلك هي منابع التقدمية للوحدة العربية، أي مصادر الصفة التقدمية فيها،

وانني أفهمها، ولكنني أريد مزيداً من الإيضاح (وأنت التي سميتني بالمستوضح) عن مكنون عبارة التقدم. أريد أن أفهم ما يدخل في هذه العبارة من أشياء. قلت له: نعم، فطلبك مقبول.

التقدم، أيها السائل المستوضح الكريم يعني الانتقال من وضع إلى وضع أعلى وأفضل منه. ويعني ذلك أمرين أساسيين. **الأول**، هو ما يمكن أن نطلق عليه اسم التحديث، أي تحويل الموجود الذي هو دون الحديث في سلّم الرقي إلى مستوى الحديث، وهذا هو معنى مماشاة العصر والروح العصرية. وأظن أنك تتفق معي أيها السائل المستوضح الكريم أن الكثير من أوضاعنا وفي مختلف المجالات متخلف عمّا هو موجود في عصرنا الراهن. فالأقطار العربية، مع تفاوت في الدرجة، متخلّفة عموماً عن العصر الحديث. والتحديث يعني إدخال التطورات التي حدثت في مختلف المجالات الاقتصادية من زراعة وصناعة ونقل وتجارة ومواصلات وفي مجالات الصحة والتعليم والبناء والعمران والحياة الاجتماعية. وفي هذا المجال لا بد من التنويه تفادياً لسوء الفهم الذي ربما ينتج من الاطلاق، هو أن المقصود بذلك ليس تبديل كل شيء موجود عندنا، فهناك أمور مختلف على كونها تقدمية في ذات البلدان التي تسمى متقدمة، كما توجد هناك أمور في تلك البلدان هي من وجهة نظرنا تمثل رجوعاً إلى الوراء. إن جميع هذه الأمور لا ينبغي نسخها والأخذ بها. المقصود هو الأخذ بوسائل التقدم وطرق الإنتاج الحديثة وما هو مجمع عليه على أنه

متقدم وحسب اختيارنا. وبعبارة أخرى، التحديث يعني الانتقال من وضع ما قبل الوضع الحديث إلى الوضع الحديث.

ولكن عملية التقدم يجب ألاّ تقتصر على ذلك بل تتعداها إلى ما هو أبعد، فنحن أمة عظيمة وذات إمكانات وحضارات عريقة، فلا يليق بنا أبداً أن نكتفي بما هو موجود مما أنتجته الأمم الأخرى بل علينا أن نسعى إلى التقدم، والأبعد من ذلك، فنسهم نحن بقسط من التقدم الذي تستفيد منه الأمم الأخرى، وهكذا كان شأن أمتنا في الماضي. ويعني ذلك أن نسعى إلى استخدام طاقاتنا الذاتية وإمكاناتنا في الإبداع إلى جانب ما توصلت إليه الأمم الأخرى حتى الآن ونؤسس عليه، والانطلاق منه في سبيل إضافة جديدة إلى حضارة العالم، وهذا هو الأمر الثاني. إذن، فالمقصود بالتقدم هو هذا البعد الذي يجمع التحديث مع الإسهام الخاص بالتقدم الحضاري.

— ٥٤ —

أيّها السائل المستوضح الكريم إن حركة الوحدة العربية حركة حيّة، وهي تناضل من أجل تغيير الوضع الراهن إلى وضع الوحدة، وعندما تسعى إلى رفع المجتمع العربي إلى درجة أعلى في سلّم الرقي تكتسب روحاً تقدمية قوية تشحذ الهمم وتؤسس مبدأ الإقبال على التقدم والتعلق بكل ما يدفع إلى الأمام. وهي

عندما تقبل على الحديث مما توصل إليه العالم تزداد شحنة تقدمية جديدة. وهي عندما تتجه بدافع الثقة بالنفس إلى فهم التراث واستلهام مبادىء الماضي وروحه الايجابية تزداد روح التقدم فيها قوة على قوة. وهكذا تكون حركة الوحدة حركة مشحونة بروح تقدمية واندفاع قوي نحو الأفضل وتفضيل حاسم لما هو أرقى. إن هذه الروح التي تتضافر عوامل كثيرة في تكوينها، وتمدّها بدفعات متتالية من الحماسة والقوة بمرور الوقت هي الروح التي تطبع وضع الوحدة الجديد الذي يتسم برمته بروح التقدم وحب التقدم والسعي المتواصل إلى تحقيق التقدم. إن حركة الوحدة العربية لا يمكن إلا أن تكون تقدمية تتناول الأوضاع من جذورها لتحدث فيها تغييراً جذرياً نحو الأفضل والأحسن والأرقى والأكثر فائدة للإنسان المواطن. إن هذه الروح التقدمية هي التي ستقلب الأوضاع الراكدة الحالية وتقضي على الجمود، وهي التي ستبعث في نفس كل فرد حمّى التجديد والرغبة الملحة القوية لبناء مجتمع جديد من جميع الوجوه، مجتمع يكون فيه الفرد مواطناً متحركاً تواقاً للعمل محباً لبذل الجهود مقداماً متفائلاً، يكدح ذهنه وجسمه من أجل إحلال الجديد الجيد مكان القديم المتخلف. وهكذا سرعان ما يتحول المجتمع، كل المجتمع، إلى وضع متحرك يسوده النشاط والعمل والحركة وتفتح الذهن واتقاد التفكير، متفاعلاً ومتصلاً بالعالم وبالتراث، معتزاً بروح الأمة وماضيها وشخصيتها المستقلة، ومحترماً للغير ومتفاعلاً مع الأمم الأخرى والعالم الخارجي، ساعياً

من أجل الرفاهية والتقدم لنفسه وللآخرين، مستفيداً ممّا عند الآخرين، وعاملاً في الوقت نفسه على تقديم إسهام جديد من عنده لإفادتهم. كل ذلك يجري بروح الودّ والتفاهم والانسجام والقانون والتوازن والنضج وبعد النظر والتسامح. عندها ستجد أيها السائل المستوضح الكريم ان روح التقدم تسري في كل مكان، وتجدها في كل فرد وفي كل مؤسسة وفي أصغر الأمور وفي أكبرها. الكل يعمل من أجل التقدم، وهكذا تكون الوحدة العربية هي مبعث التقدمية وخالقتها، وهي التي بعد أن تخلقها تقوّيها وتديمها. والهدف هو سد الفجوة بيننا وبين الأمم المتقدمة، وعبور ذلك إلى ما هو أبعد وأعلى، وهو الإسهام الجديد في حضارة العالم وتقديم شيء إضافي جديد.

وتلاحظ أيها السائل المستوضح الكريم ان القومية العربية لا تستمد تقدميتها من اعتناق نظرية أخرى بل هي نابعة من ذاتها، أي، وكما أوضحنا، من كونها في الأساس تعمل على تغيير أوضاع متخلفة هي أوضاع التجزئة إلى وضع أعلى وأرقى وأفضل وأكثر فائدة وأسمى، هو وضع التوحيد. ومن خلال هذه العملية الجذرية الشاقة تكتسب روحاً تقدمية عالية. وهي من خلال عملية البناء الجديد والاتصال بالعالم والإقبال على العصر تزداد تقدميتها قوة وتكتسب دفعة جديدة من الزخم وروح الاندفاع. وهكذا تكون تقدمية الوحدة العربية ذاتية نابعة من ذاتها، وليست مكتسبة ولا غريبة، ولا تتطلب الأخذ بنظرية أخرى أو دفع أي ثمن أو قبول أية

شروط أخرى يفرضها الأخذ بتلك النظرية، كما هو الحال في الماركسية مثلاً.

القومية بحد ذاتها هي الدافع، ومنها تنبع النزعة إلى التقدم. والمقصود بذلك على وجه التحديد هو أن الثقة بالنفس والاعتزاز بالماضي والرغبة في تعويض ما فات والسعي إلى اللحاق بركب التقدم في العالم وروح المنافسة في مجال التحضير، والعمل من أجل الإسهام في حضارة العالم، كلها أمور ترافق حياة الأمة الموحدة وانبعاث الروح القومية. لذلك يكون التقدم نتيجة عملية لهذا الموقف الروحي والشعور الذي يعمّ الأمة عندما تنهض وتتوحد. ويلاحظ ذلك بدرجة أعلى على الأمم بعد أن تستقل حيث تكون مرحلة ما بعد الاستقلال جديدة في حياتها، تتسم بالتفاؤل والرغبة الملحّة للبناء والتقدم. كما سيحصل ذلك وبشكل أكثر وضوحاً وأوسع نطاقاً عندما تتوحد أمتنا بعد كل الذي حصل، وبعد تلك النكبات ومرحلة التراجع والتجزئة. عندما تتوحد أمتنا وتخرج إلى العالم بدولة جديدة واحدة بهذا الحجم والقوة والاتساع، وبهذا التاريخ والماضي وبهذا النضال المستمر في الحاضر، أقول: عندما يحصل ذلك، سترى أيها السائل المستوضح الكريم أي روح متفائلة ستعمّ، وأي اندفاع للبناء والتقدم ستشهد، وأية حماسة سترى تشعل النفوس وتذكي العزائم وتشحذ الهمم من أجل تجديد مرافق الحياة وإحلال الجديد الأحسن مكان القديم المتخلّف، وسيكون ذلك شاملاً عاماً من أصغر الأمور إلى أكبرها،

وعلى نطاق الفرد وعلى نطاق الأمة. سترى أيها السائل المستوضح الكريم الأمة وهي تعمل ليلاً ونهاراً كخلية النحل في اتجاه التقدم وبناء المستقبل، وعندها يحصل ذلك الانقلاب الروحي وتتفجر القوى الكامنة المكبوتة في مجالات البناء والإعمار والتجديد والتقدم كافة، وسيكون بمقدور كل فرد أن يعتصر من نفسه أضعافاً مضاعفة من القوة والنشاط والقدرة على العمل المضني والإبداع والابتكار، وسيجد كل فرد نفسه وقد أصبح إنساناً آخر كله قوة ونشاط وتفتّح وعمل من أجل التقدم. إن مثل ذلك لا يحصل أيها السائل المستوضح الكريم إلا عندما يدبّ في الأمة الحماسة القومية النابعة من الأعماق، وعندما تهزّها مشاعر الأهمية والثقة بالنفس والاعتزاز بالمكانة وتقدير الماضي والتفاؤل بالمستقبل. إنها الحرارة والحماسة التي لا يُوجِدها إلا الشعور القومي، الشعور بالانتماء إلى أمة عظيمة ناهضة. حقاً ان القومية هي منبع التقدم. فهل أوضحت لك الآن أيها السائل المستوضح الكريم المقصود بالقوة والاستقرار والتقدم في مجتمع الوحدة؟ قال: نعم، الأمور واضحة الآن. قلت: والحمد لله على ذلك.

ـ ٥٥ ـ

ثم قال السائل المستوضح الكريم: إنك على ما أظن ترغب في إكمال الشرح، وتحب الزيادة في التوضيح، فإن كنت كذلك، فهل عندك المزيد مما تريد أن تقوله ممّا لم يخطر على بالي بعد؟

قلت: ربما هناك مفاهيم وتعابير غالباً ما ترد مقرونة بالحديث عن القومية. وقد يساعد شرح تلك المفاهيم على إحاطة الموضوع من جميع جوانبه. قال: بارك الله ذلك المسعى، فإني مستمع لما تقول.

قلت: أيها السائل المستوضح الكريم، **أَلَمْ يخطر على بالك ضرورة توضيح الفرق أو التشابه بين القومية والوطنية؟** قال: بلا، وهل لديك ما تقوله عن ذلك؟ قلت له: **القومية** مشتقة من القوم، أي الأمة، وهي بهذا المعنى تعني حب القوم، أي حبّ الأمة. أما **الوطنية** فلغوياً مأخوذة من الوطن، أي الأرض، وهي بهذا المعنى تعني حبّ الأرض. وهنا لا يمكن تصور وجود اختلاف أو تناقض، فالعربي الذي يحب أمّته لا يمكن إلا أن يحب وطن تلك الأمة، كما أن الذي يحب وطنه لا يمكن إلا أن يحب الأمة التي تسكن ذلك الوطن. وبهذا المعنى تتطابق القومية مع الوطنية. الشيء الآخر الذي يمكن أن يقال عن الموضوع هو أنه في حالة التجزئة التي تعيشها أمتنا في الوقت الحاضر ربما كان هناك فرق، فالقومية تعني الأمة بكاملها، في حين أن الوطنية تنصرف إلى القطر الواحد. فعندما يقال إن فلاناً قومي، فالمقصود هو أنه معني بالأمة العربية من الخليج إلى المحيط، وعندما يقال إن فلاناً وطني، فالمقصود هو القطر الذي ينتمي إليه. وفي التاريخ الحديث للوطن العربي اقترنت العبارتان بهذين المفهومين. وعلى ذلك فعندما تتحد الأمة وتزول التجزئة يزول هذا الفرق بين القومية والوطنية فتتطابق العبارتان.

ومن أجل المزيد من الإيضاح لا بد من التنويه إلى أنه في ظل التجزئة هناك فرق بين معنى القومية ومعنى الوطنية، ولكن ذلك لا يعني وجود تناقض، فالفرق واضح، كما أظن، بين وجود فرق وبين وجود تناقض، إذ بالرغم من أن مفهوم القومية لا يتطابق مع مفهوم الوطنية كما هو دارج الآن في ظل وضع التجزئة إلا أنه لايوجد تعارض، فالقومي لا يمكن إلا أن يكون وطنياً بمعنى حب القطر الذي يعيش فيه. كما أن الوطني لا يشترط أن يكون معادياً للأمة العربية. صحيح هناك بعض أصحاب النزعات القطرية ممّن يعادون الوحدة العربية إلا أن ذلك ليس شرطاً ملازماً للوطنية، أي من يحب القطر الذي يعيش فيه. وأخيراً، من المفيد أيضاً الإشارة إلى أن مفهوم القومية أكثر أصالة واتصالاً بالحياة، لأنه يتجه نحو الإنسان ويهتم بالأمة، في حين إن مفهوم الوطنية يتجه إلى شيء جامد هو الأرض.

وإن كنت مهتماً أيها السائل المستوضح الكريم بالإحاطة، فبودي أن أنقل إليك أنني عندما كنت طالباً في الجامعة في بيروت في أوائل الخمسينيات نشب نزاع بيننا كطلاب قوميين وبين إدارة الجامعة حول تفسير المادة الموجودة في دستور جمعية العروة الوثقى، وهي الجمعية التي كانت تضم الطلبة القوميين، إذ كانت المادة تنص على أن هدف الجمعية هو تنمية الروح الوطنية الحق، وكان تفسير إدارة الجامعة لتنمية الروح الوطنية الحق هو الاهتمام بالأمور غير السياسية كمكافحة الأمية ومساعدة المحتاجين والقيام

بالنشاط الفني والأدبي... إلخ، في حين كان تفسيرنا هذه العبارة هو الاهتمام بالقضايا القومية مما يقع في مجال العمل السياسي. وهكذا ترى أيها السائل المستوضح الكريم أنه لم يكن هناك فرق في تفكير القوميين بين الوطنية والقومية لأن الوطن في تفكير القومي لا يعني القطر بل الوطن العربي الكبير.

وإزاء ذلك انتعش السائل المستوضح الكريم، وانفرجت أساريره، وتنشّط تفكيره، فبادرني هو بالاستفهام قائلاً: **وما علاقة القومية بالإنسانية وبالعالمية**، وهي عبارات غالباً ما نشهد ترددها في الوسط المثقف؟ قلت: نعم، هذا صحيح.

أيها السائل المستوضح الكريم، **القومية** التي نؤمن بها **إنسانية** بالمعنى الصحيح للإنسانية، أي الاهتمام بالإنسان وجعله يعيش حياة سعيدة منتجة. القومية كما سبقت الإشارة إليه تؤمِّن للإنسان العربي مجتمعاً يتّسم بالقوة والاستقرار والتقدم حيث تتحقق التنمية الاقتصادية المتوازنة ويرتفع بسببها مستوى المعيشة، ويتمكن المواطن من الحصول على الحدّ الأدنى اللائق من الحياة الكريمة، ويتمتع بمزايا التقدم التقني والعلمي والاختراعات الحديثة ونتاج الحضارة في الميادين كافة. كما أنها تحقق العدالة في توزيع الثروة، وتتناقص الفوارق بين الطبقات، ويقام العدل والإنصاف بين القوي والضعيف والغني والفقير، وذلك لأن للإنسان المواطن قيمة عليا يهتم بها المجتمع وترعاها الدولة.

وفي ظل الوحدة يتحقق الاستقرار الذي هو أساس الاستمرارية والهدوء وسيادة القانون والاطمئنان للمستقبل والقدرة على معرفة ما سيأتي، والتنبؤ بالقادم من الأمور، ويساعد كل ذلك على الراحة النفسية والأمان. وفي ظل الوحدة يندفع المجتمع في طريق التقدم والتجديد والبناء من أجل ردم الهوّة بينه وبين العالم المتقدم، ومن ثم الإسهام في حضارة العالم بشيء جديد يفيد البشرية جمعاء. في ظل هذه الظروف، أيها السائل المستوضح الكريم، يتحقق للإنسان العربي وضع مادي وروحي ملائم ومتفتح ومتحرر من قيود الحاجة يتسم بالراحة النفسية والإنتاجية والفرح والتفاؤل والاطمئنان للمستقبل. وفي ظل كل ذلك تتهيأ أفضل الظروف للإنسان للإنتاج والإبداع في شتى ميادين الحياة، وبذلك يستطيع أن يحقق كل ما في نفسه من قدرات وطموحات إنسانية مشروعة في ظل الصحة الجسمية والنفسية والتفاؤل وتهيّؤ وسائل العمل والإنتاج والتمتع بمباهج الحياة. إن مثل هذه الأوضاع المتسمة بالسعادة والإنتاجية هي أفضل الظروف لتحقيق إنسانية الإنسان، وبذلك يكون المجتمع القومي هو الأفضل لازدهار الإنسانية، أي تحقيق إنسانية الإنسان. وهكذا ينمو في الإنسان العربي حب الآخرين وروح التعاون مع الأمم الأخرى واحترامها وتقدير أوضاعها وتقديم المساعدة الممكنة من أجل تحسين أحوالها. وهكذا تكون النظرة الإنسانية المتفتحة بين أفراد المجتمع العربي هي التي تسم العلاقة بينهم وبين الأمم الأخرى، وتلك هي الإنسانية القومية.

أما **العالمية**، أيها السائل المستوضح الكريم، فهي إن كانت تعني الاهتمام بشؤون العالم من قِبَل الأمة العربية، أي الإسهام في التعاون الدولي وأخذ موقف ايجابي من القضايا ذات الصفة المشتركة والإسهام النشيط في منظمة هيئة الأمم المتحدة ومنظماتها المتخصصة وأخذ موقف مؤيد لحركات التحرر في العالم ومساندة الشعوب المضطهدة ومقاومة التمييز العنصري ومقاومة الاستعمار والاستغلال أينما وجد في العالم، فذلك أمر مقبول جداً، ونؤيده نحن كقوميين، لأنه نابع من صميم نظرتنا الإنسانية. أما إذا كانت العالمية تعني تكوين دولة عالمية تذوب فيها الحدود القومية على غرار ما تخيلته الماركسية أو ما تتخيله اتجاهات دينية أخرى فهي أمر غير مقبول لأنه تصور خيالي ومضرّ بمصلحة جميع الأمم ومبدّد الجهود وغير قابل التحقيق. فالعالم مكوّن من أمم مستقلة متعاونة في ما بينها وليس من أفراد. إن فكرة الدولة العالمية فكرة لا يمكن تصنيفها إلا في عداد الخيال الفكري غير القابل للتحقيق، والمضر في أساسه ومراميه. القومية لا تتلاءم مع هذا المفهوم للعالمية.

ومن الجدير بالذكر أيها السائل المستوضح الكريم ان فكرة العالمية بهذا المعنى غالباً ما كانت من مطامع الراغبين بالسيطرة على العالم عن طريق القوة والاستعمار، وقد تكرر ذلك مراراً في

التاريخ، وكانت نتائجه مفعمة بالدمار وسفك الدماء والآلام والمظالم التي راح ضحيتها بشر كثيرون، وبُدّدت فيها الثروة، وحلّ من جرائها الدمار والتخريب، كما هو معروف في حقبات التاريخ. إن هذا النوع من العالمية كان دوماً الستار الذي تختفي تحته نزعات الاستعمار والشر والأنانية والاستغلال ومشاعر الغطرسة وشهوة الحكم والأحلام الشريرة للفاتحين الطغاة.

ـ ٥٧ ـ

وقد شعرت أن علائم الارتياح بدأت تظهر على محيّا السائل المستوضح الكريم، وابتسم راضياً، وقال: نعم، إن هذا المفهوم للعالمية لا يمكن تحققه إلا بالقوة، وإن تحقق فإلى حين، إذ سرعان ما ستقاومه الأمم المغلوبة على أمرها، ويكون مصيره الحتمي الزوال تحت نضال الشعوب والأمم المتعلقة باستقلالها وحريتها والدفاع عن شخصيتها وتراثها وحياتها التي تريد. إلا أنه بجانب ذلك قال: **وما هي بنظرك علاقة القومية بالتقدمية والرجعية، أو بعبارة أخرى، ما مفهوم التقدمية ومفهوم الرجعية عندكم أنتم المنادون بالقومية العربية؟** فأجبته: إنك أيها السائل المستوضح الكريم تتذكر انني شرحت معنى التقدم النابع من صميم الروح القومية، المقترن بوضع الوحدة، أليس كذلك؟ قال: نعم، أعرف ذلك، فقد سبق أن شرحته قبل قليل. **التقدمية** تعني الرغبة والعمل من أجل التقدم بكل ما ينطوي عليه من تجديد

وتحديث، وما يتبعه من خلق وإبداع جديد يقدم لحضارة البشرية إسهاماً جديداً من قِبَل الأمة العربية. التقدمية تعني في مجال العلاقات الخارجية مع الأمم الأخرى تلك النظرة الإنسانية التي سبقت الإشارة إليها، أي التعاون والإسهام في النشاط المشترك مع الدول الأخرى والانفتاح على العالم الخارجي، كما تعني مساعدة الشعوب المضطهدة وتقديم العون لحركات التحرر ومقاومة الظلم والاستعمار والتمييز العنصري والاضطهاد أينما وجد في العالم، والوقوف مع كل ما هو خير وتقدم وحرية للشعوب الأخرى. هذه هي التقدمية بنظرنا في الداخل والخارج، فهل أصبح ذلك مفهوماً؟ قال السائل المستوضح الكريم: نعم، مشيراً بالإيجاب.

أما **الرجعية** فمفهوم يتعلق بالرجوع إلى الوراء، والرجوع إلى الوراء يعني شيئين. **الأول**، هو المحافظة على ما هو موجود حتى ولو كان متخلّفاً عن روح العصر، ولذلك فالعبارة الأكثر ملاءمة ليس الرجعية بل المحافظة، فيقال عن الشخص الذي يتمسك بالموجود المتخلّف محافظاً، وليس رجعياً. وإن جاز استعمال عبارة الرجعية في مثل هذا الحال فهو لأنه يعني التمسك بما أصبح في الخلف بالنسبة إلى ما حققه العصر الحديث في تلك الناحية، الأمر الذي يجعله متخلّفاً. والرجعية قد تعني الرجوع إلى الماضي المتخلف وإن لم يكن موجوداً الآن. فعندما ينادي فرد أو مجموعة أفراد بإبدال ما هو مطبّق الآن في هذه الناحية أو تلك من حياة المجتمع بما كان مطبّقاً في الماضي ولم يعد مطبقاً الآن

لأنه متخلف تجاوزه المجتمع بما حققه من تقدم، فذلك هو المفهوم الواضح للرجعية. القومية العربية ضد التخلّف بنوعيه الموجود حالياً، والذي كان موجوداً في الماضي. القومية العربية تؤمن بالتطور وترى بأن المجتمع البشري في تطور مستمر من خلال السعي المتواصل والنضال الدؤوب من أجل تحسين الحياة وتوسيع سعادة الإنسان عن طريق الإبداع والتغيير المستمر للنظم السائدة في المجتمع والتحسين المستمر لطرق الحياة وأساليبها في المجالات كافة. إن عملية التطور هذه أمر طبع التاريخ البشري منذ أن وجد الإنسان على وجه الأرض وهو عملية مستمرة. وليس أدلّ على ذلك ما حققه الإنسان من تطور وتجديد وتبديل خلال العصور، حيث تكّون الفارق الكبير بين حياته اليوم وحياته في أول وجوده على سطح الأرض، والعملية مستمرة ما استمرت الحياة. إن الإيمان بالتطور هو المبدأ الجوهري الذي تؤمن به القومية العربية ويطبع تفكيرها بطابع يميزها تماماً عن الأفكار المحافظة والاتجاهات الرجعية.

وهنا أجدني مضطراً أيها السائل المستوضح الكريم أن أجلب انتباهك إلى شيء مهم يتعلق بالموقف من الماضي والتراث وبمجمل ما هو موجود في حياة المجتمع العربي الآن. القومية العربية في مجال التطبيق لا تقبل الحاضر والماضي برمّته، وعلى علاته، ولا ترفض الحاضر والماضي برمّته، بل هي تختار الأفضل فتبقيه، وترفض المتخلّف السيىء فتغيّره، وتحلّ محلّه ما هو جديد

وجيد. ويعني ذلك في مجال التطبيق موقفاً انتقائياً. نعم، القومية العربية انتقائية في موقفها من الماضي والحاضر الموجود. ومن دون ما أدخل في موضوع كيف نحدد ما هو متخلف سيىء لنرفضه وما هو جيد لنبقيه، لأن ذلك يذهب بنا خارج حدود موضوعنا، ولأنه قضية معقّدة تتعلق بالنظرة والأساس الفكري، مما لسنا في صدده الآن، أقول، ومن دون أن أدخل في هذا المجال: الطريقة الانتقائية هذه هي موقف التوازن والوسط النابعة من المبدأ الأساس الذي ذكرته ألا وهو الإيمان بالتطور. وبعبارات تلخص الموضوع أيها السائل المستوضح الكريم أقول: القومية العربية تقدمية، حسب ما مرّ ذكره من ايضاح، وهي ضد الرجعية والمحافظة وحسب ما مرّ ذكره من ايضاح أيضاً. وهي في كل ذلك تؤمن بالتطور المستمر للمجتمع العربي وللمجتمعات الأخرى في العالم.

ـ ٥٨ ـ

بقي أيها السائل المستوضح الكريم أن أبادر بنفسي لايضاح قضية أتوقع جداً أن تكون راغباً في الحديث عنها ألا وهي **الموقف من الأقليات في مجتمع الوحدة العربية**. فقال السائل المستوضح الكريم موافقاً على ما توقعته.

أيّها السائل المستوضح الكريم أود أن أبدأ الحديث بالقول

بأن الوحدة العربية عندما تتحقق سيتم مع تحقيقها بناء مجتمع جديد، والصفة الأولى لهذا المجتمع هو أنه مجتمع مدني قبل كل شيء تنظمه مجموعة قوانين وأنظمة يشرعها المجتمع عن طريق مؤسساته التشريعية، وهي تعتبر إرادة الشعب السلطة العليا في المجتمع، فهي التي تشرّع القوانين وتمارس السيادة في الداخل والخارج من خلال المؤسسات وبمقتضى الدستور والقوانين والأنظمة التي تضعها تلك الإرادة.

وفي ظل ذلك تكون الرابطة القومية والوطنية هي الرابطة الوحيدة المعترف بها في المجتمع، وهي أساس علاقة الفرد بالدولة وبالحكومة. والولاء الوحيد المعترف به هو الولاء للدولة الموحّدة وللأمة، ويعني ذلك ان المواطن له حقوق وعليه واجبات تحددها القوانين والأنظمة فهو يثاب أو يعاقب بناء على تلك القوانين وبمقدار تأديته الواجبات وتمتعه بالحقوق. إن الإخلاص للوطن والأمة وتنفيذ القوانين وتأدية الواجبات التي تنصّ عليها القوانين هو المعيار الوحيد للتقييم بغضّ النظر عن كل اعتبار آخر. فالمواطنون متساوون في الحقوق والواجبات ويعاملون سواسية بغضّ النظر عن كل اعتبار آخر كاعتبار الجنس واللون والقطر والدين والمذهب والعشيرة، أو أي اعتبار آخر، فليس لأحد أيّ امتياز إلا بمقدار ما يمتاز به من ولاء وخدمة للصالح العام وتأدية الواجبات وحسب ما تقتضيه القوانين، وليس على أي أساس آخر. كما لا يضار أي مواطن إلا بمقدار تخلّفه في الولاء وخدمة

الصالح العام وتأدية الواجبات حسب مقتضى القوانين، وليس على أي أساس آخر. هذا هو مبدأ المساواة في المواطنة.

في دولة الوحدة أقليات دينية ومذهبية وعرقية وغيرها من الأقليات. إن هذه الأقليات تتمتع تماماً بكامل الحقوق التي يتمتع بها الآخرون، وعليها الواجبات نفسها التي تقع على الآخرين. في دولة الوحدة العربية هناك الأكثرية وهناك الأقليات، وذلك واقع معروف. وفي ظل مبدأ المساواة المذكور (الجميع متساوون أمام القانون). ولكن بالإضافة إلى ذلك، هناك روح الإخاء والاحترام والودّ إزاء الأقليات من حيث مشاعرها الدينية وطقوسها وعاداتها وتراثها وتقاليدها ولغاتها وأديانها ومعتقداتها، لذلك يكون لها كامل الحرية في ممارسة كل ذلك باحترام وتقدير وحرية تامة. ويعني ذلك أن الأمر لا يقتصر على المساواة أمام القانون بل يتعداه إلى الرعاية بكل ما تعنيه هذه العبارة. ان أساس المجتمع هو المواطنة المدنية القائمة على مبدأ الولاء والإخلاص للأمة ومصلحتها القومية العليا، وأساس العلاقة في داخل الدولة بين المواطنين هو التعاون والإخاء والرعاية والاحترام من قبل الأكثرية للأقلية.

وإذا كنت تسأل أيها السائل المستوضح الكريم عن مصادر التشريع للقوانين والأنظمة فأقول: إنها (على الأسس المارة الذكر) متعددة وليس منفردة. التشريع عملية انتقائية في مصادرها، فهناك التراث، وهناك ما توصل إليه العصر، وهناك ما يبدعه العقل البشري

تحقيقاً لكل ما يخدم التقدم والصالح العام. المهم هو أخذ ما هو صالح من أي مصدر كان.

أَلَمْ تلاحظ أيها السائل المستوضح الكريم أن قاعدة المواطنة في المجتمع العربي الجديد تقوم على أساس المساواة أمام القانون، وأن الثواب والعقاب للمواطن يحدده مدى قربه أو بعده عن الصالح العام، أي مقدار ما يقدمه من خدمة للصالح العام؟ وكما قال الله تعالى في محكم كتابه المجيد ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[1]. كذلك، وعلى الصعيد المدني، إن أقربكم بنظر القانون أكثركم خدمة للمصلحة العامة، وبذلك لا يتمتع أحد بامتياز نابع من أي اعتبار آخر غير اعتبار الإخلاص والولاء للأمة وخدمة مصلحتها القومية العليا.

ـ ٥٩ ـ

وجلب انتباهي ان السائل المستوضح الكريم كان أحياناً يتململ في أثناء الإجابة عن بعض أسئلته، وكأنه يريد أن يستوضح عن أمر ورد في أثناء الإجابة، فقلت له مبادراً وتحاشياً لاستمرار ذلك الإبهام في ذهنه: هل هناك ما يشغل تفكيرك؟ قال: نعم، أراك تستعمل عبارتين هما القومية والوحدة، واحدة مكان الأخرى، فأراك مثلاً تورد عبارة القومية وأنت تشرح المفاهيم السابقة الذكر،

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الحجرات» الآية ١٣.

في حين ان موضوعنا هو الوحدة. فهل جاء ذلك مقصوداً أو أنه سهو في استخدام التعابير؟ قلت له: إنه ليس سهواً في استخدام العبارات. صحيح ان القومية ليست عبارة مرادفة لكلمة الوحدة، ولكن استخدام الواحدة مكان الأخرى لا يخلّ بالمعنى. القومية هي الشعور بالانتماء لأمة واحدة وهذا الشعور يتطلب إحداث تغيير جوهري في حياة الأمة في الوقت الحاضر، وهذا التغيير يتناول وضع التجزئة وتغييره إلى وضع الوحدة. إذن الوحدة هي الخطوة العملية العامة التي تقتضيها القومية في هذه المرحلة. إنها التعبير العملي عن الشعور القومي في هذه المرحلة الزمنية. وبذلك يكون مجتمع الوحدة هو المجتمع القومي، أي المجتمع الذي تسوده الروح القومية والشعور القومي. أظن أن ذلك يكفي لتوضيح الموضوع وإزالة أي التباس محتمل. قال السائل المستوضح الكريم: هو ذاك.

— ٦٠ —

نعم لقد قطعنا أشواطاً مهمة في هذه المناقشة المتكوّنة من سؤال وجواب عنه، فحصل شيء من التلاؤم والارتياح بيننا، فأخذت أحاول أن أقرأ ما يدور في نفس ذلك السائل المستوضح الكريم، وأخذ هو يبادر في كشف ما يدور في ذهنه ويتحدث إليّ بشيء من الراحة والاطمئنان. فتمطّى شيئاً في مجلسه، وقال

متمتماً: **ولكن ماذا نعمل بهذا الوضع: وضع التجزئة؟** إنه الواقع الذي نعيش فيه قانونياً ودولياً. قلت: إنه واقع، هذا صحيح، ولكن ماذا تريد أن تقول بناء على ذلك؟ قال: إنني لا أبرر لأحد ولا التمس الأعذار، ولكنني ألاحظ أن المسؤول العربي في دولة من الدول القطرية الموجودة الآن مضطر إلى العمل في نطاق الموجود، وهو الدولة القطرية، فعليه أن يحمي استقلالها ويؤمن مصالحها إزاء الغير، والغير قد يكون دولة عربية أخرى. كما أن حماية مصالح دولته إزاء الأجنبي من غير العرب ربما لا ينسجم مع مصالح قطر عربي آخر، فماذا يفعل؟ هل يضحي بمصلحة الدولة التي يعمل مسؤولاً فيها؟ ماذا ترى؟

قلت له: أيها السائل المستوضح الكريم لنبدأ أولاً من البسيط ونتدرج إلى المعقّد. هل يؤمن هذا المسؤول الذي تتحدث عنه بالوحدة العربية، وهل هو مخلص لها؟ إذا كان الجواب نعم، فمن ذلك نتدرج صعوداً في مناقشة الموضوع. لنأخذ أولاً موضوع تلاؤم الخطط القطرية مع الخطة القومية. إنني لا أنكر أنه يجب أن تكون للدولة القطرية في وضعها الحاضر خطط للعمل، فهي يجب أن لا تتجمد عن العمل والنشاط انتظاراً لتحقيق الوحدة. كلا، ذلك أمر غير عملي ومضرّ. ولكن الخطط القطرية يمكن أن تُكيّف وأن تُرسم بطريقة لا تتناقض، بل تخدم المصلحة القطرية والمصلحة القومية في الوقت نفسه. إنها مسألة فنية لا يصعب التوصل إليها. إن عملية التلاؤم، أو ما يدعى أحياناً بالتنسيق بين

المصلحتين أمر ممكن تماماً لو خلصت النية ولو كان المسؤول عن الخطة القطرية فعلاً قومي الاتجاه ومؤمناً بالوحدة العربية في النهاية، والأمثلة على ذلك ممكنة. فما زال الموضوع فنياً فهو ليس خارج الإمكان.

ولكنك، ربما تقول إن ذلك ليس ممكناً في جميع الحالات، وهو قول صحيح. نعم هناك حالات تكون فيها المصلحة القطرية متناقضة مع المصلحة القومية، أو لنقل بعبارة أخرى، إن مصلحة هذا القطر في هذا الإجراء أو ذاك تلحق ضرراً بقطر أو أقطار عربية أخرى. في مثل هذه الحالة ليس عندي أدنى شك في أن مثل هذا الاجراء يجب ألاّ يتخذ اطلاقاً، فما يسمّى بالمصلحة القطرية يجب ألاّ يكون أبداً على حساب قطر أو أقطار عربية أخرى، لسبب بسيط هو أن المصلحة القومية يجب أن تكون دوماً فوق كل مصلحة أخرى. وكيف يكون مثل هذا الإجراء الذي يلحق ضرراً بقطر أو أقطار عربية أخرى في مصلحة القطر الذي يقوم بهذا الأجراء؟ أليست الأقطار الأخرى جزءاً من الأمة؟ إن الذي تجنيه الأمة في هذا القطر تخسره في الأقطار الأخرى زائداً ما يتركه هذا العمل من آثار سلبية على الرأي العام والشعور العام ومجمل العلاقة بين الأقطار العربية التي يجب أن تكون في أقصى درجات الودّ والتعاون والتفاهم. أما عندما ينطوي الأمر على تفاهم مع دولة أجنبية على حساب دولة أو دول عربية أخرى فالأمر يكون أفظع وأكثر فداحة، فهو حرامٌ لا يجوز حتى تخيّله في الذهن،

ناهيك عن القيام به. إن العلاقة مع الأجنبي يجب أن تخدم دوماً وفي جميع الحالات المصلحة القومية العليا، وليس أي شيء آخر.

أيها السائل المستوضح الكريم أودّ أن أبيّن لك ان الذهن البشري يميل إلى تكوين القوالب التي يعمل من خلالها، وهي ما يمكن أن يدعى بالعادات الذهنية، فكما أن في السلوك عادات يعمل الإنسان من خلالها، أي كلما عرضت حالة من ذلك النوع يكون تصرف الإنسان من خلال العادة، فيكون جوابه جاهزاً ورد فعله مهيئاً، كذلك الذهن البشري يميل بمرور الوقت إلى تكوين عادات ذهنية، أو ما يمكن أن يسمّى عادات التفكير مقابل عادات السلوك. إن عادات السلوك هي ما نسميه بالعادات المتعارف عليها، أما عادات التفكير فهي موجودة وإن كنّا لا نتناولها عادة في الحديث إلا في البحث النفسي والفلسفي. إن عادات التفكير موجودة وهي التي تكوّن القوالب التي نفكر من خلالها ونصوغ بواسطتها الأجوبة عمّا يعرض علينا من أفكار. فعندما نجابه بفكرة أو قضية فكرية يحاول الذهن أن يجيب عنها، مستمداً من القالب الجاهز الموقف الجاهز. ان الدولة القطرية قد مرّ عليها بعض الوقت، وأخذ المسؤولون وغير المسؤولين يكوّنون بمرور الوقت قوالب ذهنية هي في الحقيقة الأجوبة الجاهزة عن المواقف والأفكار التي تجابهنا في حياتنا اليومية. وهذه القوالب الذهنية تقدّم لنا أجوبة مستمدة من الواقع الفاسد المتخلّف وليس من المثل العليا المستقرة في ضمائرنا. فعلى سبيل المثال عندما يكون

قطر عربي بحاجة إلى كمية من العملة الصعبة لسد بعض حاجته من استيراد الحبوب وتعرض عليه دولة كبرى تلك المساعدة مقابل أن يأخذ موقفاً يلحق ضرراً بقطر عربي آخر أو بأقطار عربية أخرى، إن هذا المسؤول الذي يجابه بهذا الموقف، إذا لم يكن قائداً يستلهم المثل العليا للأمة فإنه سيفتش عن الجواب في قوالب التفكير الجاهزة المستمدة من واقع التجزئة، فيجيء الجواب انه من الحكمة أن يتبع المصلحة الآنية للقطر الذي يتولى فيه المسؤولية، ويقبل تلك المساعدة الضارة بالأمة. إن رئيس مصر السابق فتّش في الواقع المحيط به عن حل لقضية الاحتلال الاسرائيلي لسيناء وللفقر الذي تعانيه البلاد، فلم يجد غير المصالحة مع العدو في كامب ديفيد بدلاً من أن يفتش عن الحل في النضال مع مجموع الأمة للخلاص النهائي من ذلك الوضع. ولا يخفى ان من يستهويهم هذا النوع من التفكير باستنباط الحلول من الواقع ينعتون تلك القوالب الجاهزة بالحكمة والواقعية.

أيها السائل المستوضح الكريم، إن ذلك ليس بالحكمة أبداً، وليس ببعد النظر إطلاقاً، وهو واقعية بمعنى التفتيش عن حلول للواقع من قيم الواقع، والواقع المتخلف لا يعطي غير حلول متخلفة. فالحلول لمشاكل الواقع الفاسد يجب ألا تأتي من الواقع الفاسد بل من المثل العليا. إن ذلك ليس واقعية بل استسلاماً للواقع، أي الدوران فيه والغرق في مستنقعه. الواقعية الصحيحة هي ليست ذلك أبداً. فالحلول الجذرية لمشاكل الواقع لا يمكن

استخلاصها من الواقع، فالواقع ليس فيه غير التجزئة بكل ما فيها من تخلّف، بل من المثل الأعلى وهو الوحدة. إن مسألة الواقعية واللاواقعية لا تأتي إلا في مجال الاختيار الفني للأساليب وفي بعض الحالات، إذ إن اختيار الأساليب يجب ألاّ يكون بعيداً جداً عن إمكانات التحقق في ظل الظروف الموجودة بل يؤخذ بالاعتبار كل ذلك من أجل أن تكون عملية الصعود متدرجة. والذي يريد أن يعرف على وجه الدقة المقصود بهذا النوع من الواقعية التي أقصدها عليه أن يراجع سيرة الرسول الكريم ﷺ، ويرى تسلسل الأحداث وكيفية اختياره أساليب النضال. ان الرسول الكريم قد أخفى دعوته بعض الوقت ثم اختار إعلانها وتحدّى قريشاً. ثم اختار الهجرة إلى المدينة، ولكنه تعرّض لقوافل قريش وجرّها عن تصميم إلى معركة بدر وانتصر فيها. وفي أُحُد انسحب في الوقت الملائم وعقد صلح الحديبية، إلا أنه فتح مكة بالحرب بعد ذلك، وهكذا. ذلك هو الاختيار النموذجي لأساليب النضال المستمدة من المثل الأعلى وهو انتصار الإسلام وليس من الواقع الفاسد. إلا أنه في بعض الخطوات المحددة فضّل التدرج والانتظار آخذاً الواقع بعين الاعتبار. تلك هي الثورية الواقعية، إن صح التعبير. وخلاصة القول، أيها السائل المستوضح الكريم، إن ما يحلو لأولئك السياسيين أن يدعوه بالحكمة ليس حكمة اطلاقاً بل هو استسلام للواقع، ولذلك كان ما يقومون به ليس تغييراً نحو الأفضل. إنني لا أنكر أن تلك القوالب الذهنية أصبحت دارجة

وأنها اكتسبت عند بعضهم هيبة زائفة واحتراماً ظاهرياً مما أوجد بعض الصعوبة في التخلي عنها. ولكنك تعلم أيها السائل المستوضح الكريم أننا لسنا في صدد أمر اعتيادي أو حديث عابر بل بصدد أخذ موقف من أمور غاية في الأهمية، لذلك لا مجال في ذلك للمجاملة أو مراعاة المألوف. إن هذه العادات الذهنية يجب أن تبدد ويحل محلها التفكير السليم المتّجه نحو الصالح العام والقضية القومية. فالتفكير الثوري يجب أن تكون له عاداته الخاصة، وأن يخترق القوالب الجاهزة التي كوّنها الذهن الخامل المستسلم للواقع، النابع من محيطه بكل ما فيه من قيم منخفضة وروح هابطة مستسلمة. إن المسؤول صاحب التفكير الثوري مطلوب منه أن يعي هذه المسألة الذهنية ويتحرّر منها، فيقول: لا، لمثل هذه الحلول التي ليست من الحكمة بشيء ولا من المصلحة بشيء، بل هي تكريس للواقع الفاسد الذي يجب أن نناضل بلا هوادة لتغييره. وأول خطوة في هذا السبيل هو تغيير تفكيره.

شعرت ان السائل المستوضح الكريم في وضع ذهني جيد، إذ يبدو أن ما قلته قد لامس الرضى في نفسه، ولعله كان ينتظر هذا الجواب، أو أن السؤال كان ملحّاً على تفكيره. قال مشاركاً ومضيفاً إلى ما قلته: ان التفريق بين الواقعية بالمعنى الثوري الذي ذكرته والواقعية التي تؤدي للاستسلام للواقع أمر مهم. وأضاف، إن الواقع الفاسد له عادات تفكير علينا أن ننتبه لها. لكل مستوى من

الحياة عادات تفكير وقوالب ذهنية تنسجم معه. قلت: نعم. لاحظ، أيها السائل المستوضح الكريم، ان واقعنا الذي نعيش فيه، مهما كان رأينا فيه، فهو واقع موجود مادياً، لذلك وبمرور الوقت لا بد من أن يؤثر بعض الشيء في التفكير ويحاول قولبة التفكير العام بما يتناسب معه. إن ذلك واضح من مراجعة الأمثال الدارجة. ان الأمثال الدارجة بعضها إرث من الماضي الزاهر ونضج من الحياة العربية المجيدة والحضارات المزدهرة السابقة ومن التراث الروحي للإسلام، إلا أن بعضها ليس كذلك، بل هو من صنع الواقع الفاسد نفسه، الأمر الذي يوجب علينا الانتباه والتفريق بين ما توحيه المثل العليا وبين ما يتصل بمرحلة التخلف. خذ أمثلة مثل القائل إن (الهرب ثلثين المراجل) والمثل القائل (امشِ شهراً ولا تعبر نهراً) والمثل القائل (ألف قلبة ولا غلبة)، وغيرها من نضح المرحلة المظلمة بكل ما فيها من تخلّف وتردّ.

— ٦١ —

وماذا ترى الآن أيها السائل المستوضح الكريم؟ ألا ترى معي ان وحدة الوطن العربي في دولة واحدة هو المثل الأعلى الذي علينا جميعاً أن نسعى إلى تحقيقه؟ ألا يكفينا ما حصل لنا من نكسات، وما أصابنا من ظلم، وما وقع علينا من عدوان وجور، وما حصل لنا من استغلال، وما نحن فيه من تخلّف، وما يطبع حياتنا من فقر وجهل ومرض، وما نلمسه يومياً من فقدان الأمن والتعرض

للاعتداء؟ ألا ترى معي أننا الآن نواجه عدواً لدوداً مصمماً طامعاً لا يتردد في استخدام أية وسيلة من أجل إبادتنا وطردنا من بيوتنا والاستيلاء على أرضنا ووطننا، ألا وهو الصهيونية والدول الاستعمارية المتحالفة معها؟ ألا ترى بعين اليقين أننا معرّضون لأخطار حقيقية في جميع النواحي: الاقتصادية والسياسية والأمنية والاجتماعية والثقافية والحضارية، بسبب وضع الضعف والتخلّف والتمزّق الذي خلقه وضع التجزئة هذا؟ وأنت أيها السائل المستوضح الكريم، ألا تريد أن يتغير هذا الوضع إلى وضع تتّحد فيه أمتنا بكامل أقطارها وبجميع أديانها وطوائفها وطبقاتها وفئاتها وأهوائها في دولة واحدة ذات سيادة تتجمع فيها كل إمكاناتنا المالية والاقتصادية والعلمية والعسكرية، وكل ما نملك من موارد مادية وبشرية تدب فيها روح العمل والإنتاج والاصلاح والتغيير إلى الأحسن، فتتجدد حياتها ويتغير فيها كل ما هو غير صالح إلى ما هو أفضل، فتزدهر الحياة وتتقدم ويزول الفقر والجهل والمرض ويختفي الاستغلال وتتحقق العدالة ويتلاشى الإحباط ويحلّ محلّه التفاؤل والأمل والنظر إلى الأمام، فيحل الاعتزاز بالنفس محل القنوط والضعف ويحل الشعور بالكرامة محل المهانة وحياة الذل، وتنمو مواردنا وتعم الرفاهية والوفرة والتنمية، فيشعر الجميع بالقوة والرفعة والأهمية، وتزدهر الحياة المادية والروحية، وتسمو المثل العليا، وتتقدم الأخلاق، ويتحرر الإنسان من قيود الحاجة وجميع أشكال الاضطهاد، وتنمو شجرة الحرية، ويتمتع الجميع بذلك

الشعور المنعش اللذيذ بالتحرر من القيود والإقبال على الحياة السعيدة الهانئة؟

ألا تريد أيها السائل المستوضح الكريم أن تسافر حرّاً متى أردت من السماوة إلى طنجة، ومن السويداء إلى أم درمان من دون قيد أو اجراءات أو عائق؟ تذهب حيثما تريد في هذا الوطن الواسع، تغرس بستاناً أو تفتح متجراً وتنضم إلى عمال مصنع السيارات الجديد أو تفتح عيادة لطب الأطفال، أو تبني بيتاً في صعيد مصر؟ أليس محبّباً إليك أيها السائل المستوضح الكريم أن تستمتع بمصايف لبنان صيفاً وتنظر إلى السماء الصافية هناك، أو أن تتدفأ بشمس أسوان شتاء وتتجول في آثار وادي الملوك في الأقصر؟ وفي موسم الحج أو العمرة، ألا تريد أنت وأبوك الشيخ أو والدتك المسنّة أن تحجّ أو تعتمر في أية سنة ومن دون جواز وسمة دخول؟ ألا تستهويك شواطىء المتوسط الساحرة برمالها ومياهها الهادئة في تاجورا في طرابلس الغرب أو حمامات تونس؟ ألا يحب الأدباء والشعراء والفنانون أن يزوروا عواصم الأمة العربية المزدهرة بالنشاط كبيروت وبغداد والقاهرة؟ وأنتم يا من تعملون في التجارة والصناعة والزراعة وسائر النشاطات الاقتصادية، ألا ترغبون في العمل والاستثمار والاستيراد والتصدير وتحويل المال وعقد الصفقات وإنشاء المشاريع من دون قيود أو حدود أو عوائق في طول هذا الوطن الكبير وعرضه؟ أنت أيها السائل المستوضح الكريم كمواطن ألا يسعدك أن تشعر أن أمتك قوية، وأن وطنك

مصان محترم بنظر الآخرين، وأنه ذو مكانة بين الأوطان، وأنه ذو إسهام في حضارة العالم يعرفه القاصي والداني ويحترمه الجميع؟ ألا تريد عندما تسأل في بلد آخر من أيّ البلاد أنت، فتقول ملء الفم وبكل ثقة وتأكد واعتزاز: أنا عربي؟ وعندما يسمع ذلك من سألك يبتسم تقديراً ويهشّ بوجهك احتراماً لهذه الصفة التي تنتمي إليها: إنك عربي. إنك تريد أن تسمع ذلك لا لأنك شهرت عليه سلاحاً أو وضعت في يده مالاً بل لأنك تنتمي إلى أمة عريقة ذات تاريخ مجيد أسهمت في الماضي بحضارة البشرية وتسهم اليوم بكل ما هو جليل للعالم، وتقدّم كل ما تستطيع لمساعدة المحتاج ونصرة المظلوم، غذاؤها وفير وإنتاجها غزير، تمنح ولا تستجدي، قوية مهابة الجانب، شديدة بالحق، قادرة على رد صاع الاعتداء بصاعين إذا دعت الحاجة؟ ألا تريد أيها السائل المستوضح الكريم أن تكون لديك كل هذه المشاعر وأن تكون من أمة هذه أوصافها وهذه أوضاعها، فتعتدل قامتك وتنظر إلى من يقابلك مباشرة بكامل الثقة والرضى عن النفس، تقول الحق وتنطق بالصدق، يحبك صاحب الخير ويخشاك أخو الشر، يقترب منك الصديق، ويبتعد عنك العدو، فتجني ثمار الخير وتتجنب أشواك الشر، فتحفظ المال والشرف والدم من أن يراق ويهدر فتربح مصلحتك ومصلحة العالم ولا تخسر مصلحتك ولا مصلحة العالم؟ ألا تريد وضعاً كهذا الوضع، وهل هناك ما هو أحسن منه؟ إنك أيها السائل المستوضح الكريم لن تجد أفضل من ذلك مهما سعيت وفتشت

في الكتب أو في القارات الخمس. لقد حاول من قبلك ماركس أن يجد حلاً، وتعرف أنت النتيجة لكل ذلك الهرج والمرج. والغرب الرأسمالي كانت ولا تزال له ادعاءات الحل، وأنت ترى الآن بالواقع الملموس تردي أوضاعه، وتعرف لأنك من أبناء ما يسمى بالعالم الثالث مقدار الظلم والطغيان والشر والرذيلة والاستغلال والانحطاط الذي جلبه نظام الرأسمالية ومارسته دول الرأسمالية الغربية على العالم منذ أن بدأت مرحلة الاستعمار شرقاً وغرباً إلى يومنا هذا. وهذا الذي يجري على أرض فلسطين ونشاهده يومياً ليس إلا مثالاً على انحطاط هذا النظام الذي استؤصل منه الضمير بعملية جراحية كما تستأصل المرارة أو الكلية من جسم الإنسان. الحل هو الذي تقدمه القومية العربية المتحررة لمشاكل الأمة العربية. إنه حلّ ذاتي نابع من صميم الأمة ومستوحى من داخها. وأرجو أن تتذكر أيها السائل المستوضح الكريم أننا القوميون المؤمنون بالقومية العربية لم نقل، ولن نقول أبداً أنه حل لمشاكل العالم، فالعالم مكوّن من أمم وعلى كل أمة أن تجد الحلّ الملائم لمشاكلها بنفسها ومن داخلها وحسب اختيارها، وذلك هو الاحترام الصحيح لإرادة الآخرين ولشخصية الآخرين. وهذا هو معنى القول ان تجربتنا الخاصة هي للأمة العربية أولاً، ومَنْ أراد أن يستفيد منها فدونه ذلك، ومَنْ لم يُرِدْ فهو في أتمّ الحرية ليختار ما يشاء. تلك هي المبادىء التي نعمل على أساسها. علينا نحن العرب أن نحقق وحدتنا ونبني مجتمعنا

الجديد على أساس التقدم والوحدة والقوة، معتمدين على تراثنا وحاجاتنا، وعلى روح العصر، فنختار كل ما هو صالح من أيّ مصدر كان في سبيل التقدم والنهضة. لذلك كان صحيحاً جداً أن نطلق على هذه القومية، صفة التقدمية، فهي قومية تقدمية عصرية نابعة ومتصلة بالمثل العليا المستمدة من تراثنا الروحي، فهي مع العدالة والحق والإنصاف واحترام قيمة الإنسان والحرص على حريته والعمل من أجل الرفاهية والتقدم للجميع على قاعدة السلام والوئام في الداخل والخارج.

— ٦٢ —

قال السائل المستوضح الكريم: **وما تريد منا نحن الذين نؤمن بالوحدة العربية؟** قلت: هناك الكثير مما يمكن أن يقال في ذلك. إننا معشر الوحدويين لسنا في معسكر واحد، ولا نكوّن جبهة واحدة، وذلك أمر يجب أن نعيره الاهتمام الكافي. إننا نؤمن بالوحدة العربية، والوحدة هي الهدف الأعظم للأمة، وهو مثلها الأعلى وحافزها الأكبر وهاجسها الأول، وهي كما تعلم أيها السائل المستوضح الكريم ليست سهلة التحقيق، فهناك العوائق من شتى المصادر والأنواع، لذلك فالجهد يجب أن يكون بمستوى الصعوبة. لننبذ الأوهام والخرافات ولنضع المشاحنات جانباً. لنتحول من مجرد الكلام إلى العمل الجاد، والعمل الجاد أوله التفكير السليم المتجه إلى الجوهر بدلاً من القشور. وأقصد

بالخرافات والقشور والكلام الأجوف هو الاهتمام الذي لا مبرر له بالنظريات المختارة من الكتب والاهتمام بالقشور دون الجوهر. وعندها قاطعني السائل المستوضح الكريم بجملة اعتراضية قائلاً: وماذا تريد أن تقول على وجه التحديد؟ قلت له: إن النقطة المهمة هي أن نفتش عن حل مشاكلنا من داخلنا، وأن نشخّص المسألة المركزية ونركّز جهودنا لحلها. قال: ما زلت أرغب في مزيد من التحديد. قلت له: حسناً، هناك أمر أود أن أطرحه عليك، وقد سبق لي أن كتبت عنه، إلا أنني لا أزال أجد في التطرق إليه فائدة. قال: إنني مستمع جيد.

قلت: أيها السائل المستوضح الكريم إنك عندما تقلب كتاباتنا في الشؤون العامة وتتحدث إلى جمهرة المثقفين والعاملين في الحقل العام تجد أننا نعير اهتماماً كبيراً للنظريات. فنحن كما يبدو نحب النظريات ونعشقها، وحتى ان بعضنا يتصور أن ما نحتاج إليه هو نظرية متكاملة جميلة التناسق يبدو عليها المنطق السليم، تتفوق على النظريات التي يعتنقها المنافسون المتبارون معنا ويكثر المعجبون بها بالنسبة إلى المعجبين بالنظريات الأخرى. إنني أيها السائل المستوضح الكريم أجد بذلك خطأً كبيراً، إذ علينا أن نستنبط الحل من الواقع الحي وليس من النظريات. أقول ذلك ولا أعني اطلاقاً إهمال الاطلاع على النظريات ومعرفتها ودراستها. تمعّن أيها السائل المستوضح الكريم في هذا الوطن العربي الكبير، فماذا تجد؟ إنك إذا أهملت

النظريات وحصرت تفكيرك في الموجود الذي يجري أمام ناظريك من يوم إلى يوم، ومن سنة إلى سنة، تجد أن الأمر الكبير هو الأمر البسيط الواضح الصارخ في الدلالة عليه: إنه التجزئة التي أوجدت الضعف الذي يزداد بمرور الوقت والذي أوجد التخلّف وخلق كل هذا الوضع الرديء الذي أصبح لا يطاق. وبالنظرة المتجهة إلى الجوهر، المعتمدة على بساطة التحليل، تجد من دون عناء أن الحل الأمثل الجذري هو الوحدة، وليس غير الوحدة. نعم، هي الوحدة الشاملة من الخليج إلى المحيط في نطاق دولة واحدة ذات كيان دولي واحد وإرادة واحدة ذات سيادة تامة موحدة. أمّا النظريات فهي مفيدة وعلينا أن ندرسها، ولكن من أجل الاطلاع وشحذ التفكير وتنشيط التمعن والاستفادة في استنباط التفاصيل، ولكن ليس للتطبيق الكامل كما قد يبدو لبعض الناس.

إن النظريات أيها السائل المستوضح الكريم هي نفسها، وإن كانت تأخذ شكل الشمولية والعمومية لشؤون العالم إلا أنها في حقيقتها جاءت لخدمة أغراض محدودة محصورة ومتأثرة بظروف المحيط الذي خرجت منه أو الشخص الذي قام بصياغتها. إنك أيها السائل المستوضح الكريم يعتريك الاستغراب والذهول عندما تنقّب بعمق في جذور الكثير من النظريات بحثاً عن دوافع ظهورها، فتجد أنها لم تكن في أساسها موجهة إلى العالم بل إلى شؤون المكان الذي نشأت فيه، متأثرة بالرغبات المسبقة لأصحاب تلك النظريات وظروفهم الشخصية أو معتقداتهم وآرائهم

الشخصية. إن هذه الصفة الخصوصية في كثير من النظريات لا تظهر إلا للمتمعن الذي يغوص في التفاصيل. النظريات تأخذ صفة العمومية وكأنها متجهة إلى معالجة مشاكل العالم، وأنها تصلح للتطبيق في كل زمان ومكان. إن صفة الاطلاق هذه هي في الحقيقة ادعاء أكثر منها حقيقة. وإذا كنت أيها السائل المستوضح الكريم لا تمل من التفاصيل فإنني مستعد لايراد أمثلة على ذلك.

قال السائل المستوضح الكريم: كلا، إنني أرغب في أن أعرف المزيد عن ذلك. فما تقوله أمرٌ مثير حقاً، إذ كيف ترى حقيقة النظريات التي نقرأها في الكتب؟ قلت: حسناً، ليكن ذلك، وإليك ما يأتي:

إن خلاصة تفكير جمهورية أفلاطون يقوم على فكرة تحليل النفس البشرية إلى عناصر الفكر والجسم والروح، وتقسيم المجتمع إلى طبقة الفلاسفة وطبقة الجنود وطبقة الصناع والتجار. إن هذه النظرية المحكمة في منطقها تؤدي في النهاية إلى الاستنتاج بأن اليونان هو بلد الحضارة، وأن كل الشعوب الأخرى بربرية. إن هذا الاستنتاج الذي لم يكن إلا انسجاماً مع الروح السائدة آنذاك في اليونان لا يمكن أن يكون حقيقة علمية بل رغبة مسبقة موجودة في نفس افلاطون الذي عمل على ايجاد الإطار النظري لصياغتها. وتفكير القرون الوسطى في أوروبا كان يتعلق

بمجمله بوضع نظرية حول أفكار الكتاب المقدس المسيحي، وأحسن من يمثل ذلك هو توماس أكونيز، الذي لم تكن كتاباته بحثاً علمياً محايداً يتوخى الحقيقة من دون موقف مسبق، بل هو سعي جدي إلى وضع نظرية لما ورد في الكتاب المقدس الذي مثلت أفكاره روح ذلك العصر التي سادت في أوروبا.

وعندما دخل التفكير الديني في طريق الظلم، وتحالفت الكنيسة مع الملوك والحكام المستبدين وأمعنت في الخرافات والاستغلال الذي ترمز إليه صكوك الغفران المعروفة وأصبح ذلك الحال واسع الانتشار، ظهرت بذور التفكير المشكك بذلك المتمثل في الإصلاح الديني على يد لوثر. كما أصبح الاصلاح الديني الأرضية المساعدة لظهور أفكار ديكارت القائمة على الشك كأساس للوصول إلى الحقيقة، وهكذا تكون الأوضاع السائدة في المجتمع هي المحفز لظهور النظريات والموحى بها. وبذلك كانت تلك النظريات، وإن بدت عالمية مطلقة، إلا أنها في حقيقتها محدودة بظروفها والمحيط الذي ظهرت فيه. ثم جاء جون لوك الذي كتب كتاباً هو أساس الديمقراطية البرلمانية في بريطانيا القائم على نظرية العقد الاجتماعي والحقوق الطبيعية، فصاغ نظرية للثورة التي قامت عام ١٦٨٨ ضد الملك في بريطانيا، التي بدأت بها سلطة البرلمان في الظهور مقابل سلطة الملك. وبذلك كانت نظرية جون لوك تبريراً لواقع أوجدته تلك الثورة. وفعل الشيء نفسه توم بين في أمريكا في كتابه الموسوم

الحصافة الذي برّر الثورة الأمريكية، ووضع لها نظرية هي تلخيص شبه كامل لنظرية جون لوك. ثم جاءت الثورة الفرنسية ونتجت منها أوضاع سلبية بقيام حكم الإرهاب، ثم مرحلة نابليون ومآسي حروبها، الأمر الذي خلق جواً سلبياً متذمراً وخيبة أمل من الثورة الديمقراطية البرلمانية، الأمر الذي خلق ردود فعل رجعية تحنّ إلى الماضي. وفي هذا الجو السلبي ظهر المفكر الانكليزي هوبز ممثلاً للفكر المحافظ الرجعي، فكتب كتاباً كرّسه للهجوم على الثورة الفرنسية، يتضمن نظرية محافظة، خلاصتها أن المجتمع كائن عضوي يغوص في أعماق التاريخ ولا يمكن تغييره بصورة إرادية كيفية، لذلك لا جدوى من كل تلك الثورات التي حدثت، والتي كانت بنظره مضرّة.

وفي ألمانيا، التي سادت فيها الروح القومية التي قادت إلى قيام الوحدة الألمانية، أتت المدرسة المثالية في الفلسفة التي يمثلها هيغل أحسن تمثيل. إن فكرة الروح والتطور المتناقض الذي بواسطته تكشف الفكرة المطلقة عن نفسها عبر التاريخ تنتهي بصورة منطقية إلى اعتبار الأمة الألمانية النتيجة العظمى لذلك التطور. ان العلاقة بين نظرية هيغل واستنتاجاته عن الأمة الألمانية لا تجلب انتباه كثير من الباحثين، إلا أنها موجودة لمن يريد أن ينقّب عنها. كما أن علاقة تفكير فيخته ونيتشه بالفكر القومي الألماني معروفة، فهي في النهاية كانت تتلاءم وتؤيد القومية الألمانية وكذلك أفكار شوبنهاور المثالية، أما أفكاره المتشائمة فقد جاءت

متأثرة بالنكبات التي أصابته في صغره وعلاقته بوالدته، على حد ما يذكره المؤرخون.

وريكاردو مؤسس مدرسة الاقتصاد الكلاسيكي القائمة على حرية العمل وإقامة المشاريع والملكية الخاصة والمنافسة، جاءت أفكاره تبريراً لآراء طبقة الصناعيين في بريطانيا الذين كانوا يطالبون بحرية التجارة واستيراد السلع الزراعية بعكس ملاّك الأراضي الذين كانوا يطالبون بالحماية. وقد كان هذا الجدل موجوداً في بريطانيا عندما جاء ريكاردو. ثم ان نظريته في الريع نفسها جاءت انعكاساً لظروف بريطانيا وليست استنتاجاً علمياً يصح على كل العالم. فنظرية ريع الأرض القائمة على قانون تناقص الغلّة تقول إن ريع الأرض في ارتفاع مستمر بسبب تناقص خصوبة الأرض المستغلّة والانتقال إلى زراعة أرض أقل خصوبة، لذلك فأصحاب الأراضي يجنون دخلاً غير شرعي وغير مبرر من ذلك. إن كل ذلك جاء انعكاساً لظروف بريطانيا حيث الأراضي الزراعية قليلة ومستهلكة الخصوبة، في حين ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية نظرية في الريع معاكسة لذلك تماماً، وذلك بسبب وفرة الأراضي الخصبة هناك.

كانت بريطانيا دولة سبقت العالم في التصنيع، لذلك فقد كانت حرية التجارة تلائم مصالحها، فصاغت نظرية لذلك. ولكن نجد أن ألمانيا مثلاً لا تخدمها هذه النظرية باعتبارها دولة صناعية جديدة ذات مطامح في التنمية الاقتصادية، لذلك صاغت نظرية

تقول بالحماية، هي نظرية الاقتصادي الألماني (لست) حيث لا يمكن تفسير نظرية الحماية التي جاء بها إلا بالرغبة المسبقة الوطنية في حماية النفس من منافسة الصناعة المتقدمة في بريطانيا وباقي الدول المتقدمة.

كما أن الذي يبحث في جذور نظرية (بنثم) القائمة على تحقيق السعادة العظمى للعدد الأكبر من الناس، كما سمّاها، يجد أنها جاءت من وحي ظروف الاتجاهات العقلية التي سادت أوروبا الغربية حيث التأكيد على العقل وحساب الضرر والمنفعة كوسيلة للتقييم ومعرفة الخطأ من الصواب.

أما الماركسية فلم تكن خالية أبداً من الأفكار المسبقة، فهي كانت انعكاساً لأوضاع موجودة في المجتمع الذي ظهرت فيه، ألا وهي مظالم الرأسمالية وسوء أحوال الطبقة العاملة واستبداد رأس المال والهجرة من الريف، والقضاء على طبقة الحرفيين والصنّاع، وحلول الصناعة الكبيرة مكانهم، وتأييد الكنيسة تلك الأوضاع البائسة حيث اتسع استغلال الطبقة العاملة وسكان المستعمرات واشتدت وطأة رأس المال الكبير وسيطرته على الدولة. ضمن هذه الظروف نشأت الماركسية كحل لتلك الأوضاع. إن واضعي هذه النظرية تعمدوا اعطاءها طابع القوانين الحتمية في نتيجة الصراع الطبقي من أجل شحذ همّة الطبقة العاملة وتقوية ايمانها بالنصر النهائي. وبذلك جاءت فكرة الحتمية فيها لهذا الغرض المسبق وليس نتيجة تحليل علمي مجرد. ونظرية كينز في الاقتصاد مثال

جيد على التأثر بالظروف السائدة، فهذه النظرية أتت بعد حدوث الأزمة الاقتصادية في بداية الثلاثينيات في العالم الغربي، فهي تفسير جيد لما حدث ورد فعل إزاء مشاكل الرأسمالية، ويعرف دارسو الاقتصاد ذلك؛ إنها صياغة نظرية لواقع موجود وليست نتيجة خالصة لبحث علمي مجرد. واستنتاج هذه النظرية قائم على أساس اصلاح النظام الرأسمالي من تلك العيوب وهي الروح التي كانت سائدة في العالم الرأسمالي آنذاك.

وفي الولايات المتحدة ظهرت مدرسة جون كومينز عن اقتصاد المؤسسات، وكان واضحاً انها انعكاس للواقع الموجود في أمريكا، حيث نمت النقابات وظهرت الشركات الكبرى المعمرة والمؤسسات القانونية والدينية، وما أعقب ذلك من ظهور المساومة والتفاوض بين التكتلات الاقتصادية والاجتماعية الكبيرة.

وفي الجانب الفلسفي ظهرت في أمريكا نظرية صاغها عدد من المفكرين، ومنهم جون ديوي، تسمى في أدبياتنا بالفلسفة الذرائعية أو البراغماتية، خلاصتها أنه لا يوجد مقياس موضوعي للخطأ والصواب، ونفي وجود مبادىء عليا يرجع إليها، بل اعتبر النجاح هو المقياس للخطأ والصواب أو الحق والباطل. وجاءت هذه النظرية انعكاساً لأوضاع المجتمع الأمريكي، ذلك المجتمع الذي قام في الأساس على غزو المهاجرين لبلاد أخرى والقضاء تقريباً على سكانها الأصليين، وهم الهنود الحمر، وأخذ أراضيهم، وقامت الدولة الأمريكية التي أصبحت قوة عظمى في العالم وقامت

فيها المؤسسات والشركات العملاقة. ففي مثل هذه الظروف، ظهرت ميول القوة واعتبار النجاح هو المقياس، في حين ان وجود مبادىء عليا موضوعية لقياس الخطأ والصواب يقيّد القوي ويحدّد تصرفه؛ الأمر الذي لم يكن يتلاءم مع روح ذلك المجتمع.

إن ظهور الوجودية بمختلف اتجاهاتها الدينية والعلمانية تمثل في خلاصتها النزعة التي أخذت تعم المجتمع الغربي ضد قيود المجتمع الحديث الذي انطمست فيه فردية الإنسان، وضد القيود التي فرضت عليه نتيجة انتشار الآلة وزيادة التشريعات المنظمة للحياة المعقدة حيث صغر شأن الإنسان كخلية في ذلك المجتمع، الأمر الذي بذر بذور التحسس بضرورة التحرر من تلك القيود. لذلك لم يكن مستغرباً أن يقترن ظهور الوجودية بنزعات التحلل من القيود وإشباع الغرائز وأصناف الخروج على المألوف.

وخلاصة القول هي: إن النظريات غالباً ما تكون انعكاساً لوضع سائد أو لميول مسبقة عند أصحاب تلك النظريات أو مطامح مجتمعاتهم، وليست، كما يظن بعضهم، نتيجة بحث موضوعي مجرد خال من التأثر والغرض المسبق. وقد انتبه لذلك كثير من المفكرين، ومنهم الاقتصادي وسلي ميشيل، والاقتصادي جوزف شمبيتر في مقاله المعروف «العلم والعقائد» وهو الخطاب الذي ألقاه أمام الجمعية الاقتصادية الأمريكية عندما انتخب رئيساً لها. وقد كتب عن ذلك برتراند رسل مقالة حادّة اللهجة بعنوان «ملخص لنفايات الفكر» نشرت كمقال أول في كتابه الموسوم

ألا ترى أيها السائل المستوضح الكريم ان النظريات التي تدّعي الإطلاق، بمعنى أنها تمثل الحقيقة النهائية وأنها صالحة لكل زمان ومكان، هي في الحقيقة ليست كذلك، فهي لا تعدو أن تكون وجهة نظر، وعلينا ألاّ ننظر إليها أكثر من ذلك؟ إن معرفة النظريات شيء، أما تطبيقها حرفياً وبناء المجتمع على أساسها فشيء آخر تماماً. علينا ألاّ نأخذ النظريات بأكثر من كونها وجهة نظر نستفيد منها. أما مسألة بناء المجتمع فيجب أن تعتمد على تقييم واقعنا الحي واختيار الأفضل من كل ما نعرفه عن النظريات وما يلائم مجتمعنا وما نستنبطه من تجارب الآخرين. لقد لاحظت أن بعثات البنك الدولي للإعمار الاقتصادي لم تعتمد على نظرية معينة في كتابة تقاريرها النهائية عمّا يمكن أن تعمله تلك البلدان لتحقيق التنمية، بل جاءت تقاريرها معتمدة على مزيج من الأفكار مستوحاة من جميع المصادر وأهمها واقع البلد صاحب العلاقة.

إنني أيها السائل المستوضح الكريم قد ذكرت ذلك عن النظريات التي درستها وقرأت عنها في مناسبة سابقة ونشرت ذلك في مقال قديم، إلا أنني رأيت أن أعود إليها ثانية، والتذكير مفيد. إنني أعجب حقاً أننا نأخذ النظريات على محمل الجدّ أكثر ممّا يجب، لاسيما من قبل بعض مثقفينا، لذلك وكلما ورد موضوع صراع العقائد واختيار النظام الملائم تحضرني هذه القضية التي

أجد في إعادة ملاحظاتي السابقة عنها بعض الإفادة، كما يقول المثل السائد.

ـ ٦٣ ـ

وقال السائل المستوضح الكريم ملاحظاً أننا في السؤال والإجابة عنه، لم نتبع نظاماً معيناً، فنسأل ما يخطر على بالنا، ونجيب عنه، الأمر الذي أدّى إلى شيء من الإعادة والرجوع أحياناً إلى سؤال سبق أن تمّت الإجابة عنه. وبعبارة أخرى، لاحظ السائل المستوضح الكريم شيئاً من عدم الانتظام إن صح التعبير. قلت له: نعم، الأمر كذلك، وهو أمر أجده أفضل من غيره، لأنه عفوي وطبيعي، وينسجم مع الكيفية التي يعمل بها ذهن الإنسان، فذهن الإنسان يعمل هكذا، يفكر في شيء يرجع إليه بعد برهة ويتناوله أكثر من مرة، يكتفي بقدر من الجواب اليوم ويعود غداً متذكراً ان الجواب لم يكن كافياً فيسأل عن التكملة، وهكذا. فما يدعى اعتيادياً بالترتيب هو العمل الفني الذي يقوم به الإنسان إزاء ما يفكر به، إلا ان ما يرد على تفكيره لا يكون كذلك في البداية، فعملية الترتيب تكون لاحقة لورود الأفكار. المهم هو تناول الأمور الجوهرية ولا يهم بعد ذلك إن تمّت الإجابة مرة واحدة أو مرتين. كما أن بعض التكرار ليس مضراً بل قد يكون مفيداً.

والآن أيها السائل المستوضح الكريم: هل يخطر على بالك أمر سبق أن تحدثنا عنه، إلا أنك تريد عنه المزيد؟ قال: بلى. قلت:

وما هو؟ قال: **كيف تريدني أن أتحدث إلى الوحدويين عن العلاقة في ما بينهم؟** قلت: سبق أن قلت إن واجب الوحدويين هو أن يوحّدوا صفوفهم. وأظنك تريد مزيداً من الحديث عن ذلك. فإذا كان الأمر كذلك، فأود أن أقول إن توحيد الصفوف لا يأتي بمجرد الدعوة إليه، بل لا بد من تناول أساس تلك الدعوة. إننا، المؤمنين بالوحدة العربية، يجب أن يسود بيننا التسامح وقبول بعضنا بعضاً. ويعني القبول هو أن نقبل اختلاف الآخرين معنا في بعض الأمور وأن نتحمل ما نعده نقائص في الآخرين. أما أساس ذلك فهو القاعدة الجوهرية وهي أننا جميعاً بشر ولكل منا نقائص. كما أن موضوع النقائص يتعلق بالتقييم الذاتي، فهو في نهاية الأمر حكم شخصي يحتمل الخطأ والصواب. وحتى لو كانت النقائص صحيحة موضوعياً فعلينا قبولها وتحملها، لأننا كذلك من الممكن أن تكون عندنا أخطاء ونقائص للسبب الذي ذكرناه ألا وهو أننا بشر، والبشري ليس معصوماً أبداً بل العصمة لله تعالى، كما يقال. إنك تعلم أنني لا أؤمن بالعصمة لأحد من البشر كائناً من يكون، فحتى الرسول ﷺ لم يدّع العصمة، كما هو معروف، وعدّ جميع الآراء التي تدّعي العصمة للأشخاص التي وردت عند بعض المذاهب الإسلامية خروجاً عن روح الإسلام.

أما الاختلاف في وجهات النظر في بعض الأمور فهو ما يجب أن نقبله لأن اختلاف وجهات النظر أمر لا مفر منه، وهو موجود في كل حياتنا وهو صفة المجتمع الأزلية. إن قبول

الاختلاف في وجهات النظر يجب أن يُقبل على أساس قاعدة أخلاقية ألا وهي أن الاختلاف مع الآخرين حق من حقوق الإنسان الحر، فقد ولد الإنسان حرّاً ومنحه الله عقلاً وشخصية مستقلة وتفكيراً مستقلاً، وإذا ما عمل ذلك التفكير وتوصل إلى موقف يختلف عن موقفي فذلك حقه الطبيعي الذي يملكه بسبب قيمة أخلاقية ومبدأ روحي هو الحرية. لذلك عدّ الضغط على آراء الآخرين وتقييد أفكارهم حالة مخالفة شرائع الإنسان الدينية والدنيوية التي تقوم على مبدأ حرية الإنسان.

ولا يفوتك أيها السائل المستوضح الكريم أن تلتفت إلى جانب آخر غير الجانب الروحي الأخلاقي وهو الجانب الفكري الفلسفي. من الذي يستطيع أن يقول بتأكيد علمي محض ان رأيه يمثل الحقيقة الكاملة، لذلك فمن يختلف معه يكون على باطل؟ أتذكّر أنني في أول درس أخذته في الفلسفة عندما كنت طالباً في الجامعة قرأت عن مسألة كيفية الوصول إلى الحقيقة بضرب المثال الآتي: إننا عندما نغمس قضيباً من الحديد إلى نصفه في الماء نراه معوجّاً بسبب الانكسار المرئي بين جزئه المغمور وجزئه غير المغمور. فهل القضيب هو حقيقة معوجّ؟ والجواب: كلا، إلا أننا نراه كذلك عند ادخال نصفه في الماء. إذن فحواس الإنسان ومنها النظر ليست هي الوسيلة المطلقة لمعرفة الحقيقة. فالعلم الذي يقوم على التجارب واستخدام الحواس البشرية لا يشترط أن يوصل إلى الحقيقة المطلقة، فما يعد حقيقة اليوم في نظر العلم

ربما لا يكون كذلك غداً، وهو بالفعل ما حصل عندما كانت نظرية كوبرنيكس هي السائدة، إلا أنها أصبحت ليست كذلك في ما بعد. إذن فحتى ما يتوصل إليه العلم اعتماداً على التجارب المختبرية لا يمكن اعتباره الحقيقة النهائية. فإذا كان الأمر كذلك فعلينا دوماً أن نضع في الحساب أننا يمكن أن نكون على خطأ، وأن ما نراه صحيحاً ربما لا يكون ذلك عند الآخرين. فإذا ما أخذنا هذا الموقف الذهني من آراء ومواقف الآخرين، أي موقف اعتبار أنها يمكن أن تكون صحيحة، عندها لن نأخذ الموقف الرافض المتعصب إزاءها بل موقف القابل المتسامح معها. وهكذا، وعلى أساس فكري فلسفي يمكن أن نقبل الآخرين ونتعاون معهم. لا أحد إطلاقاً يستطيع أن يدّعي أنه يملك الحقيقة الكاملة المطلقة. والمعروف أن الأنبياء أنفسهم عدّوا أنفسهم بشراً وأنهم يمكن أن تكون لهم ذنوب، لذلك طلبوا العفو والغفران من ربّ السموات والأرض. إذن، أيها السائل المستوضح الكريم، ألا يجدر بنا نحن المؤمنين بالوحدة أن يقبل بعضنا بعضنا الآخر ويتعاون معه فتتوحد صفوفنا وتتكوّن من مجموعنا جبهة عريضة واسعة تضمنا جميعاً، مع احتفاظ كل جهة منّا بما ترى وتؤمن، فيحترم كلٌّ منّا موقف الآخرين ويعدّه حقاً طبيعياً، فله أن يختلف معنا في ما يرى طالما أننا جميعاً متفقون على مبدأ الوحدة العربية والقومية العربية بصدق واخلاص، ونعمل جميعاً من أجل تحقيقها ونجاح أهدافها. إنه موقف أخلاقي وعقلي ومنسجم مع الصالح العام، وتتطلبه ظروف

المرحلة، وتلحّ عليه الأحوال السائدة، وليس لنا غيره من طريق، طالما أننا جميعاً مخلصون للأمة ومناضلون من أجل توحيدها ومتفانون في سبيل خلاصها من التجزئة. ألا يجدر بنا، أيها السائل المستوضح الكريم، أن نلبّي هذا النداء القائم على الأخلاق والعقل والصالح العام، وهل تجد لنا عذراً إن تأخرنا عنه؟ قال: بلى، والله، إنه الحق والصواب.

— ٦٤ —

وهنا، أبدى السائل المستوضح الكريم بعض الملاحظات معلّقاً على ما قلته. قال: أما وأنك الآن قد تحدّثت بشيء من التفصيل عن الوحدة كهدف قومي، **ماذا تقول لو طلبت منك** تحديد أهم العلل التي تراها في وضعنا العربي الراهن؟ قلت مجيباً: إن ذلك ليس بالأمر السهل، فالوضع العربي الراهن معقّد، والتعقيد يعني تعدد المعوقات وتشابكها مما يجعل فرز السبب عن النتيجة صعباً، وتلك من صفات البحث في العلوم الاجتماعية مقابل البحث في العلوم الطبيعية، ولكنني لا أريد الإيغال في هذا الباب من البحث. إنني لن أستطيع تلبية طلبك كاملاً، إلا أنني أستطيع أن أوجز بعض المعوقات التي أراها مهمة.

الشيء المهم الأول هو أن مسألة الحكم في الوطن العربي تحتاج إلى تحليل واهتمام في البحث، فقضية الحكم (أي فكرة الحكم) يبدو أنها لا تزال متأثرة إلى حد بعيد بما كان عليه الوضع

في عهد الانحطاط مما نسميه بالفترة المظلمة. وخلاصة ذلك هو أن الحكم لا يزال يُعدّ ملكاً وليس خدمة وطنية. فالحكم هو ملك للحاكم وليس تكليفاً من الشعب لإنجاز مهمة أو الإسهام في عمل وطني. ويصح ذلك بشكل أكثر وضوحاً في أقطار الخليج العربي، وهي الأقطار التي تتركز فيها الثروة النفطية. إنك أيها السائل المستوضح الكريم لو سألت حاكماً في هذه الأقطار، وكنت ممّن يطمئن إليه ويرتاح لحديثه، أقول: إذا سألته في وضع مريح غير رسمي، فلا أظنه أبداً يجيبك بغير هذا المفهوم. فالبلاد مملكته هو شخصياً وعائلته، وكل ما فيها يرجع إليه، وثروتها هي ملكه الشخصي، وان الحكم فيها الآن له ويجب أن يكون كذلك في المستقبل لأولاده أو أفراد عائلته الذين يختارهم. كل ما فيها هو من صنعه، وكل ما فيها يرجع إليه ومن ممتلكاته الشخصية، ولا يحق لأحد غيره وغير عائلته التفكير في أخذ الحكم منه أو مشاركته في الحكم. ولذلك فهو الحاكم الآمر والناهي والسلطة العليا وصاحب الكلمة في الصغيرة والكبيرة، وإليه يجب أن يرجع الجميع لاتخاذ القرار. إنه قد يعطي وقد يوظّف الآخرين، وقد يتحدث معهم، وقد يسمع آراءهم، إلا أن كل ذلك شيء وكونه المالك للدولة والمتصرف بشؤونها شيء آخر، لذلك فالحاكم في هذه الأقطار لا يفكر بغير كيفية المحافظة على هذا الملك وصيانته وتجميله والمباهاة به وتسخير كل ما فيه لخدمة سلطانه ونفوذه وتمكين حكمه. والحكم عندهم متعة شخصية وحياة مرفّهة

وممارسة للسلطان والإدارة بما يعود على الحاكم وعلى مملكته بالنفع. لذلك، نجدهم ممعنين في جمع الثروة الشخصية والتفنن في التمتع الشخصي في الداخل والخارج وتنفيذ مشاريع الأحلام والخيال في ما يتعلق بالسكن والنزهة والراحة وممارسة اللذائذ بكل أنواعها، تماماً كما تدار المقاطعات الإقطاعية من قبل الموظفين والمشرفين والمفتشين، بينما يتفرغ المالك للحاصل السنوي والتمتع والرفاهية، وقضاء الوقت في حياة الترف والراحة. إنهم يعرفون أن أوضاعهم تحتاج إلى أن تدعم بوسائل منعاً للأخطار الداخلية والخارجية، لذلك فهم يجهدون أنفسهم في جلب المنتفعين والتابعين في الداخل وتكوين أجهزة واقية اعلامية واستخبارية وأحياناً عسكرية للحماية، ويقومون بتوزيع شيء من ذلك الدخل الهائل على الآخرين، ويُحكمون السيطرة على مفاصل الدولة بواسطة الأبناء وأفراد العائلة، ولا يفوتهم استخدام ظواهر الدين وزواج المصلحة والمجاملة الشخصية وكل الأساليب المسطّرة في كتاب الأمير مكيافيلي حول أساليب المحافظة على الحكم. أما خارجياً، فالحل السحري عندهم هو التحالف مع الأجنبي، خاصة الدول الاستعمارية صاحبة المصالح في المنطقة، بكل ما يتطلبه التحالف من اجراءات.

ومن ذلك يتضح أن نظرة الدين الإسلامي إلى الحكم على أنه خدمة مصلحة المسلمين يتحمل عبئها مَنْ يُولّى الأمر غير موجودة عندهم. أما مظاهر الدين فهي الموجودة، والتي يجري

التأكيد عليها خداعاً للرأي العام. كما أن الفكرة العصرية عن الحكم باعتباره أمانة يضعها الشعب في يد من يوليهم الثقة لخدمة المصلحة العامة ضمن القانون غير موجودة أيضاً. الحكم هو مصلحة الحاكم تماماً، كما قال لويس الرابع عشر: أنا الدولة. إن أهم ما يجب أن يحدث في مجال النهضة والتجديد في الوطن العربي هو تغيير هذا الوضع: أي تغيير الحكم من حكم المصلحة الشخصية للحاكم إلى حكم الشعب من أجل الشعب وبواسطة الشعب. تلك هي **المسألة الأولى**.

ـ ٦٥ ـ

قال السائل المستوضح الكريم: **وما المسألة الثانية؟** قلت: تلك التي تتعلق بالرأي العام، وأقصد بذلك الإعلام. إذا كان صحيحاً القول إن نقطة البداية في عمل الإنسان هو ما يدور في تفكيره، يكون للاعلام أهمية خاصة في تكوين أفكار المواطنين، فالإنسان يعمل ويتصرف بناء على ما يعتقد وما يراه صحيحاً، لذلك فكيفما تكون آراؤه كذلك تكون تصرفاته وسلوكه. إن الاعلام وسيلة مهمة جداً في عصرنا الحديث للتأثير في الرأي العام، ولا أريد أن أتوسّع في شرح هذا الأمر الذي أصبح معروفاً في عالم اليوم.

قال السائل المستوضح الكريم: **وما وضع الإعلام عندنا الآن في الوطن العربي؟** قلت: إن الوضع يسير في اتجاه معاكس

لهدف تحقيق الوحدة العربية. فالموجود الآن في وسائل الاعلام في الوطن العربي هو اعلام الدولة القطرية المسخّر في الغالب وفي أكثرية الأقطار العربية لخدمة أهداف الدولة القطرية بكل ما تعنيه هذه العبارة، فهو يمجّد ويمتدح هذه الدولة ويعدّد ويشرح انجازاتها، ويسكب في ذهن المواطن صباح مساءَ مادة إعلامية تركّز على ما يجري في حدود هذه الدولة ويؤكد وجودها، وبذلك يكون هذا الإعلام خادماً لوضع التجزئة، وعاملاً في اتجاه ترسيخها. وهناك إعلام ظاهره غير قطري ويسمّى في بعض الأحيان تجاوزاً بأنه عربي، وقوامه المطبوعات التي تطبع في خارج الوطن العربي. ولكن هذه الوسائل كلها أنشئت واستمرت في العمل بواسطة هذا القطر أو ذاك، أو هذا النظام أو ذاك. ويرتبط حلّ هذا الإعلام بمراكز المال وهي أقطار الخليج النفطية المارة الذكر. إن هذا الإعلام لا يختلف كثيراً عن إعلام الدولة القطرية فهو في الحقيقة جزء منه وليس منفصلاً عنه. أما أهدافه ومراميه فلا تختلف عن الإعلام القطري، وهو غالباً ما يعمل مجنّداً للترويج لأنظمة النفط، ويعمل لخوض معاركها مع الأنظمة العربية الأخرى والدفاع عن وجهة نظرها. وبذلك يكون الإعلام العربي الحالي إعلاماً موجّهاً، إما مباشرة أو بواسطة المال لخدمة أوضاع التجزئة.

— ٦٦ —

ولكن أيها السائل المستوضح الكريم، هناك الأخطر في

مجال الإعلام، هو الإعلام الغربي، أي إعلام الدول الاستعمارية الموجّه للرأي العام العربي. إن هذا الإعلام أكثر خطورة لسببين؛ **الأول** تقني، فهو متطور من حيث الإخراج والتغطية ووسائل الترغيب. وتمثل اذاعات لندن وصوت أمريكا ومونت كارلو والإذاعة الإسرائيلية قمة هذا الإعلام. إن هذه الأصوات واسعة التغطية وواضحة السماع وذات برامج متقنة تقنياً. أما **الأمر الآخر** الذي يجعلها أكثر خطورة هو الانطباع الذي تحاول جاهدة أن تكوّنه، وهو أنها موضوعية محايدة، وهو الكذبة الكبرى.

إن الإعلام الغربي من صحافة وإذاعة مسموعة ومرئية في حقيقته اعلام موجّه مُغْرِض يخدم أغراض الدول الاستعمارية إلى أقصى الحدود. إلا أنه يتبع في ذلك أسلوباً مخادعاً. فالإعلام الغربي يعمل بطريقة مضللة. فهو أولاً لا يرفع صوته عالياً، بمعنى أنه لا يستخدم أسلوب التعبئة العاطفي الكلمات بل يتكلم بهدوء وبعبارات منتقاة، فيها مسحة الرصانة وتوحي بالتعقل. الشيء الآخر، هو أنه يحاول الحفاظ على شيء من التباين المخادع، فهو عندما يتحدث عن وجهة نظره يبقيها بحدود ٨٠ بالمئة و٩٠ بالمئة، ويترك الباقي لوجهة نظر أخرى مغايرة، فيكون قد حقق الهدف الذي يريده من جهة وحاول خداع المتلقي من جهة أخرى. إن خداع المتلقي أمر مهم في زيادة التأثير فيه لأن المتلقي إذا ما دخل في ذهنه ان هذه الصحيفة أو هذه الإذاعة تقول الحق وتنقل ما لها وما عليها يكون تأثير ما تقوله فيه أكبر مما لو أعتقد

أنها منحازة وغير موضوعية، وذلك أمر معروف. كذلك نجد أن مؤسسات الإعلام الغربية تحرص على وجود الرأي الآخر سواء أكان مصطنعاً أم حقيقياً من أجل كسب ثقة المتلقي وتكوين انطباع الموضوعية عند الرأي العام، إلا أنها بالطبع لا تعطيه غير الحصة الصغرى مبقية الحصة الكبرى للموقف المُغْرِض الذي تريده، وهو الموقف المعبّر عن أهداف تلك الدول ومصالحها في المنطقة. إنك أيها السائل المستوضح الكريم عندما تغوص عميقاً في جذور هذه المؤسسات وكيفية تركيبها ونوعية علاقاتها تكتشف أنها موصولة بطرق غير منظورة بأجهزة دولها كوزارات الخارجية وأجهزة المخابرات ووزارات الدفاع ومكاتب رؤساء الدول. والمتتبع ما ينشر أحياناً في الصحافة يجد بين الآونة والأخرى انكشاف هذا النوع من العلاقات بين وسائل الإعلام أو الأشخاص المهمين فيها وأجهزة الدولة. إنني أيها السائل المستوضح الكريم وقفت شخصياً على حالة محددة، ففي مرحلة من مراحل الحرب مع ايران أخذ الإعلام البريطاني موقفاً معادياً من العراق ممّا دفعنا إلى الحديث المباشر مع وزارة الخارجية البريطانية موضحين لهم أن ذلك قد يهدد مصالحهم وعلاقاتهم معنا، فكان الجواب كالمعتاد ان الصحافة حرّة إلا أنهم سيتحدثون مع ممثلي الإعلام خلال اللقاء الأسبوعي الذي تقوم به الخارجية لإيجاز الصحافة عن الأوضاع العامة. وقد حدث ذلك بالفعل وبعدها تغيرت لهجة الصحافة إزاءنا. الإعلام الغربي أيها السائل

المستوضح الكريم إعلام موجّه تماماً، إلا أن ذلك يجري بأسلوب غير مباشر وبطريقة حاذقة وليست مباشرة فجّة.

ولن أنسى أيها السائل المستوضح الكريم الدور التخريبي المؤثر الذي لعبه الإعلام الغربي لاسيما الاذاعات الثلاث: لندن وصوت أمريكا ومونت كارلو في أثناء العدوان الأمريكي ـ الأطلسي على العراق. لقد كان ذلك الدور السلبي واضحاً ولا تزال هذه المؤسسات تقوم بالدور نفسه.

علينا أيها السائل المستوضح الكريم أن نحمي الرأي العام العربي من الأضرار التي يُلحقها هذا الجهاز الإعلامي الهائل المتعدد الأشكال، المتطور الوسائل، الممعن في التضليل والمخادعة، فكل مادته تنصب في مجرى تكريس التجزئة والمحافظة على الموجود والدفاع عن مصالح الغرب وتسهيل عملية تكريس سيطرته وإبقاء نفوذه. وعندما أقول ذلك، أقصد ان نعمل شيئاً ملموساً في هذا المجال. وإن سألتني ماذا يمكن أن نعمل لتحقيق ذلك؟ أقول: هناك الكثير مما يمكن أن نعمله وفي المجالات كافة. إلا أنني لا أجد ملائماً أن أتوسّع في هذا الموضوع الذي أعلم إن توسعت فيه خرجت في النهاية عن حدود الموضوع إلى موضوع آخر، لذلك أكتفي بجلب الأمر إلى دائرة الانتباه ووضعه في صميم الاهتمام العام. وإن كنت أنت مصرًّا على ذكر شيء عملي محدد فلا مناص لي من التلبية، وعندها أقول: كنت منذ أمد طويل أرى وأدعو ليكون للاتجاه المضاد

لإعلام الغرب صوت واحد في الأقل. إن الناس في بلادنا العربية يجيدون السمع ويحبون الاذاعة حتى بعد ظهور الإذاعة المرئية. فالفلاح في الحقل وصاحب الدكان في دكانه طوال النهار يرغبان في أن يسمعا ما يبثّه المذياع الذي أصبح أمر وجوده ميسّراً من جميع الوجوه واستعماله سهلاً. إنني أحلم أيها السائل المستوضح الكريم بإذاعة مكرّسة تماماً لقضية الوحدة العربية وكل ما يتعلق بتقدم الأمة العربية من جميع الوجوه، يسمعها العرب في كل مكان داخل الوطن العربي وخارجه، الوصول إليها ميسر وسماعها دائم وصوتها واضح تخاطبهم في كل مكان وكل وقت، تشرح لهم هذه القضية المصيرية، وتوضح لهم الأخطار المحيطة وأسبابها، وتنير لهم طريق الخلاص، وترصد وتحلّل التضليل الذي يصدر من الإعلام المعادي. إن هذه الاذاعة القوية في كل شيء يجب أن تفوق تقنياً جميع الاذاعات المعادية، وأن تتوخى الحقيقة وتلتزم المبادىء وتخدم الصالح العربي والهدف القومي بمنتهى الإخلاص والتجرّد والثبات. من لي أيها السائل المستوضح الكريم بمشروع كهذا المشروع ليكون الصوت الآخر، صوت الحق والفضيلة والوعي القومي؟ ومن لي بمثل هذه المؤسسة تظهر وسط هذا الضجيج الإعلامي المضلّل الممعن في خدمة الباطل الذي يزين للفساد ويبرّر الواقع المتخلّف الذي نعيش فيه؟ أهو كثير على الأمة العربية التي لا ينقصها المال ولا تعوزها القدرة البشرية أن يكون لها مثل هذا الصرح الثقافي العتيد؟ لا، وألف لا.

إنني أعرف أيها السائل المستوضح الكريم ان الإمكانات موجودة والقدرة متوفرة، ولكن الإرادة هي التي نفتش عنها. إنني أعرف أفراداً عرباً ممّن عملوا، وربما لا يزالون، في المجال العام وممّن يؤمنون بالوحدة العربية ـ كما أظن ـ وممّن كانت لهم أيام في النضال القومي في مراحل التلمذة والشباب وما أعقبها وممّن هم الآن في دائرة هذا النضال، وممّن توفرت لهم إمكانات مالية جيدة، فهل سيكون لهذا العمل الجليل مكان في إرادتهم؟

ـ ٦٧ ـ

وأنت أيها السائل المستوضح الكريم قد تلتفت حولك فترى الدولة القطرية هي الوضع السائد بأجهزتها ووسائل اعلامها ومؤسساتها الرسمية والمتمسكين بها والمدافعين عنها، فهي تملأ الساحة، وتجد ما يدل عليها في كل مكان فيدخل في روعك أنها قوية منيعة، وأنها القدر الذي لا مفر منه، وأنها صعبة التغيير لوضع الوحدة. إنك أيها السائل المستوضح الكريم تخطىء إذا وقعت في هذا التصور، وتجافي الحقيقة إن تكوّن لديك هذا الانطباع، فالدولة القطرية ضعيفة، فلا تغرنك المظاهر، ولا ينطلي عليك الطلاء الخارجي. إنها واقع يستقر فوق رمال متحركة وبناء هشّ من ورق لا يصمد أمام الهزّات. وأرجو أن تتذكر أيها السائل المستوضح الكريم أن عالمنا العربي متغير تلعب فيه العوامل النفسية دوراً مهماً، وذلك عن طريق التراكم والتغيير الحلزوني الذي يغذي بعضه بعضاً، الذي

بإمكانه أن يتغير في هذا الاتجاه أو ذاك، وخلال مدة ليست طويلة فتزول دنيا وتحلّ محلّها دنيا أخرى، وما كان يعدّ أزلياً يصبح زائلاً في عداد الماضي، وما كان يعد بعيد المنال يصبح هو السائد الموجود. إنه يشبه إلى حد ما لعبة الدومينو التي إذا تحركت فيها قطعة البداية سرت الحركة تباعاً مغيّرة كل شيء أمامها قطعة قطعة. ألا تذكر أيها السائل المستوضح الكريم الوضع العربي أيام حلف بغداد والجو الذي كان سائداً آنذاك والحديث عن الأحلاف وكل ما رافقه من إعلام وتهويل وهرج ومرج، وكيف تغيّر كلياً بقيام ثورة ١٤ تموز/ يوليو في العراق؟ إن الوضع الراهن وضع ضعيف في أساسه ومعرّض للتغيير في أي وقت. الذهن العربي اليوم ربما تكيف مع هذا الوضع إلى حدّ، ولكنه سرعان ما سيتقولب إلى وضع جديد آخر ويحل انطباع جديد محل الانطباع الحالي، وتحلّ صورة مغايرة محل الصورة الحالية. إن الوحدة العربية هي الحل الوحيد، وهي كالقدر الذي لا مفرّ منه، لأن أمة عريقة حية كأمتنا لا يمكن أن تستسلم للموت البطيء، ولا يمكن أن تقبل بوضع يوصلها إلى الفناء، وهو وضع التجزئة، ولا يمكن أن ترى الخطر الأكيد يداهمها وتستسلم له. إن الذي لم يرَ الحقيقة سيراها، والذي لم يدرك أهمية الوحدة سيدركها، إن لم يكن بالإيمان اليوم فسيؤمن بها غداً، وسيكتشف الجميع أن الأمر لا يتعلق بمبدأ يختاره العقل أو عقيدة يؤمن بها الإنسان بل يتعلق بالبقاء والمصير والمحافظة على النفس، ويتعلق بطريق الخلاص والتقدم وبناء المجتمع الجديد وتحقيق

السعادة للجميع. فمَنْ آمن مقدماً فله قصب السبق، ومَنْ يتأخر سيجد نفسه أمام خيار لا خيار دونَه. لذلك أريد أن أقول، أيها السائل المستوضح الكريم، إنك يجب ألاّ تخضع للوهم، وألاّ تستسلم للواقع الموجود، فهذا الذي تراه زائل لا محالة، وستعجب للسرعة التي يزول فيها، وكيف أنه سيتلاشى كزبد الصابون عندما يحيْن الوقت وتبدأ عملية التحول إلى وضع الوحدة. سترى بعينيك كيف أن تغييراً مهماً في مكان ما من الوطن العربي سيفتح الطريق لتغيير آخر، وهذا سيفتح بدوره طريقاً لتغيير آخر، وهكذا بصورة متصاعدة يتهاوى فيها هذا العالم المظهري المصطنع ليحل محله عالم جديد، وستشهد أن قيم الحاضر ستكون مذمومة ومنبوذة وستحل محلها قيم الوضع الجديد: قيم الوحدة والقوة والتقدم والعمل الجماعي، وستتغير بذلك دنيانا هذه، كما تغيرت دنيا العرب من الجاهلية إلى الإسلام. ستكون اللغة غير اللغة، وسيكون العمل غير العمل، وستكون المقاييس غير المقاييس، وسيتغير كل شيء من حال إلى حال. وسترى باستغراب ودهشة ان دعاة التجزئة ومروجيها وأنصارها وأعمدتها اليوم هم أنفسهم دعاة للوحدة ومدافعين عنها ومجتهدين في نصرتها غداً. وهذا هو شأن السابحين دوماً في اتجاه التيار عندنا وعند غيرنا من الأمم. ولكنْ حذارِ أيها السائل المستوضح الكريم أن تصاب بخيبة أمل، فلن يتساوى الجميع، فهناك السابقون وهناك اللاحقون. ففي الدعوة الإسلامية كان هناك المهاجرون والأنصار وهناك الطلقاء الذين أسلموا بعد فتح مكّة

وأطلقهم عفو الرسول الكريم. لذلك وأنت تدعو اليوم إلى الوحدة فإنك تفتش عن السابقين، والسابقون لهم مرتبة خاصة، أما اللاحقون فلا بأس عليهم، إلا أنهم ليسوا كالسابقين عند الله والأمّة.

ـ ٦٨ ـ

ويبدو أن حديثي قد حفز تفكير السائل المستوضح الكريم فأراد أن يتحول إلى سؤال مهم. إن كلمات التفاؤل والحديث الدافىء من القلب قد أثار في نفسه سؤالاً لا مناص منه، وذلك ما حدث فعلاً، فجمع السائل المستوضح الكريم نفسه كما يقال، ووجّه اليّ السؤال الآتي: ولكن متى سيحصل ذلك؟ **متى ستتحقق الوحدة العربية؟** قلت له: إنني كنت أتوقع هذا السؤال. وجوابي عنه لا بد من أن يكون في حدود ما يسمح به العقل، وأقصد بذلك أنني لا يمكن أن أخرج عن قواعد العقل السليم في إعطاء الجواب. ان الوحدة ـ أيها السائل المستوضح الكريم ـ ثورة بكل معنى الكلمة، ستغير كامل الوضع في الوطن العربي، وسيكون لها تأثير دولي من دون شك، وستكون نقطة البداية لمرحلة ايجابية بالنسبة إلى الحضارة البشرية، وعندما يكون الأمر كذلك، أي بهذا الحجم من الأهمية، فليس من المعقول أن يكون بمقدور أحد أن يعطي جواباً محدداً عن سؤال يتعلق بتحديد الوقت. إنك عندما تقول: متى، فانك تقصد تحديد الوقت الذي سيحدث فيه ذلك على وجه التحديد، لذلك فهو أمر غير ممكن. ثم إنك تعرف أن

هذا الأمر يتعلق بتغيير في المجتمع أي أنه أمر اجتماعي بشري وليس أمراً يتعلق بقوانين الطبيعة. وبعبارة أخرى، إنك أيها السائل المستوضح الكريم تعرف الفرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، فالعلوم الطبيعية تتعلق بدراسة القوانين التي تحكم العالم الطبيعي المحيط بنا، أما العلوم الاجتماعية فتتعلق بحياة البشر وتطور المجتمع البشري، لذلك كانت العلوم الطبيعية قادرة على التوصل إلى قوانين ثابتة دقيقة يمكن استخدامها في التنبؤ كقوانين الرياضيات والفيزياء والكيمياء... إلخ، أما العلوم الاجتماعية، ولأنها تتعلق بدراسة البشر والمجتمعات فإنها لا تستطيع (أو لم تستطع حتى الآن) أن تتوصل إلى مثل هذا النوع من القوانين، بل اقتصرت المعرفة فيها على التعرف إلى الاتجاهات العامة والاحتمالات المرجّحة، وليس أكثر من ذلك. لكل ذلك فإنني لا أستطيع أن أجيبك بصورة محددة كما طلبت. وبعبارة أخرى، لا أستطيع أيها السائل المستوضح الكريم أن أحدد لذلك وقتاً معيناً تتحقق فيه الوحدة العربية.

ولكن ذلك لا يعني أنني لا أستطيع أن أقول لك أكثر من ذلك بخصوص الجواب، إذ هناك ما يمكن أن يقال أكثر من ذلك. فاعلم أيها السائل المستوضح الكريم أن المهم في هذا الأمر هو ليس معرفة الوقت المحدد لقيام الوحدة بل ان نعمل من أجل تحقيقها، مع الإيمان أنها ستتحقق حتماً. علينا أن نعمل ونبذل أقصى جهودنا من أجل أن تتحقق، ذلك هو المهم، فذلك هو

الذي يحقق الوحدة وليس المعرفة الذهنية بتاريخ تحقيقها. ولا أكتمك وأنا أقول ذلك، أنني أجد أن في ما قلته أمرين بحاجة إلى مزيد من الايضاح.

الأمر الأول، هو: **هل تحقيق الوحدة العربية أمر حتمي؟ وثانيهما، ما المقصود تحديداً ببذل أقصى الجهود؟** وبصدد الأمر الأول، نعم ان تحقيق الوحدة أمر حتمي، **والمعني بكلمة حتمي** هو أنها تتحقق لا محالة، والسبب في ذلك يرجع إلى قوانين كبرى تسيّر العالم الذي نعيش فيه. فيا أيها السائل المستوضح الكريم، العالم الذي نعيش فيه ليس عالماً فوضوياً من دون إرادة عليا تسيطر عليه. فإذا كنت مؤمناً بالله، فذلك يعني بالضرورة وجود قوة تسيطر على الكون وتسيّره، وأن للعالم إرادة خير تحكمه في النهاية. إن الله قد خلق الإنسان ووضع فيه نفحاً من روحه يتجلى في ميول الخير الموجودة عنده إلى جانب الغرائز وميول الأنانية والشر. إن الكون الذي نعيش فيه لا يمكن أن يكون مصادفة عمياء، كما أن التاريخ يدلل بكثير من الأدلة على وجود اتجاه عام صاعد نحو الإصلاح والتقدم تدل عليه ثورات الاصلاح والتقدم الحضاري وظهور الأديان. والإنسان ككائن حي وكوحدة يتكوّن منها المجتمع، فيه ميول غريزية أنانية، الا أنه أيضاً فيه ميول للخير والمثل العليا ندعوها عادة بالضمير. هناك صراع دائم بين ميول الخير وميول الشر في العالم إلا أن النتيجة النهائية هي تغلّب ميول الخير، ومن هذه العملية تنتج الحضارة والتقدم والاصلاح.

لذلك، فالوحدة العربية هي في اتجاه التاريخ، فهناك قوة تدفع في اتجاهها لأن الوحدة نفسها في الاتجاه الصاعد وهي في اتجاه خير الإنسان العربي. وبعبارة أخرى، إنها مع الحق والخير والمثل العليا للإنسان العربي. إن انتصار إرادة الخير في الأمد الطويل على ميول الشر أمر حتمي، إذ إن تقدم الإنسان أمر لا مفرّ منه، وعلى ذلك فالإنسان العربي لا بد من أن يحقق التقدم الذي ينشده، المتمثل بالوحدة العربية.

ـ ٦٩ ـ

ولكن الحديث عن الحتمية في التاريخ غالباً ما يستثير ذلك النقاش الذي توحيه مظاهر العبارات. فيا أيها السائل المستوضح الكريم: الحتمية التي نتحدث عنها يجب ألاّ توحي إليك أنني أقول بأن الوحدة ستتحقق من دون عمل وجهد وتضحيات، فذلك أبعد ما يكون عن تفكيري. إن عملية التقدم التي أقول بحتميتها لا تتم بصورة سحرية أو بشكل ذاتي بل من خلال الصراع بين قوى الخير وقوى الشر، قوى التقدم وقوى التخلف، القوى التي تدفع إلى الأمام والقوى التي تسحب إلى الخلف. ومن خلال هذا الصراع يبذل معسكر الخير جهوداً، وكذلك معسكر الشر، وتقع تضحيات ويمر وقت. والمهم في ذلك أن أقول إن علينا أن نبذل أقصى الجهود ونقدم التضحيات ونقبل بدفع الثمن من أجل أن تتمخض عملية الصراع عن انتصار معسكر الخير. إن بذل الجهد

وقبول التضحية أمر لا بد منه، وعلينا أن نقدم عليه من أجل أن ينتصر اتجاه الخير ويتحقق الهدف الذي يسعى إليه.

وعليّ أيها السائل المستوضح الكريم أن أوضح لك أيضاً، انك يجب ألاّ تتصور عملية الصراع هذه بصورة مبسطة فتتخيلها تسير في خط مستقيم صاعد من دون تعرّجات وانكسارات، فذلك ليس من طبيعة الأشياء ومناقض حقيقة ما يجري في عملية التطور الاجتماعي. إن خط التاريخ وإن كان في اتجاهه العام صاعداً إلا أنه متعرّج يتضمن انكسارات هنا وهناك، وانتكاسات في هذا الظرف أو ذاك. وعلينا ألاّ نصاب بالإحباط وخيبة الأمل عندما نواجه ذلك بل نعدّه أمراً طبيعياً، فما من ثورة ناجحة في التاريخ أو حركة إصلاح خدمت البشرية إلا وشهدت بعض التعرّجات في خط مسيرتها بسبب نكسات موقتة وحالات إخفاق جزئية.

وعلينا أيها السائل المستوضح الكريم ونحن نفهم ذلك ـ أي حتمية الوحدة العربية ـ أن نبذل الجهود لتحقيقها. والسبب، كما ذكرنا، هو أنه كما للوحدة أنصارها وقواها الذاتية كذلك لعدوها، وهو التجزئة، أنصارها وقواها الذاتية. لذلك علينا أن نبذل أقصى الجهود ونعبىء كل ما لدينا من قوى مادية ومعنوية من أجل النصر النهائي.

وهنا ربما تسأل أيها السائل المستوضح الكريم عن تكافؤ القوى وموازينها، فأقول مجيباً: هناك أمر خفي، غالباً ما يغيب عن

البال، ظاهره شيء وحقيقته شيء مختلف تماماً. إن معسكر الخير كان دائماً في التاريخ يبدأ بداية بسيطة، لذلك فقوته كانت دوماً في البداية أقل من قوة الشر. حدث ذلك دائماً في تاريخ الثورات وحركات الاصلاح: القوة لم تكن متكافئة بين الجانبين، فظواهر القوة كانت دوماً تميل إلى معسكر الشر. ولكن ماذا حصل في النهاية؟ أظن أنك تعرف الجواب. أيها السائل المستوضح الكريم إعلم علم اليقين أن الإنسان الذي يعمل من أجل الخير ويقاتل في معسكر الفضيلة، عندما يعتصر قواه الذاتية يكتشف بمرور الوقت، وبصورة لم يكن يتوقعها، أن تلك القوى غير محدودة، فهو كلما فتش عن إمكانية جديدة للعمل وجدها، وكلما بحث عن مزيد من العزيمة لاستمرار النضال والمقاومة وجده. وهكذا، وهو يستمر في النضال يوماً بعد يوم، يجد في نفسه قوى جديدة لم يعرفها من قبل بدء الصراع. إن قوى الإنسان المناضل في اتجاه الخير لا حدود لها أبداً، والمهم في هذا الأمر هو أن هذه القوى الجديدة الإضافية لا تكون معروفة لديه أو مفهومة عنده في البداية، إلا أنه يكتشفها في أثناء المسيرة ومن خلال النضال اليومي. إن النضال والمعاناة وبذل الجهد عندما تكون مقرونة بالشعور بالحق والمثل الأعلى فإنها تخلق وضعاً جديداً تماماً؛ هو مصدر لمعين لا ينضب من العزم والإبداع والقدرة والتفاؤل والقوة المادية والمعنوية، وهذا هو معنى القول إن الواحد في معسكر الخير يعادل الألف في معسكر الشر. أما في المعسكر المضاد أيها السائل المستوضح الكريم

فيحدث العكس تماماً، فبمرور الوقت واحتدام الصراع يجد الفرد في معسكر الشر أن قواه في تناقص، وأن ما كان يستطيع أن يقوم به بالأمس يعجز عنه اليوم، وذلك بسبب تأثير الصراع فيه، فهو يكتشف يوماً بعد يوم أنه في جانب الشر، فتزول عن عينيه غشاوة الإعلام ويضعف أثر التعبئة ويتنبه عنده الضمير. كما أنه يشاهد ويلمس بسالة أصحاب معسكر الخير وتفانيهم وجهودهم الخيرة، وكلّ ذلك يضعف في نفسه العزيمة والدافع ويتزعزع الإيمان فتنهار قواه وتضعف جبهته. كما أن هذه العملية لا تحدث فجأة بل تأخذ بعض الوقت وتتبلور من خلال الصراع واستمرار النضال وسقوط التضحيات واحتدام المواجهة.

من كل ذلك أريد أن أصل إلى الخلاصة أيها السائل المستوضح الكريم: إننا في الوقت الذي نؤمن فيه أن الوحدة آتية لا ريب فيها، وأنها القدر الذي لا مفر منه، علينا أن نبذل أقصى الجهود لتحقيقها، وأن نقدم على النضال من أجلها برضى وتفاؤل، وأن نقبل بدفع الثمن ونقدم على التضحية، وعلينا أن نصبر ونجالد ونطاول ونستمر مهما كانت النتائج الآنية الموقتة للصراع، إذ إن النصر قادم في نهاية المطاف من خلال هذا الصراع والمطاولة والصبر. فقوانا ستزداد وقوى التجزئة ستتناقص حتى تأتي لحظة النصر النهائي. وإذا سألتني عن كلمة السر في هذه المسألة فأقول لك عن تأكد إنها: **الإيمان**. نعم الإيمان بالوحدة وبحتمية انتصارها ووجوب النضال من أجل ذلك النصر.

والآن أيها السائل المستوضح الكريم لنرجع إلى أصل السؤال: **متى تتحقق الوحدة؟** فأقول: إنني لا أستطيع أن أحدد الوقت بمعنى السنة والشهر واليوم، أي بمعنى الزمن الخاضع للقياس، لأن عملية التغيير الاجتماعي عملية معقدة بذاتها لا تخضع لهذا النوع من القياس. إن الذي أستطيع أن أقوله على وجه التأكيد: هو أن الوحدة ستتحقق، وعلينا أن نبذل أقصى ما لدينا من جهود من أجل تحقيقها من خلال النضال المتواصل وتقديم التضحيات.

— ٧٠ —

قال السائل المستوضح الكريم: لديّ سؤال جديد، ولكن قبل ذلك أريد أن أعود إلى موضوع سبق أن تحدثنا عنه، وهو الموضوع الذي يتعلق بكيفية تحقيق الوحدة العربية. إن هذا الموضوع على جانب كبير من الأهمية، وربما كان أهم أو من أهم الأمور المتعلقة بهذا الموضوع. ولذلك أريد العودة إليه. قلت: إني أتفق معك على أهمية الموضوع. فماذا تريد أن تقول عن ذلك؟ قال السائل المستوضح الكريم: إنك قد قلت إن تحقيق الوحدة أمر حتمي في حياة العرب القادمة، وطلبت أن يبذل الوحدوي أقصى الجهود في النضال من أجل تحقيقها. **فما المقصود، تحديداً، بالنضال من أجل الوحدة؟ هل بإمكانك اعطاء المزيد من التحديد لموضوع الأسلوب؟** قلت له: إذا كنت تسأل عن النضال، فالنضال يعني العمل في شتى الميادين من أجل تحقيق

الوحدة. والعمل هنا يعني الصراع، ويعني المقاومة للوضع الراهن لإزالته وإحلال وضع الوحدة في مكانه، ويعني ذلك الصراع بشتى أنواعه: الصراع الثقافي والصراع السياسي والصراع العسكري والصراع الاقتصادي، وكل نوع آخر من الصراع يقتضيه تحقيق ذلك الهدف. كل صنف من أصناف النضال يؤدي إلى تحقيق الغاية مطلوب وضروري. قال السائل المستوضح الكريم: نعم إنني أفهم ذلك، ولكني أريد وضوحاً أكثر، وتحديداً للأمور أكثر. قلت: نعم، إنني أقدّر ذلك، وأعرف هذه الرغبة عندك منذ بداية هذه العملية، عملية السؤال والجواب التي تدور بيننا.

إنني أيها السائل المستوضح الكريم أتسلسل معك مسترشداً بما حدث لجميع حركات التقدم في التاريخ. إن نقطة البداية في كل حركة تاريخية هي الأفكار. والمقصود هنا هو الدعوة إلى فكرة الوحدة العربية. إن الدعوة إلى الوحدة العربية يجب أن تأخذ أوسع المدى الممكن وبشتى الوسائل لإيصال الفكرة إلى أوسع جماهير الأمة وأكبر عدد ممكن من المواطنين. ووسائل الدعوة يجب أن تكون متنوعة، فكل وسيلة توصل الفكرة إلى إنسان عربي يجب أن تستخدم. وايصال الدعوة يعني كل تلك العملية الثقافية التي تتضمن شرح الفكرة وتوضيح مزاياها وشرح وضع التجزئة وتبيان مساوئها بالشكل المؤثر المقنع للإنسان العربي المتلقي الدعوة. المهمة الثقافية عملية جارية وموجودة، وإن لم تكن بالسعة والتأثير الذي نريده.

ولكنك تعلم أيها السائل المستوضح الكريم ان عملية التأثير في الأفكار لا تكون مجدية إلا إذا أدّت إلى تغيير في الأفعال، أي في السلوك العملي للإنسان. فالثقافة يمكن أن تعرف على أنها تلك العملية التي تتضمن الاستيعاب الذهني والتأثير في السلوك. إن تغيير أفكار الإنسان إذا ما نتج منه تغيير في السلوك بصورة منسجمة مع الأفكار التي استوعبها الذهن تكون العملية الثقافية قد تحققت بنجاح. فتغيير السلوك لا يتحقق من دون استيعاب ذهني للأفكار، كما أن الاستيعاب الذهني للأفكار إذا ما توقف عند هذا الحد ولم يؤدِ إلى تغيير في السلوك فلا يعني ان عملية ثقافية قد تحققت. الثقافة الصحيحة، أي الناجحة، هي التي تتضمن هذين العنصرين: الاستيعاب الذهني وتغيير السلوك في اتجاه تلك الأفكار. هذه هي العملية الثقافية التي نقصدها في الدعوة إلى الوحدة العربية.

ومن ذلك يتضح أن المقصود النهائي هو التأثير في سلوك الأفراد، أي جعلهم يعملون كذا ولا يعملون كذا، يقدمون على هذا الشيء ويمتنعون عن ذلك الشيء، وهكذا. وتغيير السلوك هذا يعني تغييراً في مجال العمل سببه تغيير في مجال الأفكار.

العنصر الثالث في هذه العملية هو أن يتجسد العمل في حركة، أي أن يدخل عنصر التنظيم. ويعني ذلك تحديد وجوب وجود حركة سياسية تعمل من أجل تحقيق الوحدة العربية. إذن لا بد من الحركة المنظمة. والمهم في هذا الصدد ليس التأكيد على

ضرورة قيام الحركة السياسية، فهي موجودة، إلا أن المهم هو أن يتّحد الوحدويون الموجودون في الساحة.

المطلوب من جميع المؤمنين بالوحدة العربية هو أن يتحدوا في إطار شكل من أشكال الاتحاد في ما بينهم من أجل تحقيق الوحدة. ووحدة الحركة هذا الذي نتحدث عنه لا يشترط فيه شكل معين أو إطار معين بل يمكن أن يؤخذ أي شكل يرضاه الجميع وتختاره جميع الأطراف. المهم هو أن يكون الشكل المتفق عليه فعّالاً وعملياً ومؤدياً إلى تحقيق الهدف. إن جميع الحركات السياسية والمنظمات الشعبية والتجمعات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية المؤمنة بالوحدة العربية يجب أن يحدث بينها تفاهم وأن تتجمع في إطار محدد من أجل الوحدة وإن اختلفت في أي من الأمور الأخرى. فالأساس يجب أن يكون توحيد الجهود والعمل المشترك لتحقيق الوحدة، أما باقي الأمور فتسعى كل جهة إلى تحقيقها بجهودها الخاصة وفي الوقت الملائم. أما المرحلة الحالية فهي مرحلة الوحدة وعلى الجميع أن يعمل الآن لإنجازها.

وقد تسألني أيها السائل المستوضح الكريم: كيف تعمل هذه الجهة؟ وجواباً عن سؤالك أقول ببساطة: إنها يجب أن تستوحي أساليب العمل من الهدف نفسه، أي تحقيق الوحدة: فكل وسيلة جائزة ما دامت تؤدي إلى تحقيق الهدف أو تساعد على الاقتراب منه. وبتحديد أكثر، نشر الدعوة إلى الوحدة

بالوسائل الثقافية، واستلام السلطة في هذا القطر أو ذاك، وتحقيق خطوة محدّدة للتقارب بين الأقطار العربية أو بين بعضها، وإصلاح مؤسسة الجامعة العربية، وتوحيد القوانين والأنظمة بين الأقطار العربية في هذا المجال أو ذاك، كلها أساليب جائزة وتقع في نطاق المقصود بالنضال من أجل الوحدة. وكذلك العمل بين الجماهير بالتحريض والدعوة وخوض المعارك النضالية من أجل الوحدة ضروري. وبعبارة أخرى، كل عمل شعبي أو ثقافي أو رسمي يساعد على الاقتراب من هدف الوحدة جائز وضروري. وقد سبق لي أن قلت إن جميع الأساليب جائزة كالدعوة الفكرية والنضال الجماهيري بما في ذلك استخدام القوة التي يجب استخدامها في المكان الملائم والوقت الملائم. من ذلك يتضح أن اختيار الأسلوب عملية انتقائية تعتمد على قرار قيادي يصوغ لكل حالة ما يلائمها من الأساليب، ويعالج كل موقف بما يتناسب معه من الوسائل.

ـ ٧١ ـ

قلت: أظن أنني سمعتك تقول ان لديك سؤالاً جديداً، أليس كذلك؟ قال: نعم، والسؤال هو: كنت قد سألتك عمّن يقف في مقدمة أعداء الوحدة، وأجبت أنهم الصهيونية والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، **ولكنك لم تتحدث بما فيه**

الكفـاية عن أعداء الوحدة فـي داخـل الوطن العربـي. فمن هم أعداؤها فـي الداخـل؟ قلت له: إنه سؤال جدير بأن يُسأل، إلا أنني سأجيبك عن الرأس وليس عن التابع، وعن الأنظمة وليس عن الأفراد. ان رأس الحربة في العداء للوحدة العربية هو بعض الأنظمة الموجودة في الأقطار النفطية في الخليج العربي. إن بعض هذه الأنظمة يستحوذ الآن على الجزء الأعظم من الثروة النفطية العربية ويجني سنوياً دخلاً هائلاً من تصدير النفط الخام لا يتناسب إطلاقاً لا مع عدد سكانه، ولا مع حاجياته المشروعة. كما أن هذا الدخل ـ كما تعلم ويعلم الجميع ـ يذهب الجزء الأعظم منه الى الأسر الحاكمة كمالٍ خاص، والجزء المتبقي الذي يصرف على شؤون الدولة يرجع قسم مهم من أرباحه إليهم أيضاً عن طريق العمولات والمساهمات في الشركات، وكأرباح تجنيها المؤسسات العقارية والتجارية والمالية التي يملكها أشخاص الأسر الحاكمة. ويذهب الباقي إلى دائرة الأشخاص المحيطين بالأسر الحاكمة، وهكذا نزولاً إلى أصحاب الأعمال والتجار. لذلك تجد أن الملكية الشخصية لأفراد الأسر الحاكمة قد وصلت إلى أرقام لا تصدق، وأصبحت ثرواتهم حديث العالم والصحافة. إن هؤلاء الأشخاص المستحوذين على هذه الثروة الهائلة من دون وجه حق هم أعداء التوحيد وأشد المتمسكين بالوضع الراهن. فعلى الصعيد العربي قام هؤلاء بكل ما بوسعهم من أعمال ومقاومة للوحدة العربية أو أية خطوة في طريقها، فهم ضد تقوية الجامعة العربية، وعملوا على

إضعافها وشلّ قدرتها على الحركة وتخريب مؤسساتها المتخصصة، وإضعافها مالياً عن طريق عدم دفع أنصبتهم في موازناتها. ومن أجل الإمعان في إضعافها تعمّدوا تأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي بتمويل وتشجيع منهم لتكون بديلاً من الجامعة العربية، وحرصوا على بناء مؤسساتها بشكل موازٍ تماماً لمؤسسات الجامعة العربية، وأمدوها بالدعم لتكون البديل الجاهز للجامعة العربية. إنهم بالطبع لا يقصدون تحقيق أهداف المؤتمر الإسلامي المسطّرة في الميثاق من وحدة إسلامية أو تضامن إسلامي، ولكنهم يقصدون أن تتحول الأنظار والجهود إلى مؤسسة بديلة للجامعة العربية ذات أهداف بعيدة المنال لا ينتظر تحقيقها، وبذلك تتبدد الجهود وتتوزع الإمكانات وتتحول الأنظار. لقد وقفت هذه الأنظمة ضد كل خطوة وحدوية تمّت في الوطن العربي، فكانوا ضد الجمهورية العربية المتحدة، وضد الاتحاد الهاشمي، وضد وحدة اليمن. إن هذه الأنظمة تعمل دوماً على تفريق الأقطار العربية عن بعضها البعض، وزرع الفتن في ما بينها من أجل ألاّ تتقارب، فهي تخشى وتقاوم أي مشروع لتوحيد العراق وسوريا، وتنظر بريبة وتقاوم أي تقارب بين مصر والسودان، أو بين السودان وليبيا، وهي لم تحبذ بل تقاوم بطريقة خفية الاتحاد المغاربي بين دول المغرب العربي، وتخشى وتحارب توثيق العلاقات بين العراق والأردن، وتقاوم بشدة انشداد الشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية إلى أي قطر عربي آخر. إنها

لم تعلن موقفاً مؤيداً لتوحيد الصحراء مع المغرب مع أنها ذات علاقة قوية مع المغرب. إن هذه الأنظمة نفسها قد أنشأت مجلساً للتعاون الخليجي، وهدفها ليس الوحدة في ما بينها بل تنسيق جهودها لمقاومة الاتجاه القومي المتحرر في الأقطار العربية الأخرى، أي تعبئة جهودها في هذا الاتجاه.

وقد سعت هذه الأنظمة في مجال المناورة واستخدام نفوذها المالي من أجل تكوين علاقات ثنائية مع الأقطار العربية قطراً قطراً، هدفها إبعاد تلك الأقطار عن الوحدة مستغلّة الحاجة المالية لبعض الأقطار والأوضاع الاقتصادية فيها. إن هدف هذه الأنظمة هو إبعاد إمكانية قيام أي تكتلات عربية خارجة عن دائرة نفوذها لأنها تخشى ذلك وتعدّه خطراً على أوضاعها القائمة، مستعملةً جميع الوسائل من ضغط وترغيب. كما عملت على التأثير في الرأي العام بمختلف الوسائل كشراء وسائل الإعلام وإنشاء مؤسسات إعلامية تعمل لحسابها في داخل الوطن العربي وخارجه، كما تستعمل هذه الأنظمة الدين على أوسع نطاق كوسيلة دعاية وتضليل كبناء المساجد والصرف على رجال الدين وعقد المؤتمرات الدينية وتغذية الحركات الدينية بالمال وتكوين العلاقة الودية مع جميع العناصر الرجعية المناوئة للاتجاه القومي.

أما على الصعيد الخارجي فقد تحالفت هذه الأنظمة مع الدول الاستعمارية لاسيما الولايات المتحدة وبريطانيا ونظّمت تلك العلاقة في شتى مجالات التعاون الاستخباري والعلاقات

الثنائية ومنح التسهيلات العسكرية والتدريب والدراسة العسكرية، وأنشأت مؤسسات عسكرية مرتبطة تماماً بتلك الدول ومدرّبة في معاهدها وعلى أوثق العلاقات الاستخبارية بها.

ـ ٧٢ ـ

وهنا التفت السائل المستوضح الكريم قائلاً: الآن اكتملت الصورة، فعدو الوحدة العربية هو الصف المكوّن من الدول الاستعمارية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا والصهيونية. وتعتمد هذه الدول على حلفاء داخليين، ورأس الحربة في العدو الداخلي هو أنظمة الخليج النفطية. قلت له: نعم، فذلك تشخيص صحيح.

ـ ٧٣ ـ

أمّا إذا تساءلت عمّا أريد أن أقوله لأولئك الأعداء فإني أنقل إليك أن مشاعري تقول لي: ان هول ما قام به الأعداء وفظاعته لا تشرحه الأسطر ولا الصفحات، ولكن ليس لنا أن نقول كل ما نريد أن نقوله مرة واحدة، ولا في وقت واحد بل سيبقى حديث الأيام والسنين. ولكن مع ذلك فلا بد من وجود خواطر آنية تلخص مشاعر اللحظة التي نحن فيها.

فيا أيّها الاستعماريون، وعلى رأسهم الصهيونية وأمريكا

وبريطانيا: إنكم أنشأتم عهد الاستعمار الحديث بكل ما هو معروف عنه في الكتب وصدور المظلومين في مشارق الأرض ومغاربها، ثم قام الاتحاد السوفياتي وأتت الحرب الباردة وظن بعض الناس أنكم بانسحابكم من الكثير من بلدان العالم، وحصولها على الاستقلال قد غيّرتم أفكاركم وخططكم وانسجمتم مع مبادىء العدل والإنصاف، وأنكم بتوقيعكم ميثاق الأمم المتحدة ومشاركتكم فيها قد آمنتم فعلاً بتلك المبادىء، وأنكم بحديثكم عن الديمقراطية وحقوق الإنسان قد اعتقدتم بها حقيقة. إننا نقول لكم: إنكم لستم كذلك إطلاقاً بل على العكس تماماً، فأنتم في حقيقتكم اليوم أشد قسوة وأبعد عن تلك المبادىء، وأكثر رغبة في الاستغلال والظلم مما كنتم عليه في مرحلة الاستعمار الأولى. إنكم قد انسحبتم من كثير من المستعمرات التي حصلت على استقلالها ليس إيماناً منكم بالاستقلال بل لأسباب كثيرة أبعد ما تكون عن الايمان بالاستقلال وحرية الشعوب. إنها مقتضيات الحرب الباردة مع الاتحاد السوفياتي، كما أنكم أردتم التخلص من نفقات الإدارة المباشرة لتلك البلدان، وأنكم استبدلتم الاستغلال المباشر بالاستغلال غير المباشر عن طريق التبادل التجاري غير المتكافىء حيث تنخفض باستمرار أسعار المواد الأولية التي تستوردونها من تلك البلدان وترتفع باستمرار أسعار السلع المصنعة التي تصدرونها لها. لقد انسحبتم من تلك البلدان لأسباب عملية وليس مبدئية،

وعندما اختفى الاتحاد السوفياتي وزالت الحرب الباردة رجعتم إلى حقيقتكم الأولى ومنهجكم الاستعماري الأول، وإلى خططكم القديمة، خطط استعباد الشعوب واستغلالها، وبذلك نشأ وضع دولي جديد أردتم تسميته بالنظام الدولي الجديد.

ولكني أيها السائل المستوضح الكريم أقول أكثر من ذلك. إن دول الاستعمار هي الآن أكثر قسوة وإمعاناً في الاستغلال والاضطهاد وأبعد عن مبادىء العدالة وحقوق الإنسان ممّا كانت عليه في مرحلة الاستعمار الأولى التي سبقت الحرب الباردة. والسبب هو أنها الآن تملك قوة مادية وتقنية قادرة على التدمير أكثر مما كانت تملكه في تلك المرحلة. إنها في أخلاقها بقيت على ما كانت عليه في السابق مستعمرة مستغلة تضع المصالح الأنانية فوق المبادىء، ولكنها لم تبق كذلك من حيث قواها المادية والتقنية فهي قد حققت تقدماً تقنياً وصناعياً مكّنها من تطوير السلاح الفتاك. وحققت تقدماً في مجال الدعاية والإعلام وازدادت قوتها المالية وخبرتها وتجاربها، الأمر الذي جعلها في وضع أكثر قوة مادية من السابق. ومعروف أن مقدار الإجرام الذي يقدم عليه المجرم يتناسب طردياً مع قدرته على إلحاق الأذى وارتكاب الجريمة.

— ٧٤ —

قلت للسائل المستوضح الكريم: كنت حتى الآن تسأل،

وأنا أجيب. ولكنني الآن أريد أن أكون أنا السائل. فقال: ذلك عدل، فاسأل عمّا تريد. قلت له: هلاّ أعلمتني شيئاً عنك؟ قال: أنا مواطن عربي من مدينة وجدة في المغرب. قلت: أهي المدينة التي تقع على الحدود بين المغرب والجزائر؟ قال: نعم. قلت: إني أتذكرها تماماً عندما زرتها في ١٩٥٩ مع زميل لي من سوريا، رحمه الله. كنا ذهبنا إلى المغرب بدعوة من الاتحاد المغربي للشغل بمناسبة احتفالات الأول من أيار، وأنتم في المغرب تقولون الفاتح من مي. وأتذكر تماماً أننا زرنا هناك قيادة جيش التحرير الوطني الجزائري، وقابلنا المرحوم هواري بومدين الذي كان قائداً للجيش، واستقبلنا في ذلك البيت المحاط بالحراس. شربنا عنده الشاي عند الغروب. وسألت السائل المستوضح الكريم عن مهنته، فقال: إنه صحفي، وقد عمل في صحيفة **الاتحاد الوطني** للقوات الشعبية التي كانت تصدر في الدرا البيضاء. قلت له: إن ما قلته لك حتى الآن لم يكن الغرض منه أن أجيب عن أسئلة مواطن، بل أود لو كان بمقدوري أن يسمعها جميع المواطنين العرب، فذلك أكثر جدوى. فقال: ولكنك لا تستطيع أن تقول الشيء نفسه لجميع شرائح المجتمع وطبقاته وجماعاته، إذ لكل شريحة وطبقة وجماعة ما تهتم به وما يتلاءم معها من الكلام. قلت: نعم، ذلك صحيح، ولكن الذي قلته لك حتى الآن يهم الجميع ويتعلق بالجميع.

إنك صحفي، والصحفيون في الوطن العربي عددهم ليس

قليلاً، وإن كنت لا أعرفه بالضبط، إلا أنهم أصحاب القلم الذي يكتب للأمة يومياً، يحرر أخبارها وأخبار العالم، ويعلّق عليها ويكتب الرأي الذي يراه. فيا أيها الصحفيون، ويا رجال الثقافة في كل صباح. يا من تقدمون زاد الإعلام والتفكير لكل مواطن طوال يومه أينما يكون، ألاَ يهمكم أن تكونوا كتّاب صحف تقرأها ملايين الأمة من العراق إلى المغرب فتنقلوا للمواطن في سوريا ما يجري في موريتانيا، ولربة البيت في اليمن أخبار الجزائر، تحررون صحفاً قومية توزع في جميع أرجاء الوطن العربي وصحفاً محلية تصدر في هذا القطر أو ذاك، ولكم نقابة قومية تجمعكم جميعاً، ومؤتمرات تعقد في هذا القطر أو ذاك، بالتناوب، تعالجون مشاكل الوطن العربي وتكتبون عن الأمة العربية بماضيها وحاضرها ومستقبلها، تنتقلون بحرية في أرجاء الوطن الكبير من دون قيود، وتكتبون عمّا ترغبون في أن تكتبوا عنه من شؤون، توزع صحفكم يومياً في جميع الأقطار يقرأها الناس، ويرسلون لكم الرسائل عمّا يرونه فيها؟ ألا ترون أن الأمر الذي تعالجونه أعظم، والقضايا التي تكتبون عنها أكثر أهمية في مثل هذا الوضع مقارنة بما أنتم عليه الآن من ضيق وقيود؟ أيّهما أكثر أهمية وأعظم شأناً، أن تكتبوا عن الأمة العربية أم عن شؤون هذا القطر أو ذاك؟ أيّهما أرضى للنفس وأقرب إلى الرضى والسعادة، أن تسبح أقلامكم في خضم القوة والمنعة والاستقرار والنهضة والعزة والمجد والكرامة والتحرر التي تجلبها الوحدة أم في وضع التجزئة بكل ما فيه من ضعف ومذلة

واضطراب وتخلّف وفوضى واستغلال ومظالم وتعسف الأجنبي وعربدة الصهيونية وهوان الدول الاستعمارية؟ إنها سعادة عظمى ستشعرون بها عندما تكون مادة كتابتكم مغمسة بالعز والقوة والتقدم. الصحفي الغيور الوطني المخلص يهمه جداً أن يجد الخبر المفرح والموضوع المتفائل ليكتب عنه بدلاً من أن يضطر إلى تجرّع العلقم يومياً ليكتب في خضم النكسات ويوميات الزمن الرديء. أيّها الصحفيون، إنكم جميعاً ستكونون أحسن حالاً وأكثر راحة وأغنى إنتاجاً وأكثر سعادة مادياً ومعنوياً في وضع الوحدة، فناضلوا من أجلها بكل ما تجود به أقلامكم، والقلم سلاح ماضٍ عندما يستطيع تغيير الأفكار وبالتالي تغيير الأعمال.

وقلت للسائل المستوضح الكريم: أما وأنني خاطبت الفئة التي أنت منها فدعني أخاطب فئات المجتمع الأخرى، فهم يستحقون ذلك وقادرون أن يفعلوا شيئاً كلٌّ حسب قدرته. قال: كنت أريد أن أطلب منك ذلك، إلا أنك سبقتني، فعلى بركة الله.

— ٧٥ —

فرفعت صوتي **مخاطباً العمال في كل الوطن العربي**، حيثما تكونون، مَنْ هو في المعمل، ومَنْ هو خارجه، وفي جميع أنواع الصناعة وكل صنوف الأعمال، وقلت: إنكم الطبقة العاملة المنتجة التي تُدير الآلات وتمسك المطارق، وتحوّل المواد الخام إلى بضائع، إنكم الطبقة التي تكدح وتتعب وتنتج. تعيشون اليوم

في ظل التجزئة بكل ما فيه من فقر وجهل ومرض. أنتم، وإن تفاوتم في دخولكم إلا أنكم عموماً لم تبلغوا المستوى اللائق من معيشة الإنسان في العصر الحديث. إن المصانع التي تعملون فيها لا يزال الجزء الأعظم منها قديماً متخلفاً، والبضائع التي تنتجونها تفتقر إلى الأسواق الواسعة لتصريفها. تدريبكم ناقص وخبراتكم بسيطة. لذلك فأجوركم منخفضة، وظروف سكنكم ليست جيدة، وخدمات الصحة والتعليم والنقل والاتصال والثقافة والترويح والتسلية ناقصة. هذا شأن الذين لهم عمل. أما العاطلون عن العمل فليس لديهم أي شيء. وأنتم أكثر من غيركم تعرفون بؤس حياة البطالة والحرمان الذي تنطوي عليه. إن التجزئة وعدم الاستقرار والضعف والاستغلال وتسلّط الأجنبي كلها أمور أدت إلى هذا الوضع الذي تعيشون فيه، وهو وضع الفقر والجهل والمرض، وليس لكم من سبيل إلى بناء حياة جديدة تتحقق فيها التنمية والتصنيع الواسع الحديث والتقدم الاقتصادي في جميع الميادين غير أن تتحد هذه الأقطار في دولة واحدة، ويتحقق سوق عربي واحد، وتتكامل الإمكانات الاقتصادية، فيصبح كل الوطن العربي سوقكم جميعاً، وبذلك يستطيع من لا يجد عملاً في مسقط رأسه أو القطر الذي نشأ فيه أن يذهب إلى العمل في القطر الذي يحتاج إلى اليد العاملة، تماماً كما يعمل قانون الأواني المستطرقة، ومن دون قيود ولا مشاكل ولا تعقيدات كالتي نعرفها في ما يتعلق بعمل العَمَالة العربية المتنقلة من قطر إلى قطر آخر الآن. وبالتنمية

وبالتحديث السريع للآلات ووسائل الإنتاج، بالنهضة الصناعية التي تخلقها الوحدة تزدهر الصناعة وتتوسّع، فلا يبقى أحد من دون عمل، وترتفع الإنتاجية ومعها الأجور وتزداد الثروة وتتراكم وتتحسن أحوالكم المعاشية والصحية والاجتماعية. إنكم أيّها العمّال عماد الاقتصاد الوطني. والاقتصاد الوطني في هذا العصر لا يتطور إلا بوجود سوق واسعة كبيرة وموارد مالية ومواد أولية تتكامل وتتضافر لدفع عجلة التنمية إلى الأمام. إن الوحدة ستخلق نهوضاً قومياً واندفاعاً نحو التقدم والتحديث والإصلاح الجذري للمجتمع. وبذلك تتحقق التنمية ومعها تتحسن أحوالكم من جميع الوجوه. واعلموا أن الفقر والبطالة ملازمان لوضع التجزئة والتخلّف الذي تخلقه، وأن التنمية والرفاهية ملازمتان لوضع الوحدة والتقدم الذي تقود إليه. إنني واثق أن لكم مصلحة خاصة ومصلحة وطنية عامة في الوحدة، فناضلوا من أجلها تناضلون من أجل خلاصكم كطبقة، وخلاص أمتكم كمواطنين.

— ٧٦ —

أمّا أنتم أيها العاملون في الأرض الزراعية من فلاحين وعمّال زراعيين فلكم تماماً مصلحة خاصة ومصلحة عامة في الوحدة. إنكم في أحد الأقطار مثلاً مكتظون، عددكم كبير بالنسبة إلى الأرض المتوفرة ممّا أدى إلى بقاء الملايين منكم من دون أرض يعمل فيها، وبسبب كثرة اليد العاملة بالنسبة إلى الأرض

انخفضت أجوركم كعمّال زراعيين، ومع البطالة وانخفاض الأجور انخفض مستوى المعيشة وحلّ الفقر والجهل والمرض بينكم، في حين أن هناك أقطاراً عربية أخرى فيها العكس تماماً: وفرة في الأرض الزراعية وقلّة في اليد العاملة، فبقي جزء كبير من الأرض من دون استغلال وتعطّل كثير من الأعمال الزراعية. في هذا القطر حاجة كبيرة إلى هذا المحصول أو ذاك (كالحبوب مثلاً أو المنتجات الحيوانية) فيضطر إلى استيرادها من الخارج في حين أن في القطر الآخر إمكانية كبيرة لزيادة إنتاج ذلك المحصول وتصديرها للقطر الذي يحتاج إليها، إلا أن ذلك لا يحصل. هكذا الكثير من أمثلة عدم التكامل التي تسببها التجزئة. في ظل الوحدة تتكامل الإمكانات وتتحرك عوامل الإنتاج من رأس مال وآلات ويد عاملة وخبرة فنية من المكان الذي تكون فيه وفيرة إلى المكان الذي تكون فيه قليلة، فيزداد الإنتاج واستثمار الموارد المعطلة لمصلحة زيادة الإنتاج الزراعي، وبالدرجة الأولى لمصلحة الفلاحين العاملين في الزراعة. وعندما يصبح السوق العربي موحّداً يستطيع فلاحو القطر القادر على زيادة إنتاج الحبوب أو المنتجات الحيوانية من زيادة إنتاجه لسد حاجة القطر الذي يحتاج إليها، وبذلك يرتفع دخل الفلاحين في القطر الذي أنتجها، وهكذا. إن حرية انتقال اليد العاملة والمنتجات الزراعية ورأس المال والخبرة من شأنها أن تزيد من رقعة الأرض الزراعية المستثمرة وزيادة الإنتاج الزراعي وإدخال محاصيل جديدة وطرق إنتاج جديدة وتحديث

الموجود منها، وبذلك تدور عجلة التنمية الزراعية لمصلحة الفلاحين والعمّال الزراعيين، فالذي لا أرض له في هذا القطر يستطيع أن يحصل على أرض في قطر آخر، والذي لا عمل له في هذا القطر يستطيع أن يجد عملاً في القطر الآخر، وهكذا تتطور الزراعة كمّاً ونوعاً لمصلحة العاملين في هذا القطاع، فتزول البطالة الريفية وترتفع أجور العمال الزراعيين ويزداد دخل الفلاحين المنتجين ويتطور الريف. إنها التنمية الزراعية التي تفتح أمام الفلاحين أبواب الحياة الجديدة، حياة الرفاهية والتقدم الاجتماعي.

أيّها الفلاحون إن الوحدة تحقق لكم الاستقرار ولأمتكم القوة والهيبة والمَنَعة، فلا يعود وطنكم محط أطماع الطامعين واعتداءات المعتدين، فيتحقق السلام وتتضاءل فرص الحروب وعدم الاستقرار فلا تسفك دماؤكم في القلاقل والاضطرابات التي يسببها المعتدون والطامعون بيلادكم. إن الأمن والسلام والاستقرار هي النعم التي ستوفرها لكم الوحدة، كما أنها ستوفر لكم العيش المرفّه الذي توجده التنمية والتقدم الذي يحصل في القطاع الزراعي. إنكم أبناء الأرض، أرض الآباء والأجداد التي تمتد فيها جذوركم، وسالت عليها دماؤكم، وضمّت رفات آبائكم، وهي اليوم بحاجة إلى أن تصان وأن يدفع عنها الشر والعدوان، وليس غير الوحدة ما يحقق ذلك. إن واجب المواطنة والقومية يدعوكم إلى تأييد وحدة الوطن، وأنكم كأصحاب مهنة لكم مصلحة حقيقية أكيدة بالوحدة، فارفعوا أصواتكم لتأييدها.

وإزاء ذلك، علّق السائل المستوضح الكريم باعتباره صحفياً مطّلعاً، على الحياة الثقافية العربية قائلاً: أراك توجّهت بالنداء أولاً إلى العمال ثم إلى الفلاحين، وكنت بذلك قريباً من مألوف العبارات الاشتراكية، فهل كان ذلك مقصوداً؟ قلت له: إن كنت تقصد اعطاء الأهمية للمنتجين الكادحين من عمال وفلاحين، فالجواب: نعم، وإن كنت تقصد محاكاة شعارات معينة، فالجواب: كلا. كما أود أن أوضح لك أنني لا أقصد مخاطبة فئات واستثناء فئات أخرى، فالأمة في نظري هي المجموع بكل فئاته، والأمة هي المخاطب، وليس جزء منها. لذلك فإني لن أستثني الصناعيين ولا التجار ولا الفئات الأخرى من ذلك. **فإلى الصناعيين** حيثما كانوا، وفي أي نوع من الصناعة عملوا، أتوجه بالنداء فأقول: إنكم اخترتم هذا النشاط الاقتصادي المهم: نشاط الصناعة التي تمزج المواد الخام وتستخدم الآلة والطاقة والخبرة الفنية والتنظيم الإداري من أجل إنتاج سلع أو خدمات جديدة. إنكم تعملون في النشاط الاقتصادي الذي هو محور التنمية الحديثة والمنبع الأول للثروة وعماد الرفاهية الاقتصادية للبلاد. إنكم تعرفون أكثر من غيركم كم كان مضرّاً تجزئة السوق العربية ووضع الحواجز الجمركية والقيود على انتقال رأس المال واليد العاملة، الأمر الذي حدّد نشاطكم وضيّق أسواقكم وأضعف أو قتل صناعاتكم. إن الواحد منكم يعمل ويجتهد ليقيم مصنعاً للزجاج

في هذا القطر، وبعد أن ينزل إنتاجه إلى السوق يجد أن السوق لا يتسع إلا لجزء يسير من الإنتاج. وإذا ما أراد أن يتوسع أو أن يُدخل طريقة حديثة في الإنتاج ضاقت عليه السوق، وبالطبع إذا ما أراد أن يصدّر للقطر الآخر وجد الصعوبات والقيود ووجد أمامه منتجات الدول الصناعية التي سبقته بالخبرة والإمكانات فلا يستطيع أن ينافسها. إنكم تعرفون أكثر من غيركم فوائد توحيد السوق وتكامل الموارد وانتقال اليد العاملة والخبرة الفنية، وطالما طالبتم وتكلمتم في مؤتمراتكم على ذلك. إن الصناعة من أجل أن تتطوّر تحتاج إلى سوق واسعة ولموارد كبيرة ولاسيما رأس المال المتوفر حالياً في أقطار، بوفرة لا مجال لاستثمارها في تلك الأقطار، وشحة في أقطار أخرى لا تستطيع الحصول عليها إلا بكلفة عالية جداً وبشروط غير مقبولة، هذا إذا ما وجد ذلك المال. إنكم أيّها العاملون النشيطون في الصناعة الطموحون إلى التوسع والإبداع وإنشاء صناعات جديدة، تكتّف التجزئة أيديكم وتحدّ من نشاطكم لمصلحة المنتجات الأجنبية والصناعيين الأجانب. إنكم من دون شك سيكون بإمكانكم زيادة إنتاجكم وتوسيع صناعاتكم الموجودة وإنشاء صناعات جديدة، فتزداد أرباحكم وتتحسن دخولكم إذا ما فتحت أمامكم أسواق الوطن العربي وإذا ما وضع الجهاز المصرفي فوائض الأموال العربية تحت تصرفكم لاستثمارها في الصناعة، وإذا ما تكاملت اليد العاملة كمّاً ونوعاً وتحركت من مكان الوفرة إلى مكان الشحّة. وبعبارة أخرى، ان

عملية التنمية عندما تدور بقوة الدفع التي تخلقها الوحدة واتساع السوق وتكامل الموارد فإنكم ستجدون الوفرة والدخل المرتفع، وتنفتح أمامكم مجالات العمل والإبداع وتحقيق الطموحات فيرتفع مستوى معيشتكم وتزدهر أعمالكم لمصلحتكم الخاصة ولمصلحة الأمة عامة، إذ ما من شك في أن ازدهار الصناعة هو ازدهار لمجمل الاقتصاد الوطني. إن الوحدة ستخلق وضعاً جديداً تزول فيه الحواجز والحدود الداخلية وتصبح الحواجز خارجية تحيط بحدود الوطن العربي إزاء العالم الخارجي. وفي ظل سياسة اقتصادية تهدف إلى تسريع التنمية، وبناء قواها الاقتصادية والصناعية والتقنية يصبح من الممكن أن تزدهر الصناعة وتنمو من البسيط إلى المعقّد، ومن إنتاج السلع الاستهلاكية إلى إنتاج السلع الإنتاجية، وفي كل ذلك تنفتح أمامكم الفرص الجديدة وتتاح لكم الإمكانات الهائلة غير المستغلة في الوقت الحاضر، وتصبحون فئة صناعية حديثة تبنون وتنتجون فتتصاعد رفاهيتكم ورفاهية الأمة، كما هو الحال في الدول الصناعية المتقدمة. إنكم أبناء هذا الوطن، منه أتيتم، ومن موارده تعيشون، ولد فيه آباؤكم وأجدادكم، وسيعيش فيه أحفادكم. رفاهيتكم من خيراته، فإن كنتم اليوم تعانون مصاعب القيود والحدود وقلة رأس المال ومشاكل العملة الصعبة وضيق الأسواق وكل ما يتسم به وضع التجزئة فإنكم ستكونون في وضع آخر أفضل وأحسن وأعلى منزلة يتحقق لكم فيه ما تصبون إليه شخصياً مما ترغبون فيه لوطنكم

وأمتكم. وهل هناك ما هو أفضل من أن يحقق الإنسان كل ذلك فيُرضي نفسه ويُرضي ضميره، ويخدم نفسه ويخدم وطنه في آن واحد؟ إن حياتكم في الوحدة ورفاهيتكم في الوحدة وتحقيق مطامحكم في الوحدة، فاعملوا من أجلها بأيديكم أو بألسنتكم، أو حتى في قلوبكم، وذلك أضعف الإيمان.

— ٧٨ —

وللتجار أيضاً أتوجه بالنداء. إن كانت بعض النظريات تعدّهم فئة غير منتجة فذلك مجرد اجتهاد ما نحن بصدده. إنهم مواطنون يمارسون مهنة ويقومون بعمل اقتصادي في التوزيع والنقل وسائر ما يدخل في عداد ذلك. إنكم أيّها التجار تعانون من دون شك قيود التجزئة التي تعرفونها أكثر من غيركم بفعل الممارسة. إن التجارة الحديثة تتطلب سعة السوق وسرعة الاتصال وحرية السفر وسهولة انتقال البضائع والعلاقة الميسرة مع المنتجين من جهة ومع المستهلكين من جهة أخرى، كما تتطلب سهولة الاتصال والسفر والتعامل مع الخارج في قنوات الاستيراد والتصدير. إنكم تعانون وضع التجزئة وقيوده ومحدداته، وتعانون عدم الاستقرار من الهزات السياسية. إن التجارة المزدهرة لا توجد إلا في اقتصاد مزدهر فحيثما يسود الفقر يخف النشاط التجاري. إنكم تعرفون أن الوحدة ستجعل مجال نشاطكم الوطن العربي بكامله وتجعل السوق الذي تنشطون فيه قوامه الأمة العربية برمّتها

بدلاً من حدود هذا القطر أو ذاك، وتعرفون أن مهنتكم ستكون أنشط، وأرباحكم أكبر ومجال عملكم أوسع عندما يكون الاقتصاد القومي في حالة صعود وازدهار، والعكس بالعكس. إن الوحدة ستوفر المجال الواسع وستحفز التنمية وستنشط الاقتصاد الوطني عموماً، وبازدياد الإنتاج الصناعي والزراعي وبتوسع الصناعة وبنمو جميع فروع الاقتصاد الوطني ستزداد عملية الاستيراد والتصدير وسيتوسع نشاط توزيع السلع ونقل عوامل الإنتاج وكل ما يتعلق بالتجارة عموماً. ومع ذلك، ستزداد فرص العمل أمامكم، وستتناقص القيود الإدارية، ومحددات السفر وعوائق شحة العملة الصعبة، وترتفع مع كل ذلك دخولكم وتزداد أرباحكم، وسيكون مسرح نشاطكم واسعاً، ومجال عملكم كبيراً. وسيعود كل ذلك بالنفع على مجمل الاقتصاد الوطني إذ سيتحسن انسياب السلع، وستتوفر لمن يحتاج إليها بالشكل والوقت الملائم فيستفيد المنتج والمستهلك على حد سواء. إن تحسّن ظروف مهنتكم وارتفاع دخلكم وتوسع فرص العمل أمامكم أمور مفيدة لكم لا توفرها أوضاع التجزئة بل أوضاع الوحدة. سيكون بإمكان من لا يجد مجالاً في هذا القطر أن ينتقل إلى قطر آخر، ومن يضيق به قطر أن يتوسع في الأقطار الأخرى، وسيزداد اتصالكم بيعضكم بعضاً فتزداد خبرتكم ويتعلم تجار هذا القطر من تجار القطر الآخر، وستزداد علاقاتكم بالخارج فتتعلمون وتزداد خبرتكم. ستعملون أكثر، وستربحون أكثر، وستعيشون أفضل، وستكونون أكثر أمناً واستقراراً

وسعادة في ظل الوحدة. أليس كل ذلك ما يكفي لتلبية النداء والاصطفاف بجانب هذا الهدف القومي النبيل؛ هدف توحيد أمة عريقة مجزأة ظلماً؟ ألا يهمكم أن تدخلوا في تجارة رابحة كهذه: ربحها مضمون أضعاف مضاعفة وأجرها مكفول عند الله والوطن، وعائدها خير ورفاهية ونعمة لكم ولأبنائكم وعوائلكم ولأبناء أمتكم جميعاً؟

ـ ٧٩ ـ

ماذا ترى أيها السائل المستوضح الكريم **بخصوص المهندسين في الوطن العربي**؟ أليسوا من أهم، إن لم يكونوا أهم فئة في مجال البناء والإعمار؟ نعم، هم المهندسون الذين يصممون ويشيدون البناء المادي للأمة، فتجدهم في كل مكان تحتاج إليهم التنمية في كل ناحية. هذه هي الفئة التي تنتشر الآن في الأقطار العربية ولكن بصورة غير متوازنة، فهناك فائض في مكان وشحة في مكان آخر، وهناك اختصاصات موجودة في مكان تحتاج إليها أقطار أخرى. هناك التنمية التي يقودها قطاع الدولة، وهناك تنمية يقودها القطاع الخاص. في الحالتين يضطلع المهندسون بالدور الأساس. إنكم أيّها المهندسون تضطرون في بعض الأحيان إلى أن تهجروا هذا القطر إلى قطر آخر بحثاً عن العمل فتصادفون الصعوبات المعروفة، وحتى ان بعضكم قد هجر الوطن العربي إلى خارج الوطن بحثاً عن فرص العمل، فتتعرضون للغربة وكل مشاكل

المجتمع الجديد وتتأثر عوائلكم ويتعرّض أبناؤكم لأمراض تلك المجتمعات الغربية وتتعرضون أنتم لتأنيب الضمير والشعور بالتقصير. إنكم في ظل الوحدة لن تضطروا إلى كل ذلك، فهناك العمل الوفير لكم وللمزيد منكم، فعندما تزال الحدود وتلغى القيود ويصبح الوطن العربي الكبير جميعه مسرحاً لنشاطكم تنتقلون وتسافرون وتستقرون وتعملون حيثما أردتم، عند ذلك ستجدون فرصاً واسعة تنتظركم وأعمالاً كبيرة تنتظر أن تنجز بأيديكم. فالنهضة والتنمية اللتان ستعمّان الوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه ستستوعبان نشاطكم وتزيدان، وستجدون أنفسكم في غمرة عمل مثمر عزيز يعود عليكم بالنفع الحلال الوفير وعلى وطنكم بالفائدة، فتكسبون أنفسكم وتريحون ضمائركم. تنشئون عوائلكم في أمان واطمئنان وتغمركم سعادة الانسجام بين خدمة النفس وخدمة الوطن. سيكون بإمكانكم أن تعملوا كل ما ترغبون فيه، فالمصممون والمبدعون والمقاولون والمنفذون والمخططون يستغرقهم العمل المثمر حيثما يوجد في أرجاء الوطن الكبير، وبذلك ستنفتح أمامكم فرص البروز والإبداع والتجديد لتضاهوا أفضل مهندسي العالم، وسيكون حضوركم في المؤتمرات الدولية واضحاً وإسهامكم في البحوث والدراسة مرموقاً، وفي كل ذلك سيكون لكم شأن غير الشأن الذي أنتم عليه الآن مادياً ومعنوياً. إذن، أليست الوحدة هدفاً نبيلاً عظيماً يستحق منكم التأييد والتضحية والعمل من أجل تحقيقه؟ إنني واثق أنكم تسمعون

وتعون ما أقول وأنكم منضمون إلى صفوف التوحيد لا محالة. إنكم حتماً ستفضلون وطناً موحداً كبيراً كالوطن العربي تغمره نهضة عمرانية وتنمية اقتصادية هي ساحة عملكم ومجال نشاطكم، على تجزئة راكدة تسودها القيود والحدود وتختنق بداخلها الإمكانات ويسودها الفقر والضعف والمهانة.

— ٨٠ —

وما أن أنهيت كلامي حتى سبقني السائل المستوضح الكريم قائلاً: **وماذا عن الأطباء وهم الفئة ذات العمل الإنساني؟** قلت: نعم، والأطباء أيضاً لن يتخلفوا عن الركب ولن يكونوا إلا مع الوحدة. إنكم يا من تبدأون حياتكم العملية بذلك القسم الذي يلزمكم بالموقف الإنساني ويجعل غرض مهنتكم مساعدة الإنسان وليس الكسب المادي، لن تكونوا أقل من غيركم بل في مقدمة العاملين من أجل الوحدة. إنكم تعرفون أن أقطاراً عربية كثيرة لاسيما الأقطار الفقيرة تعاني نقصاً شديداً فيكم، عدداً واختصاصاً، وتعرفون ما يعني ذلك بالنسبة إلى المرضى. هناك أقطار لا تستطيع مؤسساتها الطبية استيعاب كل الموجود من الأطباء مما اضطرهم إلى الهجرة التي كان أغلبها خارج الوطن العربي مع الأسف، ففي الولايات المتحدة وأوروبا عدد غير قليل من الأطباء العرب وبعضهم في مراكز عليا مهمة. فلماذا يحدث ذلك؟ إنه ضيق المجال مادياً وضيقه من حيث توفر وسائل العمل واجراء البحوث والتقدم العلمي

على الصعيد الدولي في مجال المهنة. إنكم الآن ينتظم أغلبكم في نقابات للأطباء وفي جمعيات طبية في أغلب الأقطار العربية، وهناك عمل طبي مشترك بين الأقطار العربية. إنكم تعرفون من التجربة العملية ان الوحدة ستفتح أمامكم مجالات مقفلة الآن، وذلك عن طريق جعل عموم الوطن العربي مجالاً لنشاطكم وعملكم، فالطبيب الجديد يستطيع أن يعمل في أي قطر يشاء من دون حدود وقيود وصعوبات في القطاع الخاص، كما يستطيع أن يعمل في أي مستشفى عام في الوطن العربي، ويستطيع أن يتعاون مع غيره في إنشاء أية مؤسسة طبية جديدة يرغب فيها. ان مجال اكتساب الخبرة سيكون أوسع، ومجال اجراء البحوث والالتقاء بالآخرين من الأطباء سيكون أكبر، وبذلك ستكون فرص المنافسة والتقدم أكثر. إن العلاقة بأطباء العالم ومؤسساته العلمية سيكون مختلفاً عندما تكون الصلة على أساس أطباء الوطن العربي لا كما هي عليه الآن في ظل التجزئة. إنكم في مهمتكم الإنسانية ستجدون المجال أوسع والفرص أكبر في الأرياف والمدن، في الأماكن المنكوبة والمعمورة، في كل أجزاء المغرب العربي وفي وادي النيل والجزيرة العربية والهلال الخصيب، في جنوب السودان وفي موريتانيا. في ظل الدولة الموحّدة سيكون لكم شأنٌ أكبر ودور أهم ونشاط أوسع وفرص أكبر للعيش الكريم، والعمل الشريف والنشاط المثمر والمنافسة النزيهة والإبداع والتقدم. إن مهنتكم ستكون أكثر شرفاً وأرفع مكانة في ظل دولة قوية عزيزة يعمّها التقدم وتسودها

النهضة من الوضع الحالي الذي تعرفون معوقاته. إنكم ستكونون من دون شك في وضع أفضل إنسانياً ومهنياً ومادياً، لكم كأشخاص ولأمتكم ولوطنكم كمواطنين. إن حبّ الإنسان واحترام قيمته التي هي جوهر الإنسانية لا يمكن إلا أن تؤدي إلى حب الوطن والتعلق بالشعب وخدمته. والعمل من أجل الوحدة هو التعلق بالشعب وخدمة الوطن. إلى ذلك ندعوكم حيثما تكونوا في الداخل أو الخارج.

وأنتم أيها الأطباء الذين تسكنون أوطاناً غير وطنكم، سيكون لكم في دولة الوحدة المكان المعزّز والمجال الفسيح لتنقلوا خبرتكم ومعارفكم وما توصلتم إليه من حذق ونتائج علمية إلى الوطن الأم الذي سيكون بالوحدة غير ما عرفتموه عنه، سيكون قوياً ناهضاً يقدر العلم والعلماء ويجل المعرفة ويحترم الخبرة ويفتح المجال فسيحاً لكم لتعودوا مواطنين مكرّمين لخدمة أبناء أمتكم، فالحاجة إليكم قائمة ومكانكم محفوظ ومرموق. سيكون حاضر أمتكم كما كان ماضيها حافلاً بما تعتزون به وتفاخرون به أقرانكم أطباء الأمم الأخرى. فَلْننضم جميعاً إلى صف الإيمان والكرامة الإنسانية الحقة: صف الوحدة العربية الشاملة.

— ٨١ —

وعندما فرغت من تلك المخاطبة وتوجيه النداء، صعّدت نظري إلى السائل المستوضح الكريم وقلت بلهجة السؤال: وهل

يصح حديث عن الوعي القومي والدعوة إلى الوحدة من دون **الطلبة، تلك الفئة التي تجمع صفتين هامتين، هما الشباب وتلقي التعليم**؟ فقد كان الطلاب ولا يزالون هم الفئة الأكثر أهلية لتلقي أفكار التقدم والنهضة بسبب هاتين الصفتين؛ فسن الشباب هو سنّ تكوين الشخصية، ومرحلة بداية الحيوية والطاقة والقدرة والنشاط، كما أنهم في مرحلة التعلم واستيعاب المعرفة وبذلك يكوّنون ما يمكن أن نطلق عليه اسم الجيل المستنير. فالسن والثقافة التي هم فيهما تؤهلهما لحمل رسالة النهضة والدعوة إلى الوحدة والحماسة القومية. ومنذ بداية النهضة العربية الحديثة كان للطلبة دور متميز فعّال في مجال الوعي القومي، وقد تجلى ذلك بوضوح خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها مما نتذكره نحن.

أيها الطلبة حيثما تكونوا، وفي أية مرحلة تكونون، إنكم تتحملون مسؤولية لا أظنكم إلا متحمّلين إيّاها بجدارة. انظروا إلى أوضاعكم اليوم في ظل التجزئة: نقص في كل شيء، في المقاعد الدراسية والأساتذة وقلّة في المدارس وضيق في الجامعات ونقص في كل أنواع الوسائل اللازمة للتعليم والدراسة الصحيحة. طلاب هذا القطر لا يستطيعون الانتقال إلى مدارس قطر آخر إلا بصعوبة وفي نطاق محدود جداً، وهم إن انتقلوا واجهوا أنواع الصعوبات والمشاكل بسبب اختلاف الأنظمة والمناهج وطرق التدريس. والطالب الذي يرغب في أن يدرس هذا الاختصاص ربما لا يجده في القطر الذي يعيش فيه، وعندما يريد أن يفتش عنه في جامعات

قطر آخر لا يستطيع ذلك بسهولة، فهناك مختلف المعوقات، وهكذا في جميع الوجوه ونواحي العملية التعليمية. إن مدارس هذا القطر ربما لا تجد المدرّسين اللازمين في هذا الموضوع أو ذاك، فتبقى تلك الدروس شاغرة، وهكذا. إنكم يا جيل المستقبل تدركون أكثر من غيركم أن الوحدة ستزيل كل هذه القيود والمعوقات. وعندما تزول الحدود ويصبح كل الوطن العربي مفتوحاً أمامكم تذهبون الى التعلّم حيثما أردتم، وتنتمون إلى الجامعة التي ترغبون فيها. إنكم تعرفون أن حالة النهضة والتقدم التي ستحركها وحدة الأمة ستجلب معها إمكانات جديدة وستضع في مجال التعليم وسائل وتسهيلات جديدة، وسيشهد التعليم بمختلف مراحله عملية إصلاح جذرية تعمّ فوائدها الجميع، وستتحرك مسيرة متسارعة نحو الأفضل والأكمل والأجدى في كل شيء، وخيرات كل ذلك ستعمّكم من دون شك، فستكون فرص التعليم أوسع ونوعية التعليم أفضل وكلفة التعليم أقل. إن الذين يرزحون الآن تحت وطأة الكلفة العالية للتعليم الخاص سيخفف عنهم العبء، والذين يضطرون الآن إلى ترك مقاعد الدراسة للعمل طلباً لدخل إضافي للعائلة المحتاجة سيستغنون عن ذلك ويبقون في مقاعدهم ولن تفوتهم فرصة التعلم. إنكم أيها الشباب تتميزون بصفاء الذهن ونقاوة الضمير وتدفق الحيوية، لذلك فإنكم مؤهلون لحمل رسالة الأمة، فلديكم كل ما يساعدكم على الدعوة إلى الوحدة العربية. إنكم من أفضل من يحملها ومن

أفضل من ينقلها إلى الآخرين. إنكم تعرفون من دراستكم التاريخ عظمة أمتنا وما بلغته من عزّ ومجد ومكانة عندما كانت موحّدة، وتدركون أثر الوحدة في الأمم التي توحّدت، وفواجع التفرقة على الأمم التي تجزّأت. إن صفحات التاريخ تنبئكم بالعِبَر والدروس البليغة، والتاريخ الحديث يفتح عيونكم على ما قامت به دول الاستعمار، وما ارتكبته الصهيونية من جرائم بحق أمتنا ووطننا، وما تنوي أن تقوم به في المستقبل القريب والبعيد، فأنتم أفضل من يدرك الأخطار المحيطة بنا، وأنتم في مقدمة من تؤهلهم الثقافة والسن لإدراك مزايا الوحدة ومساوىء التجزئة، فإليكم نتّجه بأبصارنا، وإليكم ترنو عيون التاريخ، فنقاوة ضمائركم وتدفق حيويتكم واتصالكم بتربة الوطن تدعوكم إلى هذه المهمة الجليلة، مهمة الإيمان بالوحدة والدعوة إليها والعمل من أجل تحقيقها مهما كانت التضحيات. إنكم كفئة في المجتمع ستكونون أفضل حالاً من دون شك، ومن جميع النواحي، وستكون ظروفكم أكثر ملاءمة، كما أن أمتكم ستكون في وضع أسمى ومنزلة أعلى ومكانة أقوى عندما تتحقق الوحدة من دون شك. في ظل الوحدة أيها الشباب سيكون نشيد **بلاد العرب أوطاني** قولاً ملموساً لا مجرد كلام. نعم سيكون وطنكم كل هذا الوطن المترامي الأطراف في افريقيا وآسيا، من المحيط إلى الخليج، لا مجرد موريتانيا أو لبنان أو البحرين. سيعرف كل إنسان في العالم من أنتم وأين أنتم، إذ بمجرد أن تذكر له أنك عربي لا يتلعثم ويخلط بين الأسماء

ويخطىء في المواقع، كما هو الحال اليوم. ستقول لمن يسألك بملء الفم وبكل الاعتزاز وبكامل الثقة بالنفس إنك عربي، لأن هذا الوطن الكبير صاحب الإمكانات الهائلة، وهذه الأمة العريقة صاحبة التاريخ المجيد، وهذه الدولة القوية المهابة المحترمة ستكون في ذهن وذاكرة كل إنسان في العالم، لذلك لن يخطىء أحد في التشخيص والتعرّف، كما يفعل اليوم. وستنتهي إلى الأبد ـ أيها الشباب ـ المهانة والمذلّة التي تستقبلنا في كل صباح وتمسي معنا في كل مساء بسبب ما تقوم به الصهيونية من أعمال مهينة مذلّة تجرح كرامة الحجر الأصم وتستثير حمية الجماد الذي لا حياة فيه. سيزول إلى غير رجعة أيها الطلبة، أيها الشباب الأعزاء، هذا الوضع الشائن من التجزئة والفرقة والنزاع، وكل ما يأتي به من ضعف وتخلّف وفساد وتردّ مادي ومعنوي، وستحل محل كل ذلك الوحدة والقوة والاستقرار والتقدم والنهضة والفضيلة والإنسانية الصحيحة، وسيحصل الجميع على الخير والكرامة، وسيعمل الجميع من أجل خير الأمة وخير العالم. أليس ذلك هدفاً نبيلاً جديراً أن نسعى إلى تحقيقه ومطمحاً عالياً يستحق أن نعمل من أجله؟ إنكم أيها الشباب في المقدمة، وعلى رأس مسيرة الوعي القومي، فدونكم هذه المهمة العظيمة فأدّوها، وإليكم هذا الواجب الوطني فنفّذوه، فإنكم إن آمنتم بالوحدة قلباً ولساناً، قولاً وعملاً، فإن جميع شرائح المجتمع ستكون كذلك، لأنكم اليوم طلاب، وغداً في جميع مجالات الحياة والعمل، وسيأتي غيركم إلى

مقاعد الدراسة. إن أمتكم تدعوكم بعالي الصوت، فلبّوا النداء.

— ٨٢ —

وقال السائل المستوضح الكريم محقاً: **أما وأنك خاطبت الطلاب، ألا يجدر أن تخاطب معلميهم وأساتذتهم؟** قلت: نعم، فالمعلمون والأساتذة فئة مهمة جداً في المجتمع، فهم الذين يربّون ويعلمون وينقلون المعرفة من جيل إلى جيل، وعلى أيديهم ينشأ الجيل الجديد. إليكم أتوجه يا من ورد ذكرهم معظماً في أحاديث الرسول الكريم، وتغنّى بدورهم الشعراء. إنكم المربون والمعلمون، وعليكم تعتمد الأمة في نقل أحاسيسها وأمانيها إلى الجيل الناشىء الفتي الذي نعوّل عليه في كل شيء. إنكم تعرفون التاريخ العربي وتاريخ العالم وتعرفون ما نحن فيه في الوقت الحاضر وتلمسون لمس اليد ما فعلته التجزئة بوطننا وما ألحقته بنا من مذلّة ومهانة ونكبات، وتعرفون أيضاً أن الوحدة هي أساس قوتنا ومنبع تقدمنا ونقطة البداية في نهضتنا، وهي وسيلتنا للقضاء على الخطر الصهيوني وتحرير بلادنا من هذا الخطر الداهم. إنكم الذين تعرفون كل ذلك لا يمكن أن تصبروا على ضيم ولا أن تتأخروا في تأدية واجب. إن واجبكم هو الدعوة ونشر الفكرة وغرس الإيمان في قلوب طلابكم من الروضة إلى الجامعة بوحدة الأمة وضرورة تحقيقها والعمل بكل الوسائل لتحقيقها وتحمّل التضحيات مهما كانت في سبيلها. إنكم تستطيعون بثّ الوعي القومي في طلابكم

وايقاظ ضمائرهم وتنوير عقولهم وتبصيرهم بفداحة ما نحن فيه وعظمة ما يمكن أن نكون عليه في ظل الوحدة. إليكم أيّها المناضلون المجاهدون نتجه لتأدية هذه الرسالة السامية، وإنجاز هذا الواجب العظيم، وهو أن يكون هذا الهدف نصب أعينكم صباحَ مساء. إن نشر الوعي هو رسالتكم وهو واجبكم المقدس الذي يُرضي الله والضمير، وهو الوطنية الحقة والإخلاص للمبادئ. إليكم أيّها المناضلون أتوجه، ونحوكم أستدير، داعياً وحاثّاً، طالباً ومذكّراً ان الدعوة إلى الوحدة هي الحق وتنوير طلابكم هو العبادة، وإن كنتم تريدون رضى الأمة وحب الشعب وبركة الأجيال القادمة فدونكم هذا الواجب، واجب الدعوة والتبشير بوحدة الأمة، وحدة الوطن وقيام الدولة العربية الجديدة على أنقاض الوضع الراهن الذي أورثنا الضعف والنكبات والتخلف وجلب لنا خطر الصهيونية وأقام كيانها في قلب وطننا. أيها المعلمون، أيها الأساتذة، ان طلبتكم هم جيل المستقبل، فعلّموهم الفضيلة واغرسوا فيهم المبادىء السامية وأرشدوهم إلى طريق الصواب، اغرسوا فيهم أنهم أحفاد الأجيال العظيمة السالفة وورثة الحضارات الزاهية وأبناء الأبطال الذين هدموا الطغيان في ربوع العالم وأقاموا في مكانه العدل. قولوا لهم كلمة الحق: أنا عربي، وابذروا فيهم بذور الثورة على هذا الواقع الذي لا يقرّه الله ولا ترضاه المبادىء ولا ينسجم مع التاريخ ولا يتلاءم مع التقدم والرقي. إنني أدعوكم أن تعملوا وأن تناضلوا وأن تبذلوا أقصى

جهودكم لتكوين ثقافة جديدة للجيل الجديد تقوم على الإيمان بالوحدة والنضال من أجل المبادىء السامية، والعمل من أجل مصلحة المجموع.

إنكم أيها المربّون تعرفون تماماً الفرق بين الوضع الحالي الذي نعيش فيه جميعنا، بما فيهم أنتم وبين وضع الوحدة الذي سنكون عليه بعون الله، حيث تضمّنا دولة واحدة ذات سيادة تزول في داخلها جميع الحدود والقيود ويسترجع الإنسان حريته في السفر والتنقل والعيش والإقامة والعمل وممارسة المهنة. وبذلك يستطيع الفرد فيكم أن ينتقل إلى العمل في القطر الذي يرغب فيه فيذهب إلى حيث توجد الحاجة إلى خدماته، وإذا لم يعجبه الحال يستطيع أن ينتقل إلى مكان آخر. إنكم تعرفون أن تحقيق الوحدة سيكون المحرّك لنهضة عميقة في شتى الميادين تستخدم فيها موارد الأمة وتصب فيها إمكاناتها، وستكون النهضة العلمية والتوسع في التعليم بشتى مراحله من أهم ما يطبع تلك النهضة، إذ لا مكان للأمية في الدولة العربية الجديدة ولا مكان للتخلف العلمي في الوضع العربي الجديد، بل سيشهد الوطن توسّعاً هائلاً في جميع ميادين التعليم، وسيكون لكم بذلك الدور الأساس فتتحسن أحوالكم من جميع الوجوه المادية والمعنوية، وتحتل مهنتكم المكان اللائق بهذه المهنة النبيلة السامية وستنالون التقدير الذي تستحقونه. إن جميع نواحي حياتكم سينالها التطور، والتقدم والرفاهية التي ستخلقه التنمية، سيكون لكم فيه نصيب كبير

يتناسب مع الرسالة التي تقومون بتأديتها، وسيزول الحيف عن هذه المهنة الشريفة العالية المقام بين المهن.

أيّها المعلمون المجاهدون الشرفاء، إن تحقيق وحدة الأمة سيجلب لكم العز والمجد ورضى الله وراحة الضمير، إذ لا شيء يفوق أن يزول عن الإنسان كابوس ما نحن فيه من وضع فاسد مهين. إن حياة العز والشرف لا يعادلها شيء في الحياة، فإلى حياة أفضل أدعوكم، حياة خصبة شريفة يتحقق فيها العيش الكريم والرفاهية المادية والسمو المعنوي، فيشعر الإنسان أنه بالفعل إنسان له مكانة تحت الشمس وشرف مصان وكرامة محفوظة وقيم عليا محترمة. إن هذه الرفاهية المادية والمعنوية لا يحققها غير التنمية القومية، ولا توجد إلا في مجتمع الوحدة، فدونكم هذا المبتغى النبيل الشريف، فالفرصة سانحة أمامكم والطريق واضح، وما عليكم إلا أن تدخلوا المعترك بإيمان وصبر واستعداد للتضحية، والنتيجة أكيدة مضمونة، فردوس في الدنيا وفردوس في الآخرة. وكل كلمة حق تنطقونها مع طلبتكم تنقلكم خطوة إلى الأمام في هذا السبيل. اغرسوا في الشباب الشعور القومي وعلّموهم الوحدة العربية، ووجهوهم في طريق الفضيلة والخلق الكريم ونوّروا عقولهم بالمبادىء والمثل العليا، وبشروهم بالمجتمع العربي الجديد، مجتمع التوحيد والعدالة والرفاهية والتقدم وخدمة الإنسانية والتعاون النزيه مع جميع الأمم، فذلك هو الطريق القويم السليم. لتكن كلمة السر التي تنقلونها أينما

كنتم من الوطن العربي: الوحدة للوطن العربي الكبير.

أيّها المعلمون في أرجاء الوطن العربي الكبير، انكم تتولون المهمة النبيلة المهمة، مهمة تربية الجيل من بداية التعليم وحتى الجامعة. إنكم أقرب الفئات الى مشاعر الأمة وأكثرها مسؤولية في التوجيه والتوعية، فالأمة العربية تعتمد عليكم في نشر الوعي القومي وتربية الجيل الجديد على الخلق الكريم والوطنية الحق وحب الشعب والدفاع عن الوطن. إنكم اليوم ترون أكثر من غيركم ما تلحقه التجزئة بأمتنا من أضرار وما تتعرض له من أخطار، وتدركون المهانة والظلم الواقع عليها، وتشاهدون في كل يوم عربدة الصهيونية واحتلالها الأرض العربية واضطهادها شعب فلسطين وما تقوم بتنفيذه من خطط للتوسع. أنتم المطّلعون على تاريخ أمتنا والملمّون بتاريخ الأمم الناهضة، تقع عليكم أكثر من غيركم مهمة التوعية وبناء تفكير الجيل الناشىء على مبادىء القومية وحب الوطن والدفاع عن الكرامة والعمل الجاد لتحقيق التقدم والنهضة.

أيها المعلمون، أينما كنتم في الوطن العربي، اغرسوا في الجيل الجديد الوعي القومي والتعلق بوحدة الوطن العربي وروح الجهاد والمقاومة للاستعمار والصهيونية والاستعداد للتضحية من أجل نهوض الأمة. إنكم تعلمون تماماً أن وطننا عندما يكون موحّداً عزيزاً قوياً فإن القوة والعزة والنهضة ستعم الجميع بالخير والرفاهية، وأنكم ستكونون الفيلق المجاهد الذي يلقن الجيل المبادىء

السامية ويقوِّم لسان الطلبة فيجعله عربياً مبيناً في الأقطار التي ينقصها التعريب، وستعلّمون طلابكم ان يكونوا مواطنين صالحين مدافعين عن مبادىء الوحدة والنهضة والتقدم ومقاومين أشداء للصهيونية والتخلف. إن الوحدة العربية كهدف سياسي تحتاج أول ما تحتاج إلى تفكير وحدوي، ونقطة البداية في ذلك هي المدرسة التي تتولون ادارتها والتعليم فيها. إن أمتنا ستكون مطمئنة على مستقبلها إذا كان معلموها مؤمنين بالوحدة وعاملين من أجل تحقيقها في مجال نشاطهم. ألا يبعث فيكم الغبطة والرضى والسعادة اللامتناهية أن تروا أبناء أمتكم من الجيل الجديد ينشأون على مبدأ الوحدة إيماناً وعملاً؟ كم هو شعور الاعتزاز وراحة الضمير وتأدية الواجب الذي يعتريكم عندما ترون هذه الأمة المجزّأة تتحد في دولة عزيزة قوية بهذا الحجم وهذه الإمكانات؟ أمامكم سعادة لا حدّ لها عندما تتحد أمتنا وتتغلب على مصاعبها وتأخذ طريقها في النهضة والتقدم والقوة. إنه تغيير حاسم في تاريخ الأمة وحتى تاريخ العالم. ألا تطمحون أن تكونوا مسهمين فيه؟ ألا يهمّكم ويحرّك مشاعركم أن يجري هذا العمل الجبّار على أيديكم؟

أيّها المعلمون الشرفاء حيثما تكونوا في الوطن العربي من أصغر روضة إلى أكبر جامعة، اغرسوا صباحَ مساءَ في نفوس طلابكم حب الوحدة والتعلق بها والتضحية في سبيلها، وسيكون جزاؤكم المجد والرفاهية والسعادة. ليكن هذا الهدف النبيل

حاضراً أمامكم في كل كلمة تعلمونها طلابكم وفي كل حرف تخطونه على اللوح. إن أمتنا يجب أن تتحد، وعليكم تقع مهمة إنشاء جيل وحدوي جديد. إنكم أهل لهذه المهمة، وقادرون عليها، ولا عذر لمن يتخلّف.

— ٨٣ —

وهنا استوقفني السائل المستوضح الكريم طالباً المزيد مما يمكن أن يساعد المعلم في تأدية هذا الواجب. قلت: نعم، إنك على حق، فقد يكون المعلم راغباً في تأدية الواجب، إلا أنه قد لا يعرف كيف يقوم بذلك. وقد أجبته إلى ذلك الطلب، فقلت: إذا توفرت الإرادة هان كل شيء، فإني افترض أن الإرادة متوفرة عند المعلم للقيام بهذا الواجب، فإذا كان الأمر كذلك، فما يتبقى أمره ليس عسيراً. إنك ربما تعلم أيها السائل المستوضح الكريم أن تاريخنا الحديث قد شهد عهوداً كان الاتجاه القومي فيها قويّاً في بعض الأقطار العربية، وانعكس ذلك في مناهج التعليم، كما أنك تعرف أن عدداً من المربين والعاملين في مجال التربية قد قام بجهود جيدة في التأليف في هذا الاتجاه. إن هذا التراث يجب ألاّ يضيع، بل علينا الاستفادة منه وهو موجود لمن يريد أن يستفيد منه.

إليك أيها **المعلم الجليل** أتوجه وأقول: ليكن همّك أن

تمزج كل ما تعمله وتقوله لطلابك بذرات من إيمانك القومي، ولتكن المادة التي تقدمها في عملك مشبعة بفكرة الوحدة العربية، توقظ الوعي القومي وتنبّه الشعور القومي، تخاطب الشعور النائم، وتنبّه الوجدان المستكين، فتقول للطالب بشتى الوسائل وبمختلف الأساليب إننا أمة عربية واحدة كانت كذلك ويجب أن تبقى كذلك عن طريق الوحدة وبناء الكيان الجديد. وذلك يجب أن يكون بعبارات بسيطة ولغة مفهومة خالية من التعقيد وألفاظ النظريات. هكذا وبكل سهولة ويسر تقول للطالب: إننا عرب وعلينا أن نتحد للدفاع عن وجودنا وحفظ كرامتنا وتراثنا، وأن نبني دولة جديدة موحّدة تحقق للجميع التقدم والاستقرار يزول فيها الفقر والجهل والمرض، وتتحقق السعادة والكرامة للجميع. ولا يهم ماذا يكون الموضوع الذي تقوم بتعليمه، فأنت تستطيع أن تبلغ هذه الرسالة البسيطة الواضحة التي كلها حق وعدل وفضيلة من خلال المواضيع، علمية أكانت أم أدبية. فإن كنت تدرّس اللغة العربية فاحرص على أن تدرّسها كما ينبغي ليتقدم بها اللسان وتحبها النفس وتعتز بها الشخصية. اغرس في طلبتك إنها لغة القرآن الكريم، غنية جميلة مشرقة، اختارها العزيز الجليل لتبليغ آخر رسالاته، فيها من القوة والبلاغة والدقة والعراقة ما يستحق الإعجاب ويتطلب منّا اتقانها والحرص والعناية للحفاظ عليها. وإن كنت تدرّس التاريخ فدونك تلك الثروة الهائلة والأمجاد العتيدة والحضارات المتتابعة حيث برزت أمتنا فاعلة حية قوية إنسانية

قدّمت إلى البشرية ما يبعث على الاعتزاز ويستحق التمجيد. والتاريخ العربي تاريخ مشرف، وعلينا عندما نقوم بتدريسه أن ننقل ذلك إلى طلبتنا. التاريخ العربي تاريخ في حقيقته، تاريخ أمة وليس تاريخ أقطار، وهو في ثوابته متجه نحو الرقي والتقدم، وعلينا ونحن نقوم بمهمة التدريس أن نحرص على ألاّ نعطي الحوادث العابرة أو التفاصيل المتغيرة الأهمية نفسها التي نعطيها للاتجاهات العامة. كما تقضي الموضوعية أن ننقي التاريخ من الأخبار الدخيلة التي تفتقر إلى الأدلة العقلية على صحتها. ومن الأهمية بمكان أيضاً أن نحترس من الدسّ والتشويه المقصود الذي ورد في كتابات من يدعون بالمستشرقين من الغربيين الذين غالباً ما تأثرت كتاباتهم بالأغراض السياسية والمواقف المتعصبة المسبقة. إن كتابة التاريخ وتدريسه يجب أن تكون بهدف قومي ألا وهو تقوية الروح المعنوية للجيل الجديد.

وحتى عندما ندرّس العلوم الطبيعية علينا أن نعطي الحضارة العربية بمختلف عصورها حقّها، فنوضح إسهاماتها مما يساعد الطالب على المعرفة الصحيحة بتاريخ العلوم ودور أمته فيها. إن دراسة الجغرافيا مهما كانت، وحيثما اتجهت، يجب أن تؤدي في النهاية إلى فهم واضح لدى الطالب ان الوطن العربي وحدة جغرافية واحدة متكاملة الموارد الطبيعية. وبعبارة أخرى، إن الإرادة عندما تتوفر في المعلّم فإنه لن يعدم الوسيلة للتعبير عنها.

إنك تعرف أيها السائل المستوضح الكريم أن الكتّاب والمثقفين عموماً يسهمون إسهاماً كبيراً في تكوين ثقافة المجتمع عن طريق ما يؤلفون وينشرون، وما يصدر عنهم في مجالات الثقافة وقنواتها الأخرى. الكتّاب في كل مجتمع هم من قادته في مجال تكوين الرأي العام وبناء الثقافة العامة، فهم مؤلفو الكتب وكتّاب الصحافة والمتحدثون في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، وهم المحاضرون والمناقشون في الندوات والمجالس. كل ذلك يصل إلى أذهان الجماهير وينقل لها مادة ثقافية وآراء وأخباراً ومعلومات، وكلها مجتمعة تسهم إلى حد بعيد في تكوين الثقافة العامة، لذلك فمن الطبيعي والمنتظر أن أتوجّه إليهم في هذا النداء.

إنكم **أيّها المثقفون والكتّاب والمؤلفون** تنتجون الزاد الفكري الذي يتغذى عليه أفراد الشعب، لذلك فالتوجيه الذي يصدر عنكم له الأثر الفعال في توجيه الأمة في طريق الصواب أو في طريق الخطأ. إنكم تعيشون في صميم ما تعيشه أمتنا اليوم وتشعرون بنبض ضميرها، فأنتم في مقدمة صفوفها في الوعي والمعرفة بالتاريخ والاطلاع على حضارتها. إنني لا أشك في أنكم تتألمون لما نحن فيه من ضعف وتخلّف، وتتوقون إلى أن يحل وضع القوة والعزة والكرامة والتقدم في مكانه. إليكم أتجه وأخاطب أن تدخلوا المعترك وتشمّروا عن سواعدكم وأن تصبّوا

جهودكم في خدمة قضية الشعب والأمة، قضية الوحدة العربية الشاملة. إنكم تستطيعون أن تتصوروا مظالم الواقع وفساده وأن تشرحوا للجماهير تفاصيل هذا الواقع وتفتحوا العيون على ما يخفى على الناس. إنكم قادرون عل أن توضحوا لجماهير الشعب طريق الخلاص وأن تنقلوا له وقائع التاريخ العربي المجيد والحضارات المزدهرة التي قامت في بلادنا وأن ترسموا له معالم الطريق ألا وهو الوحدة وبناء المجتمع العربي الجديد. إنكم أيها المثقفون والكتّاب مدعوون إلى أن تبثوا في ما تكتبون وتنشرون كل ما يستثير الوعي القومي وما يبني الثقافة الجديدة ويزيل الثقافة المتخلفة المترشحة من الواقع الذي نعيش فيه. إنها الرسالة التي تتحملون تأديتها وهي الواجب الذي ترتب على عاتقكم عندما ارتضيتم في حياتكم منهج الثقافة والكتابة والتأليف. إن كلمة الحق هي الواجب الذي عليكم تأديته بكل أمانة، ولا أظنكم إلا مؤدّين إياها على أحسن وجه. إنكم تعرفون قبل غيركم ان الكلمة ليست مهنة بقدر ما هي رسالة، وأن الكتابة ليست حرفة بقدر ما هي تأدية واجب، والرسالة المجيدة والواجب المقدس اليوم هو نقل الأمة مما هي فيه إلى ما يجب أن تكون عليه، ألا وهو الوحدة الشاملة. وأنتم أصحاب الحس المرهف والقرب من المعرفة الذين تتولون نقل كلمة الحق من أفكاركم وتأملاتكم ونتائج بحوثكم إلى تفكير المتلقين من أبناء الشعب، عليكم يقع هذا الواجب المقدس، واجب النضال الثقافي في سبيل بناء المجتمع الجديد.

إنكم الآن تعيشون في أوضاع يكتنفها الكثير مما لا يرضي ولا يسر، فأنتم تخوضون في خضم أوضاع الأمة، فالفقر، والحاجة تلف الكثير منكم، شأنكم شأن طبقات الشعب الأخرى. ومساوىء الدولة القطرية التي يرزح تحت وطأتها الشعب يصيبكم منها الشيء الكثير، فاليوم لا يستطيع أحدكم أن يسافر لحضور مؤتمر في هذا القطر ولا يستطيع ذلك غداً، وأحدكم لا يستطيع أن ينشر في هذا القطر ولا يستطيع في قطر آخر، وهكذا تفعل الحدود والقيود والتقلبات السياسية والاضطهاد وعدم الاستقرار. وأنت أيها الكاتب يراد منك أن تقول كذا ولا تستطيع أن تقول كذا.

وإزاء ذلك، وكما ترى أيها السائل المستوضح الكريم، لا بد من أن ينهض الكتّاب بواجبهم، فيطلقوا الكلمة المخلصة النزيهة بوجه التضليل، وأن تتضافر جهودهم في جميع أنحاء الوطن الكبير من أجل ثقافة قومية تدعو إلى الوحدة وتغرس مفاهيم العزة والكرامة وتمجّد التاريخ العربي المشرق وتبشّر بالأخلاق الحميدة، وتدعو إلى المُثُل العليا السامية وتغرس الإيمان بالأمة وقدراتها وضرورة توحيدها وتحررها وحمايتها من الأخطار في نفوس أبناء الشعب بجميع وسائل الكتابة والنشر. إنكم بذلك تمهدون لدنيا جديدة تعمّكم خيراتها وتلفكم بالحرية، فتعظم مكانتكم وتحتلون المركز اللائق بمقامكم رواداً للثقافة الجديدة، وتتحررون من الحاجة والاضطهاد، ويتحقق لكم العيش الرغيد الشريف وجميع وسائل النشر والطباعة، ويصبح مجموع الوطن

ساحة عملكم من دون حدود، تسافرون إلى القطر الذي ترغبون، وتقيمون في القطر الذي يحلو لكم. موضوعكم كل الوطن العربي وكل الأمة العربية، ومادتكم النهضة والتقدم، وهدفكم الوحدة، ومثلكم الأعلى المبادىء لا المصالح. حياتكم غنية مثمرة، وجهادكم يؤتي ثماره، وأمانيكم تتحقق أمام أعينكم وتنالون بذلك عز الدنيا وثواب الآخرة، وتكونون بحق قد أدّيتم الأمانة واتبعتم طريق الحق والفضيلة. أيها المناضلون بقوة الكلمة حيثما تكونون في الوطن العربي وخارجه، يا مَنْ تحسّون بالانتماء إلى الأمة العربية وتتوقون إلى يوم خلاصها، ويسوؤكم ما هي فيه الآن، إنكم مدعوون إلى مهمة لا يفوقها في النبل مهمة، ألا وهي الدعوة إلى الوحدة العربية بثبات، ولتكن كلمة الحق هذه هي رائدكم وهي حافز عملكم ومحور حياتكم، تعيشون وتموتون من أجلها وفي سبيلها، وبذلك ترضون الله وتريحون ضمائركم وتخدمون أمتكم وتنصرون الحق والعدل والفضيلة. إليكم تتوجه الأمة لتسهموا في عملية خلاصها ولتكونوا من المناضلين في معركة تحررها من قيود التجزئة والذل والتخلّف الذي يلفّها اليوم. إليكم أتوجّه بهذا النداء الحار الصادق الصادر من الوجدان، مخاطباً ضمائركم وميول الخير في نفوسكم أن تكنسوا إلى سلة المهملات ثقافة التجزئة، وأن تنسجوا خيوط ثقافة جديدة في عقول الجيل والرأي العام، تدفع جماهير الشعب إلى العمل والنضال من أجل بناء الدولة العربية الجديدة على أعمدة الفضيلة والتقدم والمثل العليا وكل ما

هو خير وعدل. إنكم بذلك ستحققون السعادة الحقيقية ألا وهي الشعور بجدوى الحياة والشعور بتأدية الواجب والشعور براحة الضمير، وبذلك يكون لعملكم معنى ولحياتكم سمو يملأ النفس غبطة وحبوراً. واعلموا أن عذاب الدنيا هو تأنيب الضمير وراحة الدنيا هو رضى النفس عن صاحبها. إن غاية ما يجب أن يكون هدف كل منا هو أن يشعر بالأهمية وأن يكون لحياته معنى ولوجوده هدف سام، ولا يتحقق ذلك إلا عندما يتجه الواحد منا نحو السماء ليرفع أمته من حضيض ما هي عليه الآن إلى فردوس ما تحنّ إليه ألا وهو الوحدة والتقدم والنهضة والعزة والشرف والعيش الكريم.

— ٨٥ —

إننا أيها السائل المستوضح الكريم نتحدث في **موضوع الثقافة**، وهو موضوع يتطلب التمعّن في بعض جوانبه المهمة. وأول هذه الجوانب هو أنني أود أن أنقل إليك أن الثقافة بنظري تختلف في مفهومها عما عند بعضهم، فالثقافة كما أراها تتضمن أمرين مهمين هما **الاستيعاب والتأثير**. والمقصود بالاستيعاب هو فهم الموضوع الذي هو قيد البحث، أما التأثير فهو أن ما يستوعبه الذهن يؤثر في السلوك. إننا عندما نقول إن نقطة البداية في العمل هي التفكير، بمعنى أن الإنسان يفكّر أولاً، أو بعبارة أخرى يقتنع أولاً، ثم يعمل بناء على ذلك الاقتناع أو يدافع عنه. اننا عندما نقول

ذلك نعني أن الثقافة لا تعني مجرد الاقتناع، أي التوقف عند حد الاستيعاب الذهني للموضوع، بل ان ذلك الاقتناع عندما يؤثر في الشخصية إلى الحد الذي يدفعها إلى العمل حسب مقتضيات تلك القناعة تكون العملية الثقافية قد اكتملت. نعم ان الثقافة عملية تجري في الإنسان، بمعنى أنه يتلقى ويستوعب ويفهم أولاً، ويتأثر سلوكه وتصرفه بما تلقى واستوعب ثانياً. إنها عملية ذات شقين. وبالطبع إننا نقول بشقين، ولا نعني ان الشقين مفصولان عن بعضهما البعض، بل نقول ذلك من أجل الإيضاح، إذ غالباً ما تتداخل العمليتان، والمهم في ذلك هو تأكيد أن عملية الاستيعاب تكون مؤثرة في السلوك والتصرف العملي. إن ذلك يحدث عندما تكون الأفكار المنقولة قوية صادقة تستثير القبول، وعندما تكون النفس المتلقية مستعدة ومهيّأة يرتبط فيها الفكر بمجمل السلوك وتحريك الإرادة. تلك هي الصفات العامة الرئيسية لعملية الثقافة الحق. وأملي ألاّ يغيب عنك أيها السائل المستوضح الكريم الهدف الذي من أجله أسوق هذا الشرح، وهو بعبارة بسيطة تنبيه إلى أن للثقافة هدفاً هو تغيير الحياة عن طريق تغيير سلوك الإنسان مقابل ما قد يتبادر إلى ذهن بعضهم، أو ما نشاهده أحياناً من عمل يدّعي الثقافة وهو في حقيقته عبث، إذ ليس كل ما يوضع تحت عنوان الثقافة يؤثر في سلوك المتلقين.

الأمر المهم الآخر الذي لا يفوتني أن أتعرّض له في هذا المجال هو ذلك العمل الواسع النطاق الذي تبذله مؤسسات دول

الاستعمار وعلى رأسها الصهيونية للتأثير فينا عن طريق الثقافة. إن هذا العمل الواسع النطاق الذي جنّدت له إمكانات كبيرة يعمل بأساليب مغلّفة وطرق ملتوية لاحتلال نفوسنا. والمسألة المركزية في كل ذلك هي إضعاف الروح القومية، أي إضعاف التوجه إلى الذات والالتحاق بهم فكرياً. واعلم أيّها السائل المستوضح الكريم أن هذا العمل الواسع النطاق متصل بالزمن ومتشعب في القنوات من الإعلام اليومي إلى ما يسمى بالبحث العلمي. والهدف هو أن يغرسوا في الفرد منّا التبعية للغرب والتخلي عن القومية العربية. فإذا ما حصل ذلك فستتبعه جميع النتائج المتعلقة به في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية من قبول الوجود الصهيوني إلى الإقبال على نمط الحياة الغربية، وبذلك يتم من داخل النفس التخلي عن الذات وتلاشي الشعور بأننا عرب، لنا قومية خاصة وشخصية مستقلة. إنك أيّها السائل المستوضح الكريم ربّما تعلم أن انحياز الإعلام الغربي وعدم موضوعيته قد انكشف الآن، وأن هذا الأمر أصبح من المسلّمات بعد أن توفّرت الأدلة الكافية عليه، فإن كان لديك أدنى شك بذلك فإني مستعد أن أقدّم لك الأدلة. واعلم أيها السائل المستوضح الكريم أن عدم الموضوعية والانحياز الى الغرض المسبق لا تقتصر على الإعلام الغربي بل هي موجودة أيضاً في جهده العلمي الذي يقدمه لنا لاسيما في مجال العلوم الاجتماعية، وعلى وجه التحديد في الكثير مما يسمى بكتابات الاستشراق. ولا يسعني في هذا المجال إلا أن أشيد

بجهود كثيرة قام بها بعض مثقفينا وكتّابنا في فضح الميل المنحاز والغرض المسبق المبثوث في الكثير من مؤلفات أهل الاستشراق.

ويتضح الغرض السياسي الاستعماري في الثقافة الغربية الموجهة إلى العرب في الأحكام التي يطلقها الكتّاب الغربيون على الحضارة العربية والتاريخ العربي وعلى العقل العربي والشخصية العربية الموحية بالتدني واحتقار الذات والعقم وعدم القدرة على الخلق والإبداع، وبالسعي بشتى الوسائل الملتوية إلى ادخال القناعة عندنا بتلك الأحكام التي تلبس لباس البحث العلمي وهي ليست كذلك. والغرض من ذلك هو زعزعة الثقة بالنفس والغزو من الداخل.

فيا أيها السائل المستوضح الكريم، انك تعلم أنه حتى في ظل الأوضاع غير المتكافئة التي نعيشها الآن فالعربي قادر على أن يصل في البحث والإبداع والسيطرة على العلوم الحديثة إلى ما وصل إليه الغربيون ويتفوق عليهم، والشواهد على ذلك كثيرة في داخل الوطن العربي وفي أبنائه الذين هاجروا إلى بلدان الغرب. هذا في الحاضر، أما أمر الماضي فمعروف لك أين كان الغرب وأين كان العرب في أوج الحضارة العربية الإسلامية. ترى مَنْ هم الذين برعوا في جميع العلوم وألّفوا وبحثوا وأناروا الدنيا ونالوا إعجاب العالم وأصبحوا مركز الإشعاع فيه، ألَمْ يكونوا أبناء هذه الأمة التي يحاول الغربيون الآن التشكيك بقدراتهم؟

ثم أين ثقافتنا من ثقافتهم في أهم ما في الحياة ألا وهو المبادىء الأخلاقية؟ لقد أعطت أمتنا للعالم الأديان السماوية. لقد خرجت أمتنا الى العالم فأحلّت العدل والهداية في البلدان التي دخلتها، فأدخلت إليها الإسلام ولم تأخذ منها شيئاً. أما الغرب فقد خرج أيضاً إلى العالم، وأنت والدنيا كلها تعرف ماذا قدّم الغرب؛ إنه الاستعمار المباشر ثم غير المباشر. إنه الغرب الذي لم يستطع الدين أن يحد من نزعته الظالمة، ولم يكن بمقدور النظريات والمبادىء التي يروّجها أن تخفف من غلوائه والأنانية المتمكّنة منه.

وعلى نقيض ذلك أيها السائل المستوضح الكريم فإننا نحن العرب في أسوأ أوضاعنا الحاضرة، تتجه عواطف جماهيرنا نحو الخير والمبادىء، فنقف مع المظلومين في العالم ونؤيد حركات التحرر أينما تكون، ونناصر العدل واستقلال الشعوب، ونقارع الظلم. فإن كانت وسائلنا ضعيفة فذلك لا يغيّر من الأمر شيئاً، إذ المهم هو أن إرادتنا الحقيقية مع المبادىء وليس مع المصالح كما هو الحال في الغرب. كما أننا لم نعدم حالات أقدم فيها قطر عربي بمجرد ما تهيأت له الوسيلة المادية على مساعدة الآخرين من فقراء العالم، وكان بذلك وبالمقياس النسبي متقدماً على الدول الغربية الغنية التي لا تعطي إلا لغرض مسبق وبالقدر الذي تقتضيه مصلحة تحقيق ذلك الغرض.

إن ثقافتنا أيها السائل المستوضح الكريم أعلى منزلة وأغنى

روحاً لأنها ملتصقة بالمبادىء ومتجهة صوب السماء، تهدف إلى سعادة الإنسان وتقصد الخير والتقدم والعدالة بعكس ثقافتهم الملتصقة بطين المصالح الأنانية المصوبة في اتجاه الظلم. إن نفوسنا أنقى من نفوسهم وأرواحنا أطهر من أرواحهم، وضمائرنا حيّة، ومقاصدنا نزيهة، ورغباتنا مشروعة. أما ضمائرهم فقد أماتها الجشع الدنيء، ورغباتهم شريرة بعيدة عن القانون والشرع. أقول ذلك عن الغرب ولا أقصد عدم وجود أفراد فيه يتصفون بغير هذه الصفات، فذلك موجود إلا أن الاتجاه العام هو كما وصفت.

— ٨٦ —

ولكني، أيها السائل المستوضح الكريم، لا يفوتني في هذا المقام أن أنوّه أن في صفوف من ندعوهم بالكتّاب هناك فئة خاصة هي أهل الأدب، وأعني بهم **الشعراء والأدباء**. إن الأدب جزء من الثقافة ولكنه جزء ذو أهمية خاصة بنظري. فالعلم والأدب والفن كلها وسائل لمعرفة الحقيقة، إلا أنها وسائل مختلفة في الطريقة، فالإنسان قد يحاول الوصول إلى الحقيقة عن طريق التجربة المختبرية، وقد يحاول ذلك عن طريق العقل الصرف، وقد يستطيع ذلك عن طريق التأمل والإلهام... إلخ. إن الأدب، شعراً ونثراً، والفن بمختلف أشكاله ووسائله يخاطب الوجدان وينفذ إلى صميم النفوس، وينقل الفكرة بأسلوب خاص يمتزج بالجمال وأحاسيس

النفس والتفاعل بينها وبين الطبيعة. لذلك كان بإمكان الأدب والفن أن يؤثرا في الشعب تأثيراً عميقاً يهزّ الوجدان ويستثير النفوس. إنكم أيّها الشعراء وأيها الأدباء وأيها الفنانون يقع عليكم اليوم واجب يمكن أن تؤدوه على أحسن ما يرام، وهو واجب أن تخوضوا مع جماهير الأمة وجميع فئاتها معركة الوحدة ومعركة بثّ الشعور القومي. إنكم أصحاب الكلمة الرقيقة واللوحة الموحية والقصيدة النافذة في أعماق النفس، تخاطبون الوجدان وتتوجهون إلى الشعور وتمسون أعماق الإنسان، وبذلك تستطيعون غرس الاتجاه الجديد والميل الجديد والحب الجديد. أمامكم أمجاد الأمة وسفر ماضيها المجيد، وبين أيديكم زاد غني ومادة لا تنضب لصياغة الروائع في كل مجال، تحفر في نفس القارىء والسامع والناظر الحسَّ الجديد والإيمان بضرورة الوحدة والتوق إليها والعمل من أجل تحقيقها. فالأمة في وضع الوحدة والتقدم والنهضة معين لا ينضب للمعاني السامية، ومصدر غني بصور الجمال، تستطيعون أن تغرفوا منها وأن تنهلوا من معينها أعمالاً أدبية وفنية، وأن تكون موحياً ممتازاً لإنتاج يغني حياتكم وحياة الأجيال القادمة. إن حالة النهضة هي حالة التقدم في جميع نواحي الحياة ومنها الحياة الأدبية والشعرية والفنية، فالأدب والشعر والفن لا تزدهر من دون ذلك الجو الايجابي الذي يغمره التفاؤل والثقة بالنفس والاتصال الحي بالماضي والتطلع إلى المستقبل. إنكم الآن تعانون الوضع الذي تعيشه الأمة، ولكن بدرجة أقسى وبألم

أشد لأنكم أرهب إحساساً بالواقع. إن حياة الألم والإحباط ستنتهي بزوال هذا الوضع وبدء مرحلة النهضة عندما تحل حياة الوحدة محل حياة التجزئة. إنكم الآن تكابدون من قيود الحاضر وتعانون ألم الإحباط الذي يسبّبه مجمل الأوضاع التي تعيشها أمتنا اليوم. أمامكم أيّها الأدباء والشعراء والفنانون المجال الفسيح للإسهام في النضال الواسع الذي علينا جميعاً أن نخوضه من أجل الخلاص بتوحيد وطننا وجمع شمل أمتنا ووضعها في المكان الذي يليق بها بين الأمم وشق طريق التقدم أمامها. إنكم تعرفون كل ذلك، إن لم يكن عن طريق العقل الصرف فعن طريق الإحساس أو عن الطريقين معاً. إنني أسمع قصائدكم في مناسبات النضال وأقرأ بعض إنتاجكم الأدبي وأتمعن في ما ترسمون وتنحتون وتبنون فأجد أن الروح موجودة وأنكم تحسون بالواجب، فهل لي أن أدعوكم إلى أن تخرجوا من الهمس إلى أن يرتفع صوتكم عالياً، وأن ينتظم جمعكم حيثما تكونون في أجزاء الوطن العربي، لتدخلوا مرة واحدة وبكامل قواكم وبأعلى أصواتكم مرحلة الدعوة إلى الوحدة ومرحلة النضال من أجل أن تحقق القومية العربية أهدافها كاملة في بناء المجتمع الجديد؟

إنكم تجتمعون هنا وهناك في أقطار الوطن العربي، ولكم منظمات في كل قطر واتحادات عربية وأنتم في كل ذلك توّاقون إلى التعبير عن هذا الواجب. إنكم في ظل الوحدة ستكونون أفضل حالاً وأعلى شأناً وأكثر حرية وأكثر وسائل ممّا أنتم عليه الآن،

حيث سيزدهر الأدب ويسترجع الشعر مكانته السامية التي عرفت في حياة العرب القديمة وتتقدم الفنون وتشاد لها الصروح وتتفتّح براعم الإبداع مع تقدم المجتمع والنهضة التي سيشهدها. ستزول عنكم حياة البؤس والفقر التي تلف الكثير منكم وسيصبح الأدب والشعر والفن مجالاً واسعاً لأصحاب المواهب تتحقق فيه لهم حياة حرة كريمة مرفهة متحررة من الحاجة والحرمان، بذلك يستطيع الأديب والشاعر والفنان أن ينصرف إلى الخلق والإبداع بحرية. إنكم أيّها الشعراء وأيّها الأدباء وأيّها الفنانون مدعوون إلى الإسهام في عمل جليل يوفّر لكم حياة العز والكرامة ويمنحكم الشرف الرفيع الذي تطمحون إليه ألا وهو خدمة المثل العليا والمبادىء السامية. وهل هناك ما يفوق توحيد أمتنا كمثل أعلى ومبدأ سامٍ في هذا الوقت بالذات؟ إن ضمير الأمة النابض يدعوكم إلى هذه المهمة ويحثّكم على دخول المرحلة الجديدة التي ستكون أغنى مرحلة في حياتكم لأنها ستكون حافلة بالعمل المثمر وخدمة المبادىء والدفاع عن مثل الأمة وحياتها الجديدة. هل هناك ما هو أعز على نفوسكم من التغنّي بأمجاد الأمة والدعوة إلى وحدتها وغرس الروح الوطنية والشعور القومي في نفوس أبنائها؟ إنكم ستدخلون دنيا أرحب، وستنفتح أمامكم آفاق الإبداع لأن موضوعكم سيكون الأمة وليس القطر، وإلهامكم سيكون تاريخ الأمة وليس تاريخ القطر، والنهضة الجديدة المصاحبة للوحدة والناتجة منها ستكون التربة الخصبة للإبداع والتجديد وستكون

الحياة الجديدة حياة عزّ وكرامة وعدالة وتقدم. وكل ذلك لمصلحة الإنسان، وبذلك ستنطلق مواهبكم مع روح التفاؤل الايجابية والفرح الذي سيغمر المجتمع. إنها دنيا الإبداع بالنسبة إليكم يزدهر فيها الأدب ويتجدد الشعر ويرقى منازل أرفع وتتقدم الفنون. إنكم ستكونون الرابحين من دون شك من كل ذلك، إذ ليس أهم للأديب أو الشاعر أو الفنان من أن تتاح له الفرصة لتحقيق مواهبه واطلاق إمكاناته في الخلق والإبداع. ليس ذلك فحسب، بل حتى أحوالكم المعاشية ومنزلتكم الأدبية ستكون أفضل وأعلى في دولة الوحدة. إنني لا أذكر ذلك كثمن لما ستقومون به، فأنتم مرآة الأمة الحساسة واستجابتكم للواجب يدفعها الى الإخلاص والوطنية الحقة والتعلق بالمبادىء. إنكم مدعوون إلى عمل كلّه خير وبركة للوطن والأمة.

ـ ٨٧ ـ

ثم التفتّ إلى السائل المستوضح الكريم مخاطباً إيّاه: ألا ترى معي أن هذه المخاطبة ضرورية؟ قال: نعم، هي كذلك. وبما أنك تتحدث عن المخاطبة لفئات الشعب فلا أظنك متوقفاً عند من ذكرتهم حتى الآن، فهناك فئات أخرى لا بد من أن يتوجه إليها الخطاب أيضاً. **فماذا عن العسكريين من جنود وضباط؟** قلت: نعم، إنها فئة مهمة جداً من فئات مجتمعنا. لهذه الفئة ـ كما تعلم ـ منزلة خاصة، فالعسكريون قطاع من الشعب معني بالدرجة

الأساس بالدفاع عن أرض الوطن وحمايته من الأخطار، لذلك فهم أكثر الناس شعوراً بضرورة الوحدة وما تجلبه من قوة للأمة تدرأ عنها الأخطار الخارجية والداخلية. فمن أكثر من العسكريين معرفة بخطر الكيان الصهيوني وفداحة العدوان الاستعماري بجميع أشكاله والأخطار التي أتى بها على مجموع الأقطار العربية. أيها الضباط الشجعان في عموم الوطن العربي إنكم تتذكرون حروب الأمة وتعرفون أن النكسات التي أصابتها ما كانت لتحدث لولا حالة الفرقة والتجزئة والانقسام بين الأقطار العربية والاختلافات السياسية بين الأنظمة الموجودة التي خلقتها التجزئة. إنكم تعرفون تماماً أننا في حرب ١٩٤٨ مع العدو الصهيوني قد خسرنا المعركة لأننا كنا منقسمين وغير موحّدين، تخضع أنظمتنا لنفوذ الدول الاستعمارية. وتعلمون حق العلم أن الكيان الصهيوني لم يكن بمقدوره أن يقوى ويتوسع لو لم نكن مقسمين ضعفاء، وأن جميع الاعتداءات التي حصلت من دول الاستعمار علينا لم تكن ممكنة الحصول لولا وضع التجزئة. إنكم كنتم دوماً تتمنون لو كانت البلدان العربية متحدة، وكان لها جيش واحد مسلح بأحدث الأسلحة جيد التدريب له قيادة موحّدة، وبذلك يستطيع هذا الجيش أن يدافع عن كيان الأمة ويصون حقوقها ويدفع عنها الاعتداء ويحفظ وحدة ترابها الوطني ويحقق الاستقرار الداخلي ويقضي على جميع الحركات الانفصالية التي خلقها ويغذيها الاستعمار. إن ذلك هو أمنية كل ضابط عربي غيور ورغبته التي

طالما تمنى أن تتجقق ولم تتحقق حتى الآن. إنكم تعلمون علم اليقين أننا ما كان يمكن أن نخسر أية معركة مع الصهيونية أو دول الاستعمار لو كان هذا الهدف متحققاً، وأنتم تعلمون تماماً أن دماء أريقت وإمكانات هدرت وكرامة أهينت بسبب هذا الوضع الشاذ، وضع التجزئة والانقسام. إنكم المدافعون عن شرف الأمة وتراثها المجيد وعن سلامة أبنائها، لذلك فأنتم اليوم وغداً مدعوون إلى هذه الدعوة، دعوة التوحيد والتلاحم، بدلاً من التجزئة والتناحر. إنكم أيّها الضباط والقادة في مقدمة الصفوف من أجل هذا الواجب القومي المقدس.

ثم أنتم أيّها الجنود المقاتلون الذين تكوّنون اليد الضاربة في القوات المسلحة العربية، يا مَنْ أتيتم من صميم الشعب وجماهيره الكادحة في الريف والمدينة وتلبسون بذلة الجندية دفاعاً عن الوطن والشعب، إنكم اليوم أكثر من أي يوم مضى مدعوون إلى أن تكونوا في الصفوف الأمامية الداعية إلى التوحيد. إنكم من صميم الجماهير التي لا مصلحة لها إطلاقاً في وضع التجزئة، التي كانت دوماً وحدوية بالفطرة وبصورة طبيعية عفوية. إنكم الآن تكتسبون صفة إضافية هي الجندية، والجندية تعني الدفاع عن الوطن وحماية الأمة من الأخطار. إنكم بالمنطق البسيط وبالمعلومات العامة المتيسرة تستطيعون أن تستوعبوا أهمية الوحدة العربية في حماية الوطن من الأخطار. إنكم تعرفون أن التجزئة هي أساس الاختلاف والتفرقة وهي بالتالي سبب الضعف

الذي نحن فيه الآن. فلو كنا موحّدين في دولة واحدة لما كان كل الذي كان. إن وحدة الأمة العربية هي في صميم أهدافكم، ومن صلب واجبكم، لأنكم في ظل الوحدة الوطنية سيكون بإمكانكم الدفاع عن الوطن حقاً وحماية الشعب بصورة فعّالة. إنها القوة ووحدة القيادة والتخطيط والتسليح والتدريب والروح المعنوية والقتالية العالية ووقوف الشعب بكامل قواه وراء القوات المسلحة. إنها هذه المزايا التي تحققها الوحدة، ما يمكنكم من تأدية واجبكم على أكمل وجه، وهي التي بواسطتها تستطيعون تحقيق النصر في كل معركة تدخلونها.

أيها الجنود البواسل، يا مَنْ ضحّيتم في كل معركة وقدّمتم الشهداء والتضحيات في معارك الأمة، عندما تتحقق الوحدة ستكون الدولة الجديدة دولة قوية متماسكة تحميها قوات مسلحة واحدة عالية التدريب والتسليح موحّدة القيادة، يقف وراءها شعب متماسك واقتصاد قوي وحالة نهوض في جميع الميادين، وعندها ستتضاءل مطامع الطامعين وتذوب حركات الانفصال وينحسر الخطر الصهيوني وتحل مشكلته إلى الأبد بطرده خارج الوطن، وبذلك تتجنب البلاد الحروب وتحفظ الدماء ويتحقق السلام وتقفون أنتم مرفوعي الهامات يغمركم العز والفخار والمجد، تؤدون واجبكم بشرف وراحة ضمير. واعلموا أيها الجنود البواسل أن ويلات الحروب وسفك الدماء سببها الحقيقي هو حالة الضعف التي تغري الطامعين وتشجّع أصحاب المصالح على رفع رؤوسهم

ضد الأمة، وتستقطب أصحاب النوايا العدوانية للاعتداء على حقوق البلاد. أمّا حالة القوة فهي التي تبني السلام وتحقق الاستقرار وتتجنب مآسي الحروب.

أيها العسكريون من ضباط وجنود في عموم الوطن العربي، ان الدعوة إلى الوحدة وبثّ الشعور القومي هي دعوتكم أولاً وقبل كل شيء. فوحدة الأمة يجب أن تعنيكم قبل غيركم، فقد كنتم دوماً في مقدمة الصفوف في تبنّيها والدفاع عنها وحملها إلى الآخرين. لتكن إرادتكم موحّدة وصفوفكم مرصوصة بشعور واحد وبكلمة واحدة هي الوحدة أولاً وأخيراً.

— ٨٨ —

أيّها الكَسَبة، يا مَنْ تكسبون رزقكم من عملكم في المهن التي تعملون فيها، في الدكاكين والأعمال المشابهة كافة. إنكم فئة واسعة في الوطن العربي حيث تحتل الأعمال الصغيرة والحرف بمختلف أنواعها مكاناً واسعاً في رقعة الاقتصاد الوطني. إنكم جماهير كادحة منتجة لبضائع وخدمات واسعة العدد وبذلك تشكلون فئة شعبية كبيرة. إنكم كغيركم من فئات الشعب معنيون بما يحصل في بلادنا وما يجابهها من أخطار. إن حياتكم مليئة بالمصاعب والمعوقات، فالحدود تقف في وجوهكم، تعيقكم عن التوسع والسفر والتبادل التجاري، وتعانون كما يعاني غيركم في ظل وضع التجزئة بكل ما ينطوي عليه من معوقات تشد عجلة

التنمية إلى الخلف. إنكم أبناء هذه الأمة يهمّكم ما يهمها ويسعدكم ما يسعدها. الوحدة ستكون القوة المحرّكة لعجلة التنمية والدفاع لحصول النهضة الشاملة، وبذلك سيخلق وضع اقتصادي جديد تماماً تزدهر فيه مهنكم وتتطور أعمالكم وسينفتح المجال واسعاً أمامكم لإدخال وسائل الإنتاج الحديثة والطرق الجديدة في العمل وستجنون كغيركم ثمار ذلك التقدم، وستعم عليكم الرفاهية. إن مصلحتكم الحق هي مع الوحدة وحياتكم الجديدة متعلقة بها، فدونكم هذه الفرصة الذهبية لتسهموا في هذا الحدث العظيم الذي ينتظرنا جميعاً، ولتكن لكم فيه حصة الإسهام وشرف الاشتراك لتكونوا بحق أبناء هذه الأمة وأفراداً صالحين من أفرادها. إنكم لا تحتاجون إلى الدليل على أن التجزئة جرّت الويلات على وطننا وكانت علّة تخلفنا والسبب الرئيسي لكل ما أصابنا من نكبات، وهي التي خلقت الأخطار التي نواجهها اليوم. إنكم كمواطنين تتوقون من دون شك إلى التعبير للأحسن وبناء مستقبل مشرق لبلادكم، ولا يحقق ذلك غير الوحدة في كيان واحد يتحقق في ظله التقدم والاستقرار والقوة. فإنتم كمواطنين لكم حصة ولكم دور في نهضة الوطن وعليكم واجب الإسهام في تلك النهضة. وأنتم كأصحاب مهن تعيشون منها لكم مصلحة أكيدة في إحداث ذلك التغيير الجوهري من التجزئة إلى الوحدة، ومصلحتكم هذه مصلحة مشروعة لأنها منسجمة مع مصلحة الأمة ومتفرعة عنها. فما أحسن أن يجد الإنسان نفسه في مثل هذا

الوضع يعمل لنفسه ولمجتمعه في الوقت نفسه. إنكم مطالبون أن تسهموا بالجهد الوطني العام لبثّ الوعي القومي وتبصير الآخرين بأهمية الوحدة وضرورة تحقيقها. إن ذلك يتطلب منكم كل ما تستطيعون عمله باليد أو باللسان أو حتى بالقلب كأضعف الإيمان. وعليكم ألاّ تقللوا أهمية دوركم فالكلمة التي تصدر من أحدكم: نعم للوحدة، أنا مع الوحدة ولا التجزئة، ان النطق بذلك بحد ذاته مفيد. لتكن الوحدة مطلباً جماهيرياً على كل لسان، يؤيدها الجميع وينطق بها الجميع ويطالب بها الجميع في الليل والنهار، في السرّ والعلانية. أنت يا صاحب الدكّان والمحل، إرفع في دكانك أو محلك صورةً أو قولاً أو بيتاً من الشعر أو رمزاً يؤيد الوحدة مهما كان، يعلم من خلالها من يتعامل معك أنك في هذا الاتجاه وضمن هذه المسيرة، وإن سألك عن ذلك أو فتح معك الموضوع لأي سبب فقل له وحدّثه عن ضرورة الوحدة والنعمة التي ستعم علينا بسببها. حدّثه بما تعرف ومن صميم القلب وبكلمات بسيطة مفعمة بالإخلاص والصدق، فلا يتركك إلا وقد أخذ منك شحنة إيمان بهذا الهدف القومي النبيل. تحدَّث ولا تسكت بما تعرف وأقدم ولا تتردد فالحق جدير بأن يذكر. إنك قد تكون عطّاراً أو بقّالاً أو نجّاراً أو حدّاداً أو بنّاءً أو صاحب أية حرفة أو أية مهنة مهما كانت، عليك واجب كما هو على غيرك ألا وهو واجب المواطنة وشرف الانتماء إلى هذا الوطن العظيم وهذه الأمة المجيدة. إنك ترى وتعرف تماماً ما تسببه التجزئة من نكبات وما

تجرّه من ويلات، وتعرف أن الوحدة قوة، والقوة تجلب العز وتحفظ الكرامة. بمثل هذه الكلمات البسيطة الواضحة وبما هو بمعناها تحدَّث مع الآخرين، ولا يهم كيف تتحدث، وماذا تقول، بل المهم أن يكون معنى ما تقول مؤيداً ومدافعاً عن الوحدة. إنكم يا أصحاب الحرف والمهن والأعمال المشابهة ستنفتح أمامكم دنيا واسعة في ظل الوحدة ولا تعودون محاصرين في نطاق الحدود الضيقة، فستكون أرض الله واسعة أمام من يضيق به العيش في هذا المكان أو ذاك، فيشد الرِحال إلى مكان آخر أرحب، وسيكون بإمكان من لا يرغب العيش في هذا القطر أن يختار قطراً آخر أكثر ملاءمة، وهكذا تتوسع الحرية وتتعدد مجالات الاختيار. إنكم وجميع الآخرين بمن فيهم أنا المتحدث مع السائل المستوضح الكريم نحب الحرية ونكره القيود.

— ٨٩ —

وبعد الانتهاء من هذه الكلمات، توجّه إليّ السائل المستوضح الكريم بسؤال يريد عنه الجواب، فقال: **أتظن أن الموظفين في أجهزة الدولة في عموم الوطن العربي لهم مصلحة في الوحدة؟** قلت له من دون تردد: نعم، من دون شك. الموظفون أيها السائل المستوضح الكريم من أبناء الشعب والوحدة خير وبركة لعموم أبناء الشعب. ولماذا تسأل هذا السؤال بهذه الصيغة؟ إن الموظفين بدرجاتهم كافة وبمختلف فئاتهم العاملين

في أجهزة الدولة في الأقطار العربية هم الآن وبصورة عامة في وضع غير جيد من جميع الوجوه، فرواتبهم نسبياً منخفضة وفرص التدريب والتطور المهني أمامهم محدودة، وأوضاعهم المعنوية ليست على ما يرام. إنهم متضررون من الوضع الاقتصادي الراكد ويعانون كل أزمة اقتصادية تمر بالبلاد. فمستوى دخلهم لا يتماشى مع ارتفاع الأسعار ومعها ارتفاع كلفة المعيشة. وإذا ما استثنينا بعض الموظفين الكبار المنتفعين في الأقطار النفطية الخليجية المارة الذكر فإن الباقين ليست لهم مصلحة في بقاء التجزئة. وعلى كل حال فالمواطن العربي مهما كانت الفئة التي ينتمي إليها فهو في النهاية إنسان ومواطن، والإنسان السوي لا يعدم الضمير قط، فهو مهما كان وضعه الاجتماعي والمادي لا يمكن أن يفضل وضع الضعف والمهانة وتسلط الأجنبي وعدم الاستقرار واضطراب الأوضاع على وضع القوة والاستقرار والتقدم.
إنكم أيها الموظفون، وأنتم أيها المتقاعدون المدنيون والعسكريون أبناء هذه الأمة، بعضكم قد خدم وبعضكم لا يزال يخدم في الإدارة ومختلف أجهزة الدولة، بعضكم فني، وبعضكم إداري، وإنكم جميعاً قد نلتم قسطاً جيداً من الثقافة والاطلاع على الشؤون العامة، وقد أتيحت لكم فرصة التعرف الى مشاكل الدولة ومشاكل الشعب من خلال الخدمة العامة، أما المتقاعدون العسكريون فيعرفون أكثر من غيرهم ما جرّته التجزئة من نكبات على الأمة، ويدركون أكثر من غيرهم أخطار الصهيونية ودور الاستعمار

وحركات عملاء الاستعمار في الداخل. إنكم جميعاً تدركون بالبصيرة البسيطة والفهم العام، إضافة إلى الثقافة والخبرة العملية ان حالة التجزئة هي العلّة الكبرى، وهي أم الأمراض ومنبع النكبات والمآسي وسبب الضعف الذي جرّ علينا ما جرّه من عدوان واحتلال واضطهاد وتعرّض للأخطار. إنكم كمواطنين لا يمكن أن تقروا ذلك ولا أن ترضوه، ففي أعماقكم كمواطنين صوت الحق وفي نفوسكم أخلاق الشهامة والغيرة على الوطن وكرامة الشعب. إنكم مدعوون إلى تلبية النداء مع بقية فئات الشعب وطبقاته: نداء العمل بكل الطاقة المتيسرة من أجل أن تعم فكرة الوحدة وأن تنتشر كمطلب شعبي عام. إنكم تعلمون أن أحوالكم ستكون أفضل وسترتفع منزلتكم وتعلو مكانتكم عندما تكونون في خدمة دولة عظيمة قوية تمتد من المحيط إلى الخليج، تعيش في ظلها أمة عريقة كالأمة العربية وتتلاطم فيها أمواج التقدم والازدهار وتعم الرفاهية الجميع. إن ضمائركم لا تقول إلا ذلك وعقولكم لا ترى غير ذلك، فمزايا الوحدة مقارنة بالتجزئة واضحة كالشمس في رابعة النهار، كما يقال، وليس أسهل على الإنسان الاعتيادي من أن يرى ذلك بوضوح. إنها حقيقة واضحة للعيان ورغبة تمسّ شغاف القلب، فهي هدف الأمة والكلمة التي ينبض بها الضمير، فما أحراكم أن تكونوا معها وتعملون من أجلها. إنني أتوجّه إليكم أن تكونوا في هذه المسيرة العظيمة التي سيكون لها الظفر في نهاية المطاف فتبيض وجوهكم وتكتسبون شرف الإسهام في هذا

الإنجاز التاريخي. إنني واثق أنكم لن تتأخروا أبداً.

ـ ٩٠ ـ

إنك تعلم أيها السائل المستوضح الكريم ان لرجال الإعلام منزلة مهمة في هذا الوقت الذي أصبح فيه الإعلام سلاحاً فعّالاً في توجيه الرأي العام والتمهيد لتنفيذ سياسات الدول. **فيا أيّها العاملون في الإعلام المقروء والمسموع والمرئي،** إنكم تعرفون تماماً خطورة الإعلام الاستعماري الصهيوني الموجّه ضد أمتنا لا سيما ضد القومية والوحدة العربية. إن الثقافة التي يسعى هذا الإعلام المغرض الشرير إلى نشرها بيننا تهدف إلى التشكيك بأننا أمة واحدة وترسيخ النزعة القطرية وإخضاع الإنسان العربي للأمر الواقع بقبول وجود الكيان الصهيوني والنفوذ الاستعماري وجملة الأوضاع الراهنة بكل عيوبها، وتعرفون الطرق الخبيثة التي يجري بها تزيين ذلك بمفاهيم مزيّفة عن الشرعية والحداثة والتقدم على الطريقة الغربية. إن هذه الثقافة المنحرفة الضارة لا بد من أن تقابل بثقافة صحيحة معاكسة ترسخ في الفرد العربي الثقة بالنفس والإيمان بالانتماء إلى الأمة وحتمية وحدتها ونهضتها والمقاومة الجذرية للوجود الصهيوني والنفوذ الاستعماري ولكل أوضاع التخلّف والاضطهاد والاستغلال التي ترزح في قيودها أمتنا اليوم. إنكم تملكون سلاحاً فعّالاً في حملة المقاومة هذه وفي أيديكم وسيلة مهمة لبناء الثقافة الجديدة، ثقافة الايمان بالوحدة والقوة

والاستقرار والتقدم ومقاومة الاستعمار والصهيونية والتخلف. والوطنية الحق تقضي أن تحسنوا استخدام هذا السلاح وتجيدوا استعمال الوسيلة التي بأيديكم، وبذلك تؤدون رسالة سامية هي في أعناقكم. والمطلوب منكم ليس ان تؤمنوا بالوحدة كمواطنين بل العملُ من أجلها كأصحاب رسالة وكصف متقدم في مسيرة الثورة القومية. إن كل كلمة تكتبونها وكل سطر تقرأونه من الاذاعة وكل لقطة تخرجونها على الشاشة يجب أن توحي بشكل أو بآخر بالتوجه نحو الوحدة فيدب الشعور القومي في نفوس القارىء والسامع والمشاهد، فيترسخ إيمانه ويزداد وعيه وتقوى عزيمته وتتصلب إرادته من أجل نهضة الأمة العربية ووحدتها. إن الثقافة السهلة الواضحة اللغة الغنية المضمون المخاطبة للعقل والوجدان المذكرة بالتاريخ المجيد التي ترسم صورة المستقبل وتوضح معالم الطريق هي ما نحتاجه اليوم، فالإنسان كما تعلمون يتحرك عندما تحصل في داخله القناعة. والفرد العربي اليوم في حالة حركة، وواجبنا جميعاً أن نحث خطى هذه الحركة، وأنتم يا مَنْ تعملون في مجال الإعلام قادرون من دون شك على الإسهام النشيط في تدوير عجلة النهضة. حرِّكوا العقول لتتحرك النفوس، وكوِّنوا القناعة الجديدة ليتغير الواقع من حال إلى حال أفضل. إنني أدعوكم إلى أشرف مهمة وأنبل رسالة ألا وهي الإسهام في تكوين الإنسان العربي الجديد، الإنسان المؤمن بالوحدة والعامل من أجل تحقيقها. إنكم ـ يا رجال الإعلام ـ تستطيعون أن تغرسوا الثقة

بالنفس وتغرسوا الأخلاق الحميدة وتبثوا الوعي القومي وتشرحوا مزايا الوحدة وتبصّروا بالأخطار الناجمة عن وضع التجزئة، وأن تضربوا الأمثال وتناقشوا الأفكار الضارة والثقافة الاستعمارية والمفاهيم الاستسلامية وترسموا صورة المستقبل المشرق العظيم في ظل الوحدة الشاملة وتدعوا إلى المقاومة، وتغرسوا روح الثبات وتقديم التضحيات والصبر، وتمجدوا الشعب وترفعوا الروح المعنوية، وتؤكدوا العمل والإنتاج والتنمية والعدالة الاجتماعية. وبعبارة أخرى، إنكم قادرون على تكوين ثقافة جديدة تتماشى مع الأهداف الوطنية في وجه ثقافة الاستعمار والواقع المتخلف.

— ٩١ —

وأنتم يا رجال الدين، يا مَنْ تستظلون في حياتكم في ظل خالق الأكوان، إنكم - كما هو حال غيركم من المواطنين - مدعوون إلى الإسهام بهذا الجهاد العظيم من أجل أن تتحد أمتنا في كيان واحد. إنكم تعلمون ان الوحدة مثل أعلى ينقل المجتمع من حال إلى حال أعلى منزلة في سلم التقدم والنهضة. والدين كان دوماً في خدمة الإنسان وقد رفعه إلى منزلة أعلى مما كان يعيش فيه. إنكم تعرفون تماماً أن القومية العربية تتمسك بالخلق الكريم وترسّخ الايمان بالله وبالمثل العليا. إن رجال الدين من المسلمين يعرفون ان الإسلام قد وحّد العرب وحرّر الجزيرة العربية وأقام دولة موحّدة على أنقاض الانقسام القبلي والخضوع للأجنبي.

ويعرفون اليوم أن وحدة الأمة العربية ونهضتها ستكون قوة للإسلام ومنعة للمسلمين وتحريراً لديار المسلمين من الاحتلال الصهيوني ونفوذ الاستعمار، وان مجتمع الوحدة القادم سيكون مجتمعاً للفضيلة والخلق الكريم والعدالة الاجتماعية، وذلك أفضل ما يمكن أن يهيأ من رعاية للدين. إنكم تعلمون أن عزّ الإسلام كان من عزّ العرب، ونهضة الأمة ونهضة الإسلام كانا أمراً واحداً، وأنتم من دون شك تتوقون أن تروا ديار الإسلام مصانة وحياتكم حرّة وبلادكم موحّدة عزيزة قوية، وأن تروا الصهيونية تندحر إلى الأبد، ونفوذ الاستعمار ينحسر إلى غير رجعة، وأن تلمسوا العدل والفضيلة تعمّ بين الناس. إن الله قد اختار العرب واختار بلادهم مقراً ومركزاً للرسالات السماوية ولم يكن ذلك محض مصادفة، ولا أمراً من دون قصد، بل على العكس تماماً فقد كانوا المؤهلين لحمل تلك الرسالة وقد بلّغوها على أحسن وجه وتحمّلوا من أجل ذلك التضحيات. واليوم حيث تقف الأمة العربية على أبواب نهضة جديدة، فأنتم أول من يقع عليهم الواجب في الإسهام في هذا الجهاد العظيم. إنكم من دون أدنى شك عندما تدعون إلى وحدة الأمة العربية ترضون الله وتخدمون رسالته وتبلغون كلمته عندما تبذلون الجهد من أجل ذلك بكل ما لديكم من إمكانية، تنسجمون مع الطريق الذي اخترتموه لحياتكم، طريق الهداية والصلاح. إن تحرير أرض العرب وتوحيدها جهاد في سبيل الله، فدونكم هذا الثواب العظيم من الله ورضى الناس وخدمة الحق. لقد مجّد الله

العرب وأسبغ عليهم النعمة وحرّرهم من العبودية والظلم، وجعل الجهاد واجباً على المسلمين وأنتم في مقدمة من يعرف واجبات الله.

ـ ٩٢ ـ

وبالطبع أيها السائل المستوضح الكريم ـ **لن تكون المخاطبة تامة من دون التوجّه إلى النساء.** بالرغم من أن المرأة موجودة في جميع الفئات والطبقات في المجتمع إلا أنها تحتل منزلة خاصة، فهي الأم والزوجة والأخت والقريبة. والمرأة في مجتمعنا يمكن أن تؤدي دوراً مهماً في النهوض القومي لأنها تسهم إلى حد بعيد في عملية التربية للجيل الناشىء. إنك **أيتها الأم** أقرب الناس إلى المولود الجديد الذي يترعرع بين يديك طفلاً فصبياً فيافعاً ثم شاباً، وهو قريب إليك كرجل إن كان زوجاً أو كان أخاً. فإليك نتوجه، ونحن نقف اليوم في هذا المعترك حيث تتصدى أمتنا لصنع غدها الجديد، غد الوحدة والتقدم والاستقرار والقوة. وبمقدار ما تكونين فاعلة ومؤثرة وساعية من أجل ذلك تكون عملية التحول أيسر وأسرع. إنك أيتها العربية الفاضلة لم تكوني مقصّرة أبداً، فقد عانيتِ وقدّمتِ التضحيات الغالية في سبيل الوطن، وأنت اليوم مدعوة باسم المبادىء وباسم الوطنية إلى أن تخوضي غمار هذا الجهاد في سبيل الوحدة. إنك قادرة من دون شك على بثّ الوعي القومي عند الناشئين وتقوية ايمانهم

بأمتهم وثقتهم بأنفسهم، وأن تعلّميهم منذ الصغر حب الوطن وحب الشعب والتعلق بالأمة وخدمة أهدافها القومية وتقديم التضحيات من أجل ذلك. إن الصغير الذي ينشأ في أحضانك يستجيب لندائك المغمّس بالحنان والعطف والرعاية، فما يتعلمه منك كالنقش في الحجر يبقى معه طوال حياته. **أيتها الأم، وأيتها الزوجة، وأيتها الأخت، وأيتها المرأة** مهما كانت منزلتك في العائلة، إنكن مواطنات وأعضاء في هذا المجتمع الذي يتأهب للوحدة والنهضة، ومن يملك القدرة على الإسهام فيه أن يمد يده ويسهم في تأدية الواجب، وأنتن اليوم قديرات على ذلك.

إنني أعرف أن المرأة لا تزال دون المنزلة التي يجب أن تحتلها في المجتمع، فما زال بعض حقوقها منقوصاً، وما زالت النظرة العامة اليها بحاجة إلى تقويم، وأن منظمات النساء الموجودة في الوطن العربي معنية بذلك، ولكن ذلك يجب أن يكون عامل دفع وتحفيز للإسهام في عملية النهضة بالدعوة إلى الوحدة العربية، لا العكس. إنني على يقين أن المجتمع العربي الجديد الذي سيشهد نهوضاً في جميع المجالات ستكون المرأة فيه أعلى مكاناً مما هي عليه الآن، وأنها ستنال الحقوق المنقوصة الآن، وأنها ستتمتع بالقيمة والتقدير اللائقين بها، لذلك فإنني أدعو جماهير النساء العربيات إلى عمل تتحقق فيه مصلحة الأمة ومصلحة المرأة في الوقت ذاته. إن التجزئة مقرونة بالتخلف الاجتماعي الذي انتقص من حقوق المرأة وستكون الوحدة فاتحة

مرحلة النهوض والمحفز لها، وعندها سيزول إلى غير رجعة ذلك الانتقاص من حقوق المرأة.

المرأة مخلوق حساس مرهف وفيها تتجلى عاطفة التعلق ويتجلى الاستعداد للتضحية، لذلك كانت دوماً شديدة الالتصاق بأرض الوطن والتعلّق بالأمة. إنها اليوم وهي التي تملك هذه الصفات مدعوة إلى مهمة التوعية القومية وغرس الروح الوطنية عند الجيل الجديد وتنشئته على الخلق القويم ومبادىء العدل والحق والثقة بالنفس وضرورة توحيد الأمة والدفاع عن أرض الوطن. إن غرس المبادىء القومية في الجيل الناشىء مهمة مقدسة ورسالة سامية، للمرأة دور مهم فيها وهو الواجب الذي لن تتأخر عن تأديته. أقول ذلك لأنني أعرف أن المرأة العربية كانت دوماً مجاهدة، فقد كان لها شأن في الإسلام، وأعلم أنها مؤمنة بالله ومتمسكة بدينها وتراث أمتها، وأعرف أنها حريصة على أن ترى أبناءها يعيشون في أمن واستقرار، وأن يبقى وطنها محمياً مصاناً من الاعتداء، فقد تعلمت من أهوال الزمن الرديء أن لا شيء يعادل الوطن وسلامته ولا ما يعوض عن الأمان والكرامة، وهي تدرك ببصيرتها الثاقبة ان الأمان والكرامة وسلامة الوطن لا تتحقق إلا بوحدة الأمة التي هي مفتاح طرد الأجنبي المحتل والتخلص من نفوذ الاستعمار وتحقيق النهضة وبسط السلام وتحقيق العيش الكريم. لذلك فإني على يقين أن بصيرتها النافذة وإحساسها المرهف ونزعة الخير المستقرة في أعماق نفسها تجعلها تدخل غمار هذه المهمة السامية، مهمة

التربية القومية للناشئين وإرضاعهم بمبادىء الوحدة، وإليك أيتها الأم والزوجة والأخت والقريبة، أتوجه بهذا النداء، وأملي وطيد أنك ستكونين الملبية قولاً وعملاً.

ـ ٩٣ ـ

وإلى هنا وجدت السائل المستوضح الكريم وقد توقف عن السؤال، وسادت لحظات صمت بيننا، فقطعتها، وقلت مستفهماً: ما لنا لا نتكلم؟ فهل من سؤال جديد؟ فخرج السائل المستوضح الكريم عن صمته وقال: إنه لم يعد يجد في ذهنه الآن مزيداً على ما صدر منه من أسئلة. إلا أنه استدرك وأشار إلى أن ذلك لا يعني نهاية ذلك الحوار، فما زالت الحياة مستمرة، لذلك فالتفكير أيضاً مستمر، وأننا في وقت آخر وتحت ظروف أخرى قد نجد ما نسأل عنه، فوافقته على ذلك.

إذن ليكن ذلك هو الجولة الأولى تاركين ما سيتبعها للقادم من الوقت. وقلت موضحاً: إذن هكذا أيها السائل المستوضح الكريم كانت أسئلتك، وهكذا كانت أجوبتي. إنني أعرف أن في حديثنا شيئاً من التكرار أحياناً، وبعض التشتت أحياناً أخرى، واعلم أن الذي يفحص ما قلناه بهدف التنسيق والترتيب قد يجد ما يعمله في هذا المجال. وبعبارة أخرى، تستطيع صناعة الكتابة عن طريق الترتيب والتوضيب أن تحدث بعض التغيير وربما بعض الايجاز في كل ذلك. إلا أننا إن عملنا ذلك نكون قد أضعنا شيئاً من العفوية

والصفة الطبيعية التي تطبع كلامنا لصالح الترتيب والصناعة. إننا أيها السائل المستوضح الكريم عندما نتكلم، سؤالاً منك وجواباً مني، لا نقوم بذلك بالترتيب والتنظيم الذي تقتضيه صناعة الكلام. إذن فإما مزايا الصناعة وإما مزايا العفوية. ومهما يكن، فإنني فضّلت العفوية التي أجد أنها على كل ما بها لا تخلو من المزايا.

والآن وقد تشعب بيننا الحديث ودبّت الراحة في النفوس المتقابلة، وازداد التفاهم وقراءة الأفكار، أثار السائل المستوضح الكريم سؤالاً مهماً، وإن كان بسيطاً في جوهره. قال السائل المستوضح الكريم: إنك كقومي تؤمن بالوحدة العربية وتحررها واستقلالها التام، **فماذا تقول عن القضية الفلسطينية؟** ومن أجل ألاّ يذهب الحديث إلى ما لا أقصده، أردت بالسؤال عن رأيك بالحديث الذي يجري منذ مدة، وربما بعض القرارات التي تبنّتها الجامعة العربية وما أصبح تقريباً موقفاً رسمياً للعديد من البلدان العربية إزاء حل القضية الفلسطينية؟ قلت له: إن سؤالك في مكانه، وإن كنت قد تعرضت لذلك عرضاً في أثناء حديثنا السابق، إلا أن مثل هذه القضية الجوهرية تحتاج إلى اهتمام خاص، وإلى جواب محدد خاص.

إنني أيها السائل المستوضح الكريم أقف من هذه القضية موقفاً بسيطاً جوهرياً، هو الإيمان التام بتحرير كل فلسطين بكامل ترابها الوطني وبلا قيد ولا شرط وإرجاعها عربية وجزءًا لا يتجزأ من الوطن العربي، تماماً كما هو الحال بالنسبة إلى أي قطر عربي

آخر. أما إذا ذهب بك الحديث وسألت عن الأسباب والمبررات فليس عندي إلا أن أقول إنها أرض عربية منذ الأزل، كانت وستبقى كذلك وهي جزء لا يتجزأ من الوطن العربي، ولا أستطيع أنا ولا أي أحد في الدنيا، فلسطينياً كان أم عربياً، أن يتنازل عن أرض وطنه جزءاً أو كلاً. فالوطن لا يمكن أحد أن يتنازل عنه مهما كانت الظروف ومهما كانت ادعاءات المبررات. الوطن أزلي وباق ما بقيت الحياة وهو ملك أهله وليس ملك آخر. إنه ملك لا يباع ولا يهمل ولا يترك ولا يتنازل عنه ولا يوهب ولا يمكن أحد حتى لأهله أن يتصرفوا به أو يتنازلوا عن شبر منه إطلاقاً وبكامل ما تعنيه كلمة الاطلاق. ففلسطين هي وطن أهل فلسطين. وأهل فلسطين جزء من الأمة العربية، لذلك ففلسطين هي أرض عربية وجزء من الوطن العربي كانت وستبقى أبد الدهر، ومهما قيل ومهما حصل.

ولكنك أيها السائل المستوضح الكريم تدرك ببسيط البديهة أن ذلك مجرد مبدأ، والمبدأ لا يتضح إلا بمزيد من الشرح والإيضاح والمناقشة، وقضية مهمة كهذه تستحق ذلك.

إنني عندما أقول ان كامل أرض فلسطين هي للفلسطينيِّين وللعرب أعني بالضرورة عدم شرعية أي اقتطاع لأي جزء منها، ويعني ذلك عملياً عدم شرعية قيام ما يسمّى بدولة إسرائيل، وأن ذلك الذي حصل لم يكن إلا استعماراً وغزواً أجنبياً واعتداءً لا يمكن إلا أن يقاوم وأن يزال عاجلاً أو آجلاً، وأن يزال كاملاً وغير

منقوص. إن كامل دولة إسرائيل يجب أن تزول من الوجود وأن لا يبقى لها أي أثر في فلسطين لا الاسم ولا المادة ولا المظهر ولا أي شيء يدل عليها، تماماً كما زالت دولة الصليبيين من قبل، وأن تمحى من الخارطة تماماً. إن هذا الوجود الاستعماري الغاصب الذي قام عن طريق العدوان وضد كل القوانين ـ سواء التي وضعها الخالق أو التي وضعها الإنسان ـ يجب أن يزول وأن يمحى من الوجود وأن يزول من الذاكرة تماماً وكأنه لم يحصل.

وإذا ما سألتني عن كيفية حصول ذلك فأقول: إن نقطة البداية هي أنني الآن بكامل العقيدة الراسخة والإيمان المتمكّن من النفس أرى أن هذا الكيان يزول بالأسلوب الذي قام به وهو القوة المسلّحة. ان الجريمة التي ربما لم يعرف تاريخ البشرية مثيلاً لها في الحجم والمحتوى لا يمكن أن تزول إلا بالطريقة التي قامت بها نفسها. أما إذا أردت التعرف ـ إن لم تكن تعرفت بعد ـ على نوعية تلك النفوس التي فكرت وعملت ونفذت وقامت بهذا العمل ـ أي قيام الكيان الصهيوني ـ نعم إذا أردت التعرف، فدونك ما كتب وهو الكثير، وستجد انه ندر ما أظلمت ضمائر وتمكنت منها الرذيلة والقسوة والبعد عن المبادىء والخير كما حدث لأولئك الناس الذين قاموا بتأسيس هذا الكيان. لذلك فلا مناص من أن تطوى هذه الصفحة السوداء في تاريخ البشرية بالقضاء الكامل والنهائي على هذا الكيان، والقضاء على كل ما يمكن أن يرجع له الحياة بأي شكل من الأشكال: فللبشرية مصلحة ولمبادىء الحق

سمو ورفعة أن يقضى نهائياً وإلى الأبد على هذا الشر في العالم، ألا وهو الحركة الصهيونية.

كلا أيها السائل المستوضح الكريم، الموضوع ليس موضوع الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني بما فيه حقه في تأسيس دولته المستقلة على ترابه الوطني، كما هو دارج الآن في الأدبيات والتصريحات كموقف من القضية الفلسطينية، فذلك يعني ضمناً ـ وأغلب الظن أنه كذلك ـ السماح بوجود دولة إسرائيل إلى جانب الدولة الفلسطينية التي يطالب بها مثل هذا التصريح. ليس في فلسطين ولا في غير فلسطين أي حق ولا أي مجال لقيام أية دولة أجنبية في الوطن العربي. ففلسطين بلد عربي ولا مكان فيه لغير دولة عربية فقط، فلا مكان لإسرائيل ولا لغير إسرائيل أن يقوم على هذه الأرض العربية، فإسرائيل دولة اغتصاب، ووجود استعماري لا مكان له في الوطن العربي اطلاقاً، وواجبنا هو النضال المستمر لإزالته والقضاء عليه نهائياً ومن دون رجعة. هذا هو الموقف المبدئي الصحيح العادل، والذي يعرف غيره فَلْيدلني عليه. دولة إسرائيل يجب أن تزول وأن تمحى من الوجود، رغب في ذلك من هم فيها الآن أم لم يرغبوا، رغب في ذلك مؤيدوهم في الخارج أم لم يرغبوا، ورغبت في ذلك الدول الاستعمارية أو لم ترغب، فنحن لا نهب بلادنا ولا نتنازل عن أرضنا ولا نترك أرض آبائنا وأجدادنا لأن فئة هنا أو هناك تريد ذلك، أو أن هذه الدولة أو تلك ترغب في ذلك، أو تجد لها مصلحة في ذلك.

ولكن أيها السائل المستوضح الكريم ربما تخطر على بالك خواطر شتى مما تسمعه وما اعتدنا أن نسمعه من كلام على هذه القضية من شتى المصادر العدوة والمضللة وحتى المتعاطفة أحياناً. هناك قصة اليهود وما قام به هتلر إزاءهم، وهناك كلام الوطن القومي لليهود وما ورد في التوراة... إلخ. إن كل هذا الكلام ليس أكثر من كلام لا معنى له ولا يتعلق بنا ولا يرتب علينا أية حقوق أو مسؤولية، وهو بكل الأحوال لا يساوي شيئاً عندما يتعلق الأمر بالوطن والأرض والمصير ومستقبل الأمة. وإن كنت تريد كلام الحق ليس أمام هؤلاء إلا أن يتركوا بلادنا ويعودوا من حيث أتوا بلا قيد ولا شرط، وأن تكنس إلى الأبد خرافات التعصب الديني والمصالح الاستعمارية التي أقامت دولة إسرائيل.

إنني أيها السائل المستوضح الكريم أصبحت في هذا الموضوع أضع الأسئلة على لسانك أو أنني أتصور أنها تدور في ذهنك فأجيب عنها بدلاً من العكس. قال: نعم، وأنا لست معترضاً. قلت له: ربما سألتني هل ان ذلك موقف جديد من قبلي أم أنه كان كذلك قبل هذا الوقت؟ أيها السائل المستوضح الكريم لا بد من أن أصدقك القول إنني في داخل نفسي وخلجات ضميري كنت دوماً أرى ذلك عندما أقيس الأمور بالمبدأ البسيط وأقيّم الوضع بعيداً عن التعقيد وعندما أصغي إلى النداء الداخلي من الضمير.

لقد سمعت من بعض المسؤولين العرب الكبار كلاماً أقل من ذلك، فقد قال لي رئيس دولة من دول النفط المستسلمة لأمريكا: أليس من الأفضل المحافظة على الضفة الغربية وقطاع غزة بأي صورة كانت من أن تبتلعها إسرائيل؟ وكان يقصد بالطبع التنازل حتى عن فكرة الدولة الفلسطينية. لقد سمعت كل ذلك واعترف لك أنني لم أنفعل، وإن لم يدخل ذلك في قناعتي. وعلى كل حال إنني الآن أرى هكذا أيها السائل المستوضح الكريم. فلسطين جزء من وطني، الوطن العربي الكبير، ولن أقبل بأي شكل من الأشكال لا اليوم ولا في أي يوم من أيام حياتي الباقية أن أتنازل عن شبرٍ منها لأي أجنبي، ولن أتعايش، ولن أعترف بالكيان الصهيوني مهما كانت الظروف، ولو بقيت موجودة لألف عام؛ تلك هي قناعتي الأبدية.

إنني أيها السائل المستوضح الكريم أستطيع أن أحدثك مطولاً وبالأدلة والوقائع عن أن العدو الإسرائيلي أو الصهيونية ليس في نيتها أبداً، ولا في برنامجها اطلاقاً أي حل وسط ولا أي تنازل عن أي شبر من فلسطين، وانها قطعاً تفكر وتعمل من أجل أن تحتل أوسع ما تستطيع أن تحتله من أرض الوطن العربي، وأن هدفها النهائي الأكيد هو أن تقضي على أمتنا وأن تحتل وطننا، ليس معنوياً فقط بل مادياً، أي إزالتنا من الوجود. لذلك فقناعتي، هو أننا يجب أن نقضي على إسرائيل والحركة الصهيونية نهائياً، لسببين متلازمين هما: مبدئي ـ فلسطين بلادنا ـ وعملي هو أنهم يريدون

القضاء علينا، لذلك فالقضاء عليهم واجب وحق في الدفاع عن النفس.

ـ ٩٥ ـ

ولا يفوتني أيها السائل المستوضح الكريم أن أذكر لك أنني أقول ذلك بعد أن مررت بمرحلة شهدت وتعرفت فيها على الحديث السياسي وصياغة المواقف الوسطية في المؤتمرات وكل ما حدث فيها من تكييف للموقف على أساس أن ذلك التكييف حكمة مفيدة للقضية التي نعمل من أجلها، وأن ذلك سيكون له أثر ايجابي في الرأي العام الدولي، وأن ذلك سيكون في النهاية لمصلحتنا، وأظنك تعرف بقية القصة.

كما أتوقع أن تكون مطّلعاً أيها السائل المستوضح الكريم على ما هو أبعد من ذلك، وأقصد به ذلك الحوار المتصل الذي تسرّب تدريجياً إلى أوساطنا، ومن ثم إلى عقول بعضنا، القائم أساساً على فهم خاص للمرونة وتقدير معين لما تعنيه سياسة المراحل، وتطور ذلك في ما بعد إلى ما يسمى بالمرونة السياسية وقبول منتصف الطريق على أساس أنه الممكن الآن، وأنه أفضل من لا شيء.

إنني أيها السائل المستوضح الكريم لا أؤمن اطلاقاً بأي حل وسط مع الكيان الصهيوني، فهذا الكيان يجب أن يزول من الوجود

نهائياً، ولا أؤمن أبداً بأي وطن قومي ـ ناهيك عن وجود دولة لليهود في فلسطين ـ ولا بأي وضع خاص لهم، ولا بأي شيء من كل ما يقال أحياناً عن دولة فدرالية أو كونفدرالية بين العرب واليهود.

وإذا ما سألتني ـ وأظنك ستسألني ـ عمّا يجب أن يكون مصير اليهود الموجودين في الكيان الصهيوني، فأقول لك بكل تأكيد، ومن دون أي تردد انهم يجب أن يتركوا فلسطين إلى أي مكان يختارونه في العالم فعليهم أن يغادروا كما أتوا. المبدأ الذي عرفناه منذ عشرات السنين وهو انه يجب أن يغادر الوطن العربي كل من هاجر إليه لغاية استعمارية هو المبدأ الصحيح والمبدأ العملي الوحيد الواجب التطبيق. نعم، كل من دخل فلسطين بتأثير معتقدات صهيونية بما هو معروف عنها ـ أي أفكار الوطن القومي اليهودي أو الدولة اليهودية أو أي من الأفكار الاستعمارية التي عرفت عن الحركة الصهيونية ـ فعليه أن يغادر فوراً ومن دون قيد أو شرط. الفرنسيون المستعمرون في الجزائر قد غادروها بعد أكثر من قرن من الاستيطان، والدولة الصليبية وكل ما أقامه الصليبيون في فلسطين خلال حقبة أطول بكثير من حقبة استعمار فلسطين قد زال، والكيان العنصري الذي أقامه المستعمرون البيض في روديسيا قد زال، وكذلك النظام الاستعماري العنصري في جنوب افريقيا. وهكذا كان حال جميع حالات الظلم والاستعمار التي عرفها التاريخ، والكيان الصهيوني لن يكون الشذوذ عن مجرى التاريخ.

ومن باب تحويط الموضوع وإغلاق دائرة النقاش لا بد من أنك أيها السائل المستوضح الكريم تريد مني كلمة عن موضوع **اليهود** وأنا أعرف أن ذلك لا يمكن إلا أن يرد على ذهنك، فالدعاية الصهيونية الغربية ـ الاستعمارية قد نفخت في هذا البوق طويلاً وقرعت هذا الطبل لعقود من السنين وأنها ـ مع الأسف ـ قد أثرت في الكثير من أصحاب النفوس السوية والعقول المستنيرة بتأثير ذلك الارهاب الفكري المسمّى بمعاداة السامية.

إنني أيها السائل المستوضح الكريم عربي مسلم ومحور تفكيري هو أن يسترجع الضمير سلطانه على غرائز الإنسان ليسود الحق والفضيلة على الباطل وميول الشر. لذلك فإنني لا أنظر إلى هذا الموضوع من زاوية الدين اطلاقاً، وأجد أن الأديان السماوية تهدف في النهاية وإن كان بدرجات متباينة وأساليب مختلفة، إلى تغليب نزعة الخير على نزعة الشر في الإنسان وجعله يعيش حياة أكثر فضيلة في هذه الدنيا وفي مثواه الأخير. لذلك فليس في تفكيري موقف مسبق من هذا الدين أو ذاك. وبعبارة موجزة، انني لا أحمل شيئاً سلبياً ضد اليهودية ولا اليهود، ولن أطيل في هذا الكلام لأنني لست واقعاً تحت إرهاب الخوف من تهمة عداء السامية.

أما **الصهيونية**، أيها السائل المستوضح الكريم، فهي أمر آخر تماماً، فهي عدوة العرب وعدوة المسلمين وعدوة كل ما هو

خير، وعدوة البشرية جمعاء، فهي أعتى وأحلك وأجرم لون من ألوان النشاط الاستعماري عرفته البشرية، ومحاربتها والقضاء عليها ليس واجب العرب فقط ولا واجب المسلمين فقط بل هو واجب كل البشرية، فهي شكل من أشكال العنصرية بالرغم من القرار المفروض على الأمم المتحدة من قبل الإدارة الأمريكية الذي ينفي ذلك. بالطبع للصهيونية لغة منمّقة وادعاءات واسعة وحجج وكلام يطول عنه الحديث، عن الدين والنصوص وادعاءات السماء، ولكنك إن وضعتها في المصفاة وحلّلت أهدافها وقرأت ما تكتب واستمعت لما تقول ورصدت ما تفعل ودخلت في التفاصيل وشاهدت شخصياً ما قامت به ورصدت ما تريد أن تقوم به، وبعبارة أخرى إنك إن عرفت هذه الحركة على حقيقتها فإنك ستتوصل حتماً إلى نتيجة حالكة ألا وهي أنها أعلى مراحل الظلم والاستغلال والشر والرذيلة والقسوة في التاريخ الحديث، إذا استعملنا جزئياً تعابير ماركس عن الرأسمالية. لذلك فإنني أيها السائل المستوضح الكريم ضد هذه الحركة لا كمبادىء فقط بل كأشخاص كائناً من يكون أولئك الأشخاص، ومن أي دين أو لون أو قومية أو جنس كانوا. وأظنني الآن قد أوضحت لك ما أردت أن أقوله عن هذا الموضوع، يا أيها السائل المستوضح الكريم، أليس كذلك؟ قال: بلهجة الجزم: نعم.

ولم يفت السائل المستوضح الكريم أن يسأل عمّا جرى في ١٩ آب/أغسطس ١٩٩٣ في واشنطن من توقيع على ما سمي

بإعلان مبادىء حول ترتيبات الحكومة الذاتية الانتقالية، فقلت له: أظن أن ما قلته يكفي لتحديد الرأي ان فلسطين قطر عربي بكامل ترابه، ولا يحق لأحد، كائناً من يكون، بمن فيهم ممثلو شعب فلسطين، أن يتنازلوا عن شبر من أرض عربية لأجنبي. أما تحليل محتويات ذلك الاتفاق فليست موضوعاً عندي لأن المبدأ الذي قامت عليه مرفوض من الأساس.

ـ ٩٧ ـ

والآن، يبدو أننا قد قاربنا الانتهاء من هذا الحوار، أو لأقل إننا قد قاربنا الانتهاء في الوقت الحاضر، لأنه ليس لأي أمر من أمور الدنيا نهاية مطلقة لما يمكن أن يقال عنه إذا آمنا بالتطور وتغيير الظروف وظهور الجديد، حيث يكون لكل حادث حديث، كما يقال، بمعنى أن التطور وتغيير الظروف وظهور الجديد قد يوحي أو يوجب التغيير في الحديث زيادة أو نقصاناً، إضافة أو توضيحاً. نعم إنني أشعر بذلك الآن، فإن كنت كذلك ـ أيها السائل المستوضح الكريم ـ فأرجو أن أعرف ذلك نشدانا للتوافق المحبّب للنفس. قال: نعم، هو كذلك، ولكنه أضاف: نعم هو كذلك ان وافقتني على إضافة واحدة هي بمثابة هامش للموضوع قد يكون بالحديث عنه فائدة لي ولك ولمن ستتاح له فرصة الاطلاع على ما دار بيننا. وإزاء هذا الحديث المنطقي لم أجد إلا الموافقة، فقلت له: قل ما تريد.

قال السائل المستوضح الكريم، وقد توثقت الآن بيني وبينه روابط الودّ التي ينسجها تواصل التفكير ووسائل الحوار بين عقل وعقل، بينهما من التقارب أكثر مما بينهما من التباعد، وبين ضميرهما من التوق للحقيقة أكثر من التعصب؛ قال بلغة الودّ ورقّة النفس: لو أنني أجبت عن سؤالك السابق بالنفي وأردت مواصلة الحديث، هل كنت تستمر بذلك؟ قلت له: نعم، من دون شك. قال: ألا يعني ذلك أنك مستعد للسؤال والجواب عن أمور أخرى غير التي تضمّنها حوارنا هذا؟ ألا يوجد عندك أمور لا تستطيع أو لا يمكن الحديث عنها الآن أو في المستقبل؟ فقلت، ولم أتردد في الجواب: إعلم أيها السائل المستوضح الكريم، وأيها الزميل العزيز، ان جوابي لا يمكن إلا أن يكون ايجابياً، فإنني من حيث المبدأ لا أجد أن هناك موضوعاً لا يمكن الحديث عنه بين إنسان وإنسان. فذلك مبدأ جوهري لأنني ببساطة أستطيع أن أرجع إليك السؤال وأضع الكرة في ملعبك، كما يقال، وأقول، ولماذا يوجد أمر لا يستطيع إنسان عاقل أن يتحدث به مع إنسان عاقل آخر؟ ما المانع وماذا يمكن أن يكون؟ والناس أَلَم تلدهم أمهاتهم أحراراً، كما قال عمر الفاروق قبل حوالى أربعة عشر قرناً؟

لا، بل أود أن أقول لك ـ أيها الزميل العزيز، والسائل المستوضح الكريم ـ لقد كان من الخطأ والمضرّ أننا لم نتحدث عن بعض الأمور في حياتنا الثقافية السابقة. نعم، لقد كان ذلك خطأ ومضراً في حصيلته النهائية. ولأجل أن أسهل عليك الأمر

وأوفر عليك عناء التفكير بالسؤال أود أن أقول اننا أخطأنا كثيراً عندما أمتنعنا في بعض الأحيان عن المناقشة في موضوع الدين وبكامل الحرية ومن جميع الوجوه. وأخطأنا كثيراً عندما امتنعنا في بعض الأحيان عن مناقشة المذاهب في الدين وقضايا الفلسفة والفقه والشريعة وعن كل ما يمتّ للدين والفلسفة وبكامل الحرية.

ويا أيها السائل المستوضح الكريم، كان من الخطأ لمجتمعنا، ومن المضر أننا امتنعنا عن الحديث والمناقشة في الكثير من القضايا الاجتماعية كالجنس مثلاً، وكان من الخطأ والمضر أننا تحاشينا في بعض الأحيان الحديث عن العصبيات من مختلف الأنواع، وعن السحر وعن الشعوذة وعن الفساد في مختلف الطبقات ومن جميع الأصناف. وكان من الخطأ والمضر أننا لم نتحدث بتوسّع وحرية كاملة عن التقصير والإهمال والكسل والمعايب والعلل الاجتماعية والأمراض السياسية والنفسية ومن تقصير القوي والضعيف وعن مساوىء الغني والفقير، وبعبارة موجزة، عن كل ما نعتقد أنه خطأ أو تقصير أو علّة مهما كانت ومن أين أتت ومهما كان مصدرها. لم نتحدث عن بعض العادات السيئة وبعض التقاليد البالية وبعض المعتقدات الدخيلة على الإسلام وهكذا. لقد أخطأنا أيها الزميل العزيز والسائل المستوضح الكريم في كل ذلك، فإننا وإن كنّا حققنا تقدماً في بعض النواحي، إلا أننا كان من الممكن أن نحقق تقدماً أكبر ونهضة أوسع لو أننا نبذنا الرأي المحافظ الذي دافعه الخوف والوهم ألا وهو أننا

نكسب شيئاً عندما نسدل الستار على علّة أو لا نتحدث عن خطأ أو نتجنب الحديث عن أمر نراه مضرّاً. وكانت النتيجة كما ترى أن معرفتنا بهذه العلل والنقائص بقيت محدودة وسطحية، وأن هذه العلل والنقائص قد طال عمرها وامتد أمدها وبقيت من دون معالجة تماماً، على عكس ما كنا نتوهم أن عدم الحديث عنها سيجنبنا نتائج سلبية أو أن الزمن كفيل بإزالتها. الزمن وحده لا يغير الأشياء، الإنسان هو الذي يزيل هذا الشيء ويضع ذلك الشيء في مكانه.

وقبل أن أصل إلى نهاية هذه الملاحظات لا يفوتني أن أقول أيها الزميل العزيز وأيها السائل المستوضح الكريم اننا نعاني حالة نفسية قد ساعدت على ارتكابنا هذا الخطأ ألا وهي أننا عندما نقبل على مناقشة موضوع حار أو ملتهب كالدين أو المذهب أو الجنس نلحظ انفعال الجمهور والمستمعين للموضوع، ومن ذلك الانفعال نتصور أن نتيجة سلبية قد نتجت من فتح النقاش وهو أمر نرغب في أن نتجنبه. إن ذلك أمر صحيح من حيث انه يحدث. ولكن الإجابة عنه هي أن ذلك الانفعال يحدث لأنه موضوع جديد لم يسبق للجمهور أن ناقشه كالدين أو المذهب أو الجنس، إذ لا بد أن يحدث مثل ذلك الانفعال في البداية. ولكن ذلك الانفعال سرعان ما يتناقص ويتلاشى بالتدريج بمرور الوقت حيث يصبح الأمر مألوفاً معتاداً عليه الجمهور.

الأمر الثاني هو أننا غالباً ما نتصور خطأ هو أن عدم طرح

الموضوح للنقاش العام سيمنع الجمهور من التفكير فيه والتفاعل معه. المجتمع يفكر في الأمور الإشكالية ويتفاعل معها، على كل حال، لا بل على العكس، فهو عندما يفكر فيها ويتفاعل معها في غياب النقاش المفتوح يكون عرضة للأوهام وتكوين الأحكام الخاطئة أكثر مما لو أن الأمر معروض لنقاش حر مفتوح للجميع وعلى ظهر الطاولة، وليس تحتها. النقاش المفتوح الحر هو الوسيلة الناجعة لسيادة العقل والمنطق والنقاش السليم وذلك هو مصدر تكوين القناعة الصحيحة وتصويب الأخطاء. وحركات الاصلاح المهمة في التاريخ لم تحدث إلا عن هذا الطريق، ومن يملك الدليل على عكس ذلك فليقدمه. ومن المؤسف حقاً ان نهضتنا الحديثة لم تشهد حركة فكرية للاصلاح الديني ولمعالجة مسألة المذاهب على سبيل المثال.

والآن أظن أيها الزميل العزيز، السائل المستوضح الكريم، أنك قد توصلت كما توصلت، أنا، إلى اتفاق على الختام وعلى شيء من التفاهم كما أرجو أن يكون.

هذا الكتاب

يتضمن هذا الكتاب عن القومية والوحدة العربية: **سألني سائل فأجبت حواراً**، تصوّر المؤلف أنه جرى بينه وبين مواطن عربي من مدينة«وجده»المغربية، فيه بذور الخير وبداية الشعور القومي. وقد أطلق المؤلف على هذا المواطن العربي نعت «السائل المستوضح الكريم».

وبكثير من الصدق والشفافية، جرى الحوار نزيهاً هادئاً، متسلسلاً، بين السائل والمجيب، وكأنه لغة الاستيضاح والتزود بالمعرفة؛ فغدت مفاهيم القومية والوحدة العربية أساساً تفرّعت منه عشرات الأسئلة، التي تناولت أسباب الدعوة الى الوحدة، وكيف السبيل الى تحقيقها في ظل كيانات قطرية مجزّأة، وما هي شروط العمل القومي، وما علاقة الفكر الوحدوي بالعقائد الأخرى، وما علاقة القومية بالتقدمية والرجعية، والإنسانية والعالمية، ومن ثم: مَنْ هم أعداء الوحدة، في الداخل، والخارج. بالإضافة الى ما جرى من مقارنة مشوّقة بين سلبيات التجزئة القطرية وإيجابيات الوطن العربي المستظل براية الوحدة.

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٠٩٠ ١١٠٣ ـ لبنان
تلفون : ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

e-mail: info@caus.org.lb

Web Site: http://www.caus.org.lb